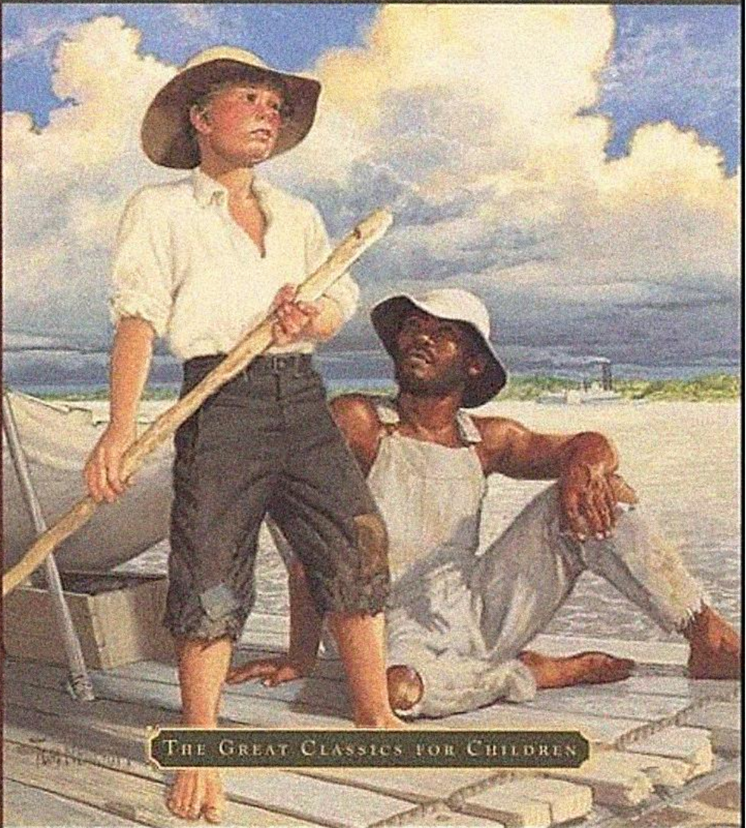
مغامرات هاكلبرى فن



مارك توين

الألف كتاب

مغامرات "هاكلبري فن"

(١٨٥)

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

هذا ترجمة لـكتاب :

The Adventures of HUCKLEBERRY FINN

تأليف

MARK TWAIN

الألف كتاب (١٨٥)

مغامرات "هاكلبري فن"

تأليف

مارك توين

ترجمة

ماهر نسيم

مراجعة

فريد عبد الرحمن

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي (الفجالة)

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي "الفجالة"

نبذة عن المؤلف

((مارك توين))

---

* ولد عام ١٨٣٥ ، ووافته منيته عام ١٩١٠ بعد أن عاش خمسة وسبعين عاما .

* كاتب عصامى ، بلغ مكانته المرموقة فى ميدان الأدب بعد جهد مرير وكفاح شاق طويل ، فقد اشتغل عاملا فى المناجم ومراسلا صحفيا ومحاضرا فى المعاهد .

* اشتهر بسخريته اللاذعة ودعابته الحلوة التى توسل بها فى معالجة المشاكل الاجتماعية .

* وضع عدة كتب أشهرها ((توم سوير)) – ظهر فى سلسلة (الألف كتاب) فى عام ١٩٥٦ – و ((هاكلبرى فن)) – التى نقدمها الآن – و ((الحياة على نهر المسيسبى)) عدا عدة كتب أخرى حظيت بتقدير النقاد فى كل مكان ، وترجمت الى عدة لغات أجنبية .

* كاتب مصلح ، لم يخل أى كتاب له من محاولة لاصلاح المجتمع والقضاء على الادواء ، والمثالب الاجتماعية .

تقديم

أصدرنا فى عام ١٩٥٦ ، ضمن مجموعة « الألف كتاب » قصة (توم سوير) للكاتب الساخر « مارك توين » ، وهى قصة غلام تهفو نفسه الى المغامرة والمخاطرة وينبض قلبه بما تنبض به قلوب البشر عادة من حب وبغض ، وقلق وارتياح ، وألم ومرح ، وخذلان وانتصار ، وثورة على النفس ورضاء بالواقع .

ولقد اقتسم بطولة قصة « توم سوير » غلامان صغيران هما « توم سوير » المغامر المحظوظ ، و « هاكلبرى فن » الفتى الشريد الضائع . ولقد اراد « مارك توين » ذلك لأنه احب أن يجعل من هاتين الشخصيتين وحدة متماسكة تؤدى غرضا واحدا هو معالجة مشاكل المجتمع معالجة صادقة ، ونقدها نقدا صارما فى وقت واحد .

وانتهت قصة « توم سوير » كما قد يذكر القراء ، بعثور الغلامين على كنز ثمين اقتسماه ، وعهد كل واحد منهما بنصيب منه الى أصدقاء كبار استثمروا لهما ذلك المال . وأصبح « هاكلبرى فن » الفتى الشريد الضائع نجما من نجوم المجتمع ، فقد آوته سيدة كريمة تناولته بالتثقيف والتهذيب ، وراحت تغرس فيه العادات الفاضلة والتقاليد الحميدة لكى تجعل منه مواطنا صالحا .

ولكن « مارك توين » حينما أنهى قصة « توم سوير » على ذلك النحو ، كان قد اعتزم أن يتتبع حياة الغلامين مرة أخرى ، فيؤرخ

لهما بعد أن أصبحا شابين يافعين تربين ، ومن ثم قال فى خاتمة تلك القصة « وعند هذا الحد تنتهى هذه القصة ، وانه لمن الخير أن تنتهى هنا ، لأنها لا تعدو أن تكون ترجمة حياة غلام هو توم سوير ... ولو أن القصة مضت الى ما هو أبعد من ذلك ، لكان حتما أن تصبح ترجمة حياة رجل . فعندما يكتب المرء قصة عن أحد الراشدين ، فانه يدرك أين ينبغى له أن يتوقف ... عند زواج مثلا . ولكنه حينما يكتب عن الأحداث ، فانه يحرص على أن يتوقف عن الكتابة عند أحسن خاتمة ملائمة ... ان معظم الأشخاص الذين لعبوا أدوارا فى هذه القصة ما زالوا على قيد الحياة ، وهم ناجحون سعداء . وقد يأتى يوم ، يصبح من الأفضل فيه أن تستأنف رواية قصص هؤلاء الصغار مره اخرى ، لنرى أى طراز من الرجال والنساء صاروا ، ومن ثم فان الحكمة تقتضينا ألا نزيح الستر عن أى جزء من أجزاء حياتهم فى الوقت الحاضر » .

على هذا النحو أنهى « مارك توين » قصة « توم سوير » ، ذلك أنه كان يمهد لقصته الأخرى « مغامرات هاكلبرى فن » التى نتشرف اليوم بتقديمها الى القراء الكرام .

وواضح من خاتمة قصة « توم سوير » ، أن قصة « مغامرات هاكلبرى فن » هى تتمة القصة الأولى ، ففى قصة اليوم ، يرسم « مارك توين » ما آل اليه « هاكليرى فن » الفتى الشريد الضائع الذى أثرى بغتة وبطريق « المصادفة » .

ولئن كانت قصة « توم سوير » قد عالجت حياة غلامين صغيرين مغامرين لعب حب المغامرة بعقليهما فأشقاهما وأشقى ذويهما فى بادىء الأمر ، ثم أسعدهما وأسعد ذويهما فيما بعد ، فان قصة « مغامرات هاكلبرى فن » تعالج حياة شابين يافعين تصطدم حياتهما بتقاليد المجتمع وأوضاعه ، ثم لا يلبث الخير المتأصل فى

نفسيهما أن يطغى على شرور المجتمع بحكم ما جبلت عليه النفس البشرية من خير طبيعي .

ولقد صور « مارك توين » البيئة التي تدور فيها القصة تصويرا رائعا كشف عن تقاليد تلك البيئة وعاداتها ، بكل ما تحفل به من أهواء ونوازع وخرافات وعادات موروثة .. فهناك مشكلة الزنجي الذي لم يكن يحظى بالتقدير الملائم ؛ وهناك مشكلة الناس البسطاء الذين يؤمنون بالسحر والشعوذة والشياطين ؛ وهناك مشكلة الأب الضائع الذي غلبه الشر على أمره فراح يطارد ابنه ليسرق ماله وينفقه على ملذاته وشرابه ؛ وهناك مشكلة الفتاة العانس التي تقضي حياتها بين الكتب والكنيسة ؛ وهناك مشكلة الموظف البيروقراطي الكبير الذي يكتسب تقدير الناس له من طريق منصبه لا من طريق شخصيته وثقافته ؛ وهناك مشكلة الرجل الذي يتخذ من منصبه وسيلة لبلوغ ما يطمح اليه من مهابة ومجد ؛ وهناك مشكلة الفتى الضائع الذي يضيق بالنظام والنظافة والحضارة ويحن الى حياته البدائية الأولى حرصا منه على الاستمتاع بحريته البدائية ؛ وهناك مشكلة الآباء والأمهات الذين يشقون بحياة أبنائهم الصغار ولا يملكون الا أن يستطيبوا هذه الحياة لأنها تجري على هذا النحو دائما ؛ وهناك مشكلة الشبان الصغار الذين يشبون على تقاليد ومقاييس ومفاهيم فرضت عليهم فرضا ، ولم يعد في وسعهم الا أن يرضخوا لها كما يرضخون للقدر دون أن يفهموا لها معنى في بادىء الأمر ... وهناك عشرات من المشاكل الاجتماعية الأخرى التي عالجها « مارك توين » معالجة صادقة عامرة بالدعابة الحلوة التي لا تهدف الى مجرد التسلية بقدر ما تهدف الى الاصلاح الاجتماعي .

ولما كان « مارك توين » قد حرص على أن يكتب هذه القصة باللغة « الدارجة » لا الفصحى ، فقد قام بذهننا في بادىء الأمر

أن ننقلها باللغة العربية « الدارجة » أيضا حتى لا تفقد شيئا من روعتها ، ولكننا عدلنا عن ذلك حتى لا نهبط بمستواها الأدبى ، وان كنا قد تعمدنا ان نكون اللغة الفصحى التى نقلنا بها القصة الى العربية سهلة بسيطة لا هى بالمتحذلقة ولا هى بالعامية ! !

ولقد وقع اختيار ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم على هذه القصة بالذات لأنها تصور الحياة الانسانية تصويرا رائعا ، يستهدف الارتقاء بالذات والتطلع الى الأمام وتغليب الخير على الشر مهما اشتدت قوة المؤثرات والمغريات .

وفى الختام ، هذه لمحة خاطفة عن قصة « مغامرات هاكلبرى فن » التى نتشرف بوضعها بين أيدى القراء الكرام ، سائلين الله تعالى أن يوفقنا جميعا الى ما فيه الخير والتوفيق ، والسلام .

فريد عبد الرحمن **ماهر نسيم**

مغامرات هاكلبرى فن

الفصل الأول

واطسون ــ توم سوير فى الانتظار . تهــذيب هاكلبرى ــ الآنســـة

* * *

انك لن تعرفنى ايها القارىء الا اذا كنت قد قرات كتابا بعنوان « توم سوير » (١) ، وان كنت اعتقد الا اهمية لذلك ، فقد ألف مستر « مارك توين » هذا الكتاب وضمنه جوهر الحقيقة ، ومع انه سمح لنفسه بان يبتدع بضع حقائق نسجها خياله ، فانه توخى الصدق بصفة عامة . وعلى اية حال ، فاننى لا اذكر اننى قابلت انسانا لم يكذب مرة او اخرى ، ولست استثنى من ذلك « الخالة بولى » أو « الأرملة دوجلاس » وربما « مارى » . ولقــد ذكر « مارك توين » كل شيء عن « الخالة بولى » ــ وهى خالة توم ــ ومارى ، والأرملة دوجلاس فى هذا الكتاب .. وهوكتاب صادق فى مجموعه مع بعض الجنوح الى الخيال كما قلت من قبل .

(١) صدرت قصة « توم سوير » ضمن مشروع الالف كتاب فى عام ١٩٥٦ ، ونشرتها مكتبة الانجلو المصرية ــ ترجمة ماهر نسيم ومراجعة فريد عبد الرحمن .

أما مجمل هذا الكتاب اذا كنت لم تقرأه فكما يلى :

عثرت أنا وتوم، على النقود التى أخفاها اللصوص فى الكهف، وبذلك أصبحنا فى عداد الأثرياء ، فقد حصل كل منا على ستة آلاف دولار من الذهب . ولقد كان منظر الذهب منيرا للرهبة عند ما كدسناه . . وتولى القاضى « فاتشر » توظيف هذا المال لقاء فائدة ، فكان كل منا يحصل على دولار يوميا على مدار السنة ، وهو اكثر مما يستطيع الانسان انفاقه . واتخذت الأرملة دوجلاس منى ابنا ، وقررت أن تهذبنى ، ولكنى ضقت بالحياة فى منزلها بسبب صرامة النظام ، رغم ما كانت الأرملة نفسها تتصف به من دماثة خلق ، ومن ثم بادرت بالفرار ، حينما استعصى على احتمال صرامة النظام فى منزل الأرملة ، فهربت ، وعدت الى ارتداء أسمالى البالية ، والنوم فى البراميل ، ولكن توم سوير استطاع أن يعثر على ، وقال لى انه قرر تكوين جماعة من المغامرين ، وأن فى استطاعتى أن انضم اليها بشرط أن أعود ثانية الى الأرملة وأن أكون رجلا محترما ، وهكذا عدت ! . . . .

وبكت الأرملة عند ما عدت اليها ، ووصفتنى بأننى حمل تعس ضال ، كما أطلقت على أسماء أخرى كثيرة ، ولكنها لم تقصد من ذلك كله أية اساءة ، وألبستنى تلك الثياب الجديدة مرة أخرى ، فلم يلبث العرق ان انسال من كل جسمى ، وشعرت باننى مقيد الحركة تماما . . . وهكذا استؤنفت الحياة القديمة ثانية ؛ وهى حياة مرهقة ، عليك أن تخضع لها ، فاذا ما دقت الأرملة الجرس لاعداد طعام العشاء ، كان عليك أن تعد نفسك لتناوله فى الوقت المحدد ، واذا ما جلست الى المائدة ، فانك لم تكن لتستطيع أن تنقض على الطعام فتلتهمه التهاما ، وانما كان عليك أن تنتظر ريثما تحنى الأرملة رأسها وتتمتم ببضع كلمات عن ذلك الطعام ، وان كنت أعتقد أنه لم يكن هناك ما يدعو لذلك ، فقد كان كل لون من ألوان الطعام

يطهى على حدة ، على حين أن البرميل الذى كنت أبحث فيه عن الطعام وأنا شريد ضال ، كان شيئا آخر يختلف عن ذلك تماما .. فهو يحتوى على فضلات عدة تختلط ببعضها ، وتمتزج عصائرها فتنتج شيئا لطيفا ! !

وكنت كلما شعرت بالرغبة فى التدخين ، وطلبت من الأرملة أن تسمح لى بذلك ، أجبت بالرفض ؛ فقدكانت تقول دائما ان التدخين عادة ممقوتة غير نظيفة ينبغى لى أن أقلع عنها .

وكانت أختها الآنسة واطسون ، وهى عانس ترتدى عوينات ، قد وصلت لتوها لتقيم مع الأرملة ، فلم تلبث أن تولت أمر تعليمى فى كتاب للتهجية ، وقضت قرابة ساعة وهى تعلمنى فى خشونة معتدلة ، ولقد طلبت منها الأرملة أن تتوقف لانى لم أستطع احتمال هذا العناء أطول من ذلك . ثم مضت ساعة بغيضة كنت أثناءها كثير التململ ، وكانت الآنسة واطسون لا تفتأ تقول لى « لا تضع قدميك هكذا عاليا يا هاكلبرى ! » .. « لا تنكمش هكذا ياهاكلبرى ! » .. « اجلس معتدلا ياهاكلبرى ! » .. ثم لا تلبث أن تقول : « لا تفتح فمك وتتمدد هكذا يا هاكلبرى ! » ... « لماذا لا تحاول أن تتأدب يا هاكلبرى ! »

واستمرت الآنسة واطسون تنتقدنى ، فبدأت أشعر بالضيق والوحدة ، وبعد فترة من الوقت استدعى الزنوج وأقيمت الصلاة ، وأوى كل واحد منا بعدئذ الى فراشه ، أما أنا ، فصعدت الى غرفتى وأنا أحمل قطعة من الشمع وضعتها فوق المنضدة ، ثم جلست فوق مقعد بجانب النافذة ، وحاولت أن أفكر فى شىء سار ولكن عبثا ، فقد شعرت بوحدة قاتلة جعلتنى أتمنى الموت .. كانت النجوم تتألق فى السماء ، وأوراق الأشجار تحدث حفيفا حزينا فى الغاب ، ولم ألبث ان سمعت نعيب بومة من بعد ، وكأنها كانت تنعى شخصا قضى ، وأعقبه عواء كلب خيل الى انه كان يبكى من

أجل شخص يوشك أن يموت ، بينما كانت الريح تحاول أن تهمس الى بشيء لم أستطع أن أتبينه ، ولهذا انتفضت فزعا . . . وبعدئذ سمعت صوتا صادرا من قلب الغاب أشبه بصوت شبح يريد الافضاء بشيء يدور بخلده فلا يفهمه الناس، ومن ثم فانهلايستطيع أن يرقد مستريحا فى قبره ، ويضطر الى سلوك هذا المسلك عينه كل ليلة وهو يشعر باعظم الحزن ! ولقد غاص قلبى بين ضلوعى ، واجتاحنى فزع عظيم ، وتمنيت لو أن أحدا كان معى ، وبعد قليل بدأ عنكبوت يزحف فوق كتفى فضربته بيدى ، فسقط فوق الشمعة ، وقبل أن أتمكن من انقاذه من النار احترق وانكمش ، ولم أكن بحاجة لان يذكرنى أحد بان ذلك نذير مشئوم !! وانتابنى الفزع، حتى لقد كدت أنضو الثياب عنى ، وأسرعت بالوقوف ، ودرت على عقبى ثلاث مرات ، وأنا أرسم علامة الصليب فوق صدرى فى كل مرة . وبعدئذ ربطت خصلة صغيرة من شعرى بقطعة من الخيط كى أطرد السحرة عنى ! ! ولكنى لم أكن واثقا من ذلك ، لأن المرء يفعل مثل هذا الشيء فقط عندما يفقد حدوة حصان ، كان ينبغى أن يدقها فوق الباب ! ولكننى لم أسمع ابدا ان مثل هذا الصنيع خليق بابعاد « النحس » عن شخص قتل عنكبوتا ! !

وجلست ثانية وأنا أنتفض بشدة . وبعد فترة طويلة ، سمعت ساعة المدينة البعيدة تدق اثنتى عشرة دقة . ثم ساد مرة أخرى صمت أشد كآبة من ذى قبل ، وسرعان ما سمعت صوت غصن يتحطم فى الظلام الذى كان يخيم على الأشجار ، فأدركت ان شيئا ما يتحرك بين تلك الأشجار ، وأصخت السمع ، وما لبثت ان سمعت مواء متكررا صادرا من قلب الظلام . وكان هذا نداء مثيرا ، مضيت أكرره بدورى بصوت رقيق قدر طاقتى ، وبادرت فاطفأت الشمعة ، وتسلقت النافذة الى سطح الحظيرة ، ثم انزلقت الى الأرض وزحفت بين الأشجار ، ولم ألبث أن وجدت « توم سوير » فى انتظارى . . . فقد كان « المواء » هو اشارة اللقاء .

الفصل الثاني

الأولاد يتهربون من جيم – جيم وجماعة توم سوير – خطط موضوعة بعناية .

* * *

سرنا فوق أطراف أصابعنا فى طريق تحف به الأشجار يؤدى الى مؤخرة حديقة منزل الأرملة ، ونحن نحرص على خفض رءوسنا حتى لا تحتك أغصان الأشجار بها . وعندما كنا نمر بالمطبخ ، تعثرت فى جذر شجرة وأحدثت ضوضاء ، فأسرعنا نتمدد على الأرض وقد لذنا بالصمت ، وكان خادم الآنسه واطسون الزنجى ، واسمه جيم ، جالسا عند باب المطبخ ، وكان فى استطاعتنا أن نراه بوضوح ، لأن ضوءا خافتا كان ينبعث من خلفه ؛ وما لبث الزنجى أن هب واقفا ومد عنقه الى الخارج زهاء دقيقة وهو يصيخ السمع ، ثم صاح :

– من هناك ؟

وأصاخ الزنجى السمع فترة أطول من ذى قبل ، ثم أقبل يسير على أطراف أصابعه ، وتوقف بينى وبين توم ، غير بعيد منا ، حتى لقد كان فى استطاعتنا ان نلمسه . ومضت دقائق ودقائق من الصمت الثقيل ، وأحسست بأن جسمى « ياكلنى » فى مكان قريب من ركبتي ولكنى لم أحكه ! ثم انتقل هذا الاحساس الى أذني ، ثم الى ظهرى بين كتفى ، وخيل الى اننى سأموت اذا لم

أحك هذه المواضع كلها . والعجيب فى الأمر اننى لاحظت أن هذا الاحساس انتابنى مرات كثيرة من قبل ، فانك حين تحاول النوم وأنت لا تشعر بالنعاس ، أو حين تكون فى موقف لا يحسن بك فيه أن تحك أحد أجزاء جسمك ، لا تلبث ان تعانى الأمرين من « الأكلان » فى آلاف المواضع ! !

وبعد قليل قال جيم :

ــ من أنت ؟ وأين أنت ؟ اننى واثق من اننى سمعت صوتا ... حسنا ، اننى أعرف ماذا ينبغى أن أفعل . سأجلس هنا وأصغى ريثما أسمع الصوت ثانية .

وهكذا جلس الزنجى على الأرض بينى وبين توم ، واستند بظهره الى جذع شجرة ، ومد ساقيه امامه حتى كادت احداهما تلمس ساقى ، وبدأ أنفى « يأكلنى » حتى لقد اغرورقت عيناى بالدموع ، ولكنى لم أحكه ولم أدر كيف استطعت احتمال هذا العذاب الذى ظل ما يقرب من ست أو سبع دقائق ، وان خيل الى أن المدة كانت أطول من ذلك ! ولقدكنت أعانى من « الأكلان » فى أحد عشر موضعا مختلفا ، وأيقنت أننى لن أستطيع احتمال هذا العناء دقيقة واحدة أخرى ، ولكنى أطبقت أسنانى ، وتهيأت لمحاولة الاحتمال بكل قوة ، وفى تلك اللحظة ، بدأ جيم يتنفس بثقل ، ثم لم يلبث ان ارتفع شخيره ... وفى التو شعرت بالراحة مرة أخرى .

وأتى « توم » باشارة لى بأن أطلق من فمه صوتا كنا قد اتفقنا عليه ، وبدأنا نزحف فوق يدينا وركبتينا ، وعند ما أصبحنا على مبعدة عشرة أقدام من جيم ، همس « توم » قائلا انه يرغب فى شد وثاق « جيم » الى الشجرة لمجرد اللهو ، ولكنى رفضت الموافقة على هذه الفكرة خشية أن يستيقظ الزنجى فيكتشف الجميع اننى لست بالمنزل ! وعندئذ قال « توم » انه لا يملك شموعا كافية ، وانه

سيتسلل الى المطبخ ليحضر مزيدا من الشموع ، فقلت له انني لا أوافق على هذه المحاولة ، اذ يحتمل أن يستيقظ جيم ويفضح أمرنا ، ولكن « توم » قرر المجازفه ، فتسللنا الى المطبخ وحصلنا على ثلاث شمعات ، وترك توم قطعة نقود من ذات الخمسة السنتات (ما يعادل قرشين) فوق المنضدة ثمنا للشموع ، ثم انصرفنا بعد أن غرقت في العرق لفرط لهفتي على مغادره ذلك المكان ، ولكني لم أستطع أن أثني « توم » عن الزحف الى حيث كان « جيم » نائما ، فقد قرر أن يسخر منه . أما أنا ، فقد انتظرت ، وخيل الى أن وقتا طويلا قد مر قبل أن يعود « توم » ، وكان الكون هادئا صامتا ، يلقي بالوحشة والوحده في القلوب .

وما ان عاد « توم » حتى انطلقنا في الممر ، ثم درنا حول سياج الحديقة ، وسرعان ما بلغنا قمة تل شديد الانحدار على الجانب الآخر للمنزل ، وقال « توم » انه نزع قبعة « جيم » من فوق رأسه ، وعلقها على غصين فوق رأسه مباشرة ، ومع أن « جيم » تململ قليلا ، الا انه لم يستيقظ .. وفيما بعد قال « جيم » للناس ان السحرة سحروه ، وأفقدوه الوعي ، ثم ركبوه وطافوا به في أرجاء المدينة ، وأعادوه مرة أخرى الى مكانه تحت الأشجار ، وعلقوا قبعته فوق غصين ليدلوا على من فعل ذلك !! وعند ما ذكر « جيم » القصة في المرة التالية قال ان السحره طافوا به حتى ولاية نيو أورليانز ! وكان كلما أعاد سرد قصته ، تبسط فيها أكثر فأكثر ، الى أن انتهى الأمر بقوله ان السحرة طافوا به العالم كله وأتعبوه الى درجة الموت ، وأحدثوا في ظهره عشرات «الدمامل» بسبب السرج الذي وضعوه فوق ظهره قبل أن يركبوه ! وكان جيم يزهو بذلك ويتفاخر ؛ وجعله هذا يتعاظم على غيره من الزنوج . وكان كثيرون منهم يقطعون الأميال الطويلة لكي يستمعوا الى قصته ، فأصبح أشهر زنجي في البلاد كلها ! وكان الزنوج

الغرباء يصغون اليه بأفواه فاغرة ، وهم يرمقونه بنظراتهم ، كما لو كان أعجوبة من العجائب . ومع أن الزنوج اعتادوا ان يتحدثوا عن السحرة فى الظلام وهم جالسون حول نار المطبخ ، فان «جيم» كان كلما شرع أحدهم فى التحدث عن السحرة والسحر ، يصرخ فى وجهه : « آه ... ماذا تعرف انت عن السحرة ؟ » وهكذا يرتج على الزنجى المتحدث ، ويضطر الى الانزواء ! ولقد حرص « جيم » على الاحتفاظ بقطعة النقود ذات السنتات الخمسة التى تركها « توم » فوق منضدة المطبخ معلقة فى خيط حول عنقه . وكان يقول انها طلسم اعطاه الشيطان له بيديه . وقال له انه يستطيع شفاء أى شخص من علله واسقامه بهذا الطلسم . وانه فى مقدوره أن يستدعى السحرة كلما اراد ذلك بتلاوة تعويذة معينة على هذا الطلسم ! ولكنه ــ اى جيم ــ لم يفض لاحد اطلاقا بما كان يقوله للطلسم ! وهكذا بدا الزنوج يفدون من كل حدب وصوب لمقابلة جيم واعطائه كل ما معهم من نقود فى مقابل القاء نظرة على قطعة النقود دات السنتات الخمسة ، ولكنه لم يكن يسمح لهم بلمسها ، بحجة أن الشيطان قد وضع يديه عليها ! ! ولقد أضر ذلك كله بجيم كخادم ، اذ بدا الناس جميعا ينفرون منه ، لأنه رأى الشيطان ، وسمح للسحرة ان يركبوه ! !

وأخيرا ، عند ما وصلنا الى حافة قمة التل ، تطلعنا الى القرية البعيدة ، وكان فى استطاعتنا أن نرى ثلاثة او اربعة اضواء متلألئة ، لعلها كانت تنبعث من منازل قوم مرضى ، اما النجوم ، فكانت أشد ما تكون لمعانا فوقنا . وفى القرية اسفلنا ، كان يجرى نهر عرضه ميل كامل ، وكان هادئا وعظيما بشكل يثير الرهبة . وانحدرنا من فوق التل ، فوجدنا « جو هاربر » و « بن روجرز » وغلامين أو ثلاثة آخرين . وكانوا جميعا مختبئين فى فناء المدبغة . وبعد قليل فككنا أحد القوارب ، وانطلقنا به فى النهر مسافة ميل

ونصف ميل الى أن بلغنا فجوة فى جانب التل . وهناك هبطنا الى الشاطىء .

ومضينا الى دغل كثيف ، واستحلف « توم » الغلمان جميعا أن يحافظوا على السر . وبعدئذ أطلعهم على فتحة فى التل الذى يقع فى أشد أجزاء الدغل كثافة ، ثم أوقدنا الشموع وزحفنا داخل الفتحة فوق أيدينا وركبنا ، وبعد أن قطعنا ما يقرب من مائتى ياردة ، ألفينا أنفسنا عند فتحة كهف . وهنا راح يتلمس طريقه بين الممرات ، ولكنه سرعان ما اندفع أسفل جدار لم يكن فى استطاعتنا أن نلاحظ أن به فجوة .. وسرنا فى ممر ضيق الى أن بلغنا مكانا يشبه الغرفة . وكان المكان رطبا باردا ، وهناك توقفنا ، وقال توم :

ــ سنبدأ الآن عملنا كجماعة من المغامرين ! وسنطلق على أنفسنا اسم « جماعة توم سوير » ، وعلى كل من يريد الانضمام اليها أن يدلى بقسم ويكتب اسمه بالدم !

ولم يتردد أحد من الحاضرين فى الموافقة على ذلك . ثم اخرج « توم » رقعة من الورق كان قد كتب عليها صيغة القسم ، وقرأها . وكانت هذه الصيغة تقضى بأن يقسم كل غلام على ألا يتخلى عن الجماعة ، وألا يبوح بأى سر من أسرارها ، واذا أساء أى شخص الى فرد من أفراد الجماعة ، فان على أى غلام يؤمر بمقاطعة هذا الشخص وأسرته أن يفعل ذلك بلا ابطاء ، وعليه أيضا الا يأكل أو يشرب حتى ينفذ الأمر . واذا أفشى أحد أفراد الجماعة أسرارها ، فيجب أن يفصل منها ويشطب اسمه من القائمة ، ولا تذكره الجماعة بعد ذلك .. ثم تنساه الى الأبد ! !

ولقد ردد كل واحد منا هذا القسم بلهجة جدية ، ثم سألنا « توم » ان كان القسم من بنات أفكاره ، فقال أن بعضه من

صياغته ، وانه اقتبس البعض الآخر من كتب المغامرين ومن صيغ القسم الذى كانوا يدلون به .

وقال البعض انه من الأفضل مقاطعة جميع أفراد عائلات الغلمان الذين يفشون الأسرار ! وقال « توم » انها فكرة حسنة ، ثم أخرج قلما وأضاف هذه الفقرة الى صيغة القسم . وعندئذ قال « بن روجرز » :

ــ مهلا لحظة ، ان « هاكليرى فن » لا أسرة له ، فماذا ستفعلون به اذا أخطأ ذات يوم ؟

فسأله توم سوير : أليس له أب ؟

ــ نعم ، ان له أبا ، ولكنك لا تستطيع العثور عليه فى هذه الأيام ، فقد اعتاد أن ينام مع الخنازير فى ساحة المدينة وهو مخمور ، ولكن أحدا لم يره فى هذه البقاع منذ عام أو أكثر .

وتناقش الاثنان فى هذا الأمر ، وكادا يستبعدان « هاكليرى » من الجماعة بدعوى انه يجب أن يكون لكل غلام أسرة أو شخص يمكن مقاطعته ، لأنه ليس من العدالة أن يطبق المبدأ على الغلمان ذوى الأسر دون غيرهم . ولم يستطع أحد أن يفكر فى مخرج من هذا المأزق . وجلس الجميع صامتين . أما أنا ، فكنت على وشك البكاء . وفجأة خطرت لى فكرة للخروج من المأزق ، فقد عرضت عليهم مقاطعة الآنسة واطسون !!. فقال الجميع :

ــ أوه .. انها تكفى .. انها تكفى .. هذا حسن .. يستطيع « هاكليرى » ان ينضم الى الجماعة .

وغرس كل منهم دبوسا فى أصبعه ليسيل دما يوقع به على الورقة ، فحذوت حذوهم .

وقال « بن روجرز » : والآن .. ماذا سيكون منحى هذه الجماعة فى العمل ؟

فقال توم : لا شىء غير المغامرة التى لا تضير أحدا .

فقال « بن روجرز » : ولكن ماذا ستكون سبيل هذه المغامرة ؟
... و ...

فقاطعه « توم سوير » قائلا :

ــ سيكون أهم عمل لنا هو تعقب اللصوص وقطاع الطرق ؛ فاذا ثبت لنا أنهم مجرمون حقا ويسلبون الناس أموالهم وماشيتهم ، عملنا على استعادة هذا كله منهم ورده الى أصحابه ؛ اما عن طريق البوليس واما بطريق المفاجاة . . ولن يكون فى ذلك اغتصاب ، فنحن لسنا مغتصبين ولا نحب الاعتداء على أحد . ولكن اذا ثبت أن من هؤلاء الخارجين على المجتمع قتلة وسفاحين ، ساعدنا البوليس على القبض عليهم وكف أذاهم عن الناس .

فاذا حدث أن قبضنا على بعض اللصوص ، ولم نر فى اطلاق سراحهم ثانية ما يهدد المجتمع ، طالبنا أهاليهم بالفدية !

ــ فدية ؟ وما هى الفدية ؟

ــ لست أدرى ! ولكن هذا مايفعله المغامرون دائما ! ولقد قرأت عن الفدية فى الكتب . ومن ثم ، فهذا هو ما يجب علينا أن نفعله !!

ــ ولكن كيف يمكننا أن نفعل ذلك ونحن لا نعرفه ؟

ــ مهما يكن من أمر ، فانه يجب علينا أن « نفعل » ذلك ! ألم أقل لك انه مذكور فى الكتب ؟ هل تريد أن تأتى عملا يخالف ما ورد فى الكتب ، وأن تفسد كل مغامرتنا بذلك ؟

ــ أوه ، انها ولا شك آراء لطيفة يا « توم سوير » ، لكن كيف يمكن بحق السماء أن نفتدى هؤلاء الأشخاص ونحن لا نعرف كيف نتصرف حيالهم ؟ هذا هو ما أبغى معرفته . فماذا عساه أن يكون معنى الفدية ؟

ــ لست أدرى . ولعل معنى الاحتفاظ بهؤلاء الأشخاص الى أن يفتدوا ، هو الاحتفاظ بهم الى أن يموتوا !!

ــ لعل هذا هو التفسير الصحيح .. ولكن لماذا لم تقل ذلك

من قبل ؟ اذن سوف نحتفظ بهم الى أن يفتدوا بالموت ! وليس من شك فى أنهم سيسببون لنا مشاكل كثيرة ، فسوف يأكلون كل شيء ويحاولون الفرار دائما .

ــ ما هذا الذى تقوله يا « بن روجرز » ؟ كيف يستطيعون الفرار وهناك حراس يراقبونهم ولا يترددون فى اطلاق النار عليهم اذا بدر منهم ما يدل على محاولتهم الهرب ؟

ــ حراس ؟.. هذا عجيب ! ! اذن ، فان شخصا ما سيسهر الليل بطوله ولن يطبق له جفن لكى يراقب الاسرى ؟ اعتقد ان فى ذلك حماقة . .لماذا لا يلتقط الانسان هراوة و « يفتديهم » بمجرد مجيئهم الى هنا ؟ ! !

ــ لأن ذلك ليس مذكورا فى الكتب !.. هذا هو السبب يا « بن روجرز » .. هل تريد أن تعالج الامور حسب النظام المتبع أم بطريقة مخالفة ؟ ــ هذه هى المسألة .. ألا تظن ان اولئك الذين وضعوا الكتب يعرفون الاجراءات الصحيحة التى ينبغى اتخاذها ؟ هل تظن « أنك » تستطيع أن تعلمهم شيئا ؟ كلا يا سيدي ! سوف « نفتدى » هؤلاء الأشخاص بالطريقة المتبعة .

ــ على أية حال .. ان ذلك لا يهمنى ، وان كنت أعتقد انها طريقة تدل على الحماقة !. وهل نفتدي النساء أيضا ؟

ــ لا ، فان أحدا لم يقرأ عن مثل هذا فى الكتب ! ان الكتب تقول ان النساء ينقلن الى الكهف ، وانه يجب عليك ان تكون مهذبا معهن . فلن يلبثن بعد فترة من الوقت ان يقعن فى حبك ، فتتلاشى رغبتهن فى العودة الى منازلهن ! !

ــ هذا جميل !.. اذا كانت هذه هى الطريقة المتبعة ، فانى أوافق عليها ! ولكنى لا أؤمن بها ! فاننا لن نلبث أن نجد الكهف مكتظا بالنساء والرجال الذين ينتظرون الفدية ، ومن ثم فلن نجد

مكانا نلوذ به !. . ومهمـا يكن من أمر ، فقل ما تشـاء ، فليس عندى ما أقوله .

كان «تومى بارنس» الصغير قد استسلم للنوم فى تلك الأثناء ، وعندما أيقظوه تملكه الفزع وبكى وقال انه يريد أن يذهب الى أمه لأنه لا يرغب فى أن يكون مغامرا !

وأخذ الجميع يسخرون منـه ، وأطلقوا عليه اسم « الطفـل الصغير » ، فجن جنونه ، وقال انه سوف يفشى جميع أسرارنا ، ولكن توم أعطاه خمسة سنتات ليمسك لسـانه ، وقال اننا جميعا سـنعود الى منازلنا ، على أن نتقابل ثانيـة فى الأسبوع المقبل لنستأنف مغامراتنا . ! !

وقال « بن روجرز » انه لا يستطيع مغادرة منزل أسرته كثيرا اللهم الا فى أيام الآحاد فقط . ومن ثم طلب أن تبدأ الجماعة عملها فى يوم الاحد التالى ، ولكن جميع الغلمان قالوا انه من النذالة أن يفعلوا ذلك فى يوم أحد ! وهكذا بت فى الأمر ، واتفق الجميع على أن يتقابلوا معا ، ويحددوا يوما للعمل فى أقرب فرصة مستطاعة ؛ ثم انتخبنا « توم سوير » زعيما للجماعة و « جو هاربر » وكيلا لها . وعدنا الى منازلنا ، وتسلقت الحظيرة ، ثم تسللت من نافذة غرفتى قبل أن يطلع الفجر . وكانت ثيابى مبللة بالندى وملطخة بالأوحال ، كما كنت متعبا أشد التعب ! !

الفصل الثالث

نظرة فاحصة ـ انتصار الخير ـ تمثيل دور المغامرين ـ الجن ـ أكذوبة من أكاذيب « توم سوير » .

وفى الصباح تعرضت لعملية فحص دقيق من الآنسة واطسون بسبب ما كانت عليه ثيابى من سوء حال ، ولكن الأرملة لم تنهرنى ، وانما نظفت ثيابى من الشحم والوحل ، وقد بدا عليها الأسف لأنى لم أحاول اصلاح أخلاقى ! وبعدئذ اصطحبتنى الآنسة واطسون الى غرفة صغيرة حيث صلينا .! وقالت لى الآنسة واطسون انه ينبغى أن أصلى كل يوم حتى أستطيع الحصول على كل ما أطلبه فى صلاتى ! ولقد جربت ذلك ، ولكن الصلاة لم تحقق لى أى مطلب ! فذات مرة حصلت على خيط سنارة ولكن بغير شص ، وصليت ثلاث أو أربع مرات لعلى أحصل على شص ، ولكنى لم أستطع لأمر ما أن أحقق أمنيتى بالصلاة ! ! ومرت الأيام الى أن جاء يوم طلبت فيه من الآنسة واطسون أن تصلى نيابة عنى ، ولكنها قالت لى اننى أحمق ! بيد أنها لم تذكر لى سبب ذلك ، كما اننى لم أستطع أن أفهمه حتى كبرت فعرفت قيمة الصلاة التى لم تستطع « الآنسة واطسون » أن تفهمنى قيمتها فى ذلك الوقت ، وكم كنت أحمقا وأنا صغير . . لقد كنت أحدث نفسى قائلا : « اذا كان الناس يستطيعون الحصول على ما يريدون

بالصلاة فلماذا لا يستعيد « ويكون وين » النقود التى فقدها فى تربية الخنازير ؟ ولمـاذا لا تستطيع الأرملة دوجلاس أن تسترد علبة « السعوط » الفضية التى سرقت منها ؟ ولماذا لا تستطيع الآنسة واطسون أن تزيد من وزنها ؟ » وعندئذ أيقنت أنه ليس فى الامكان أن يحقق الانسان أمنيته بالصلاة ! وذهبت الى الأرملة وقلت لها رأيى ، فقالت ان الشىء الذى يستطيع الانسان الحصول عليه من الصـلاة هو « الهبات الروحية » لا الهبات المـادية ! ! ولما كان المعنى الذى قصدته من ذلك غامضا على ، فقد مضت تفسره لى قائلة انه يجب على أن أسـاعد الناس وأن أفعل كل ما فى طاقتى من أجلهم وأن أترقبهم طوال الوقت وألا أفكر اطلاقا فى نفسى ! ! ولقد فهمت انهـا توجه هذه النصـائح الى الآنسة واطسون أيضـا !!. وخرجت الى الغاب مرة أخرى ، وقضيت وقتـا طويلا وأنا أقلب ما سمعته من الأرملة فى رأسى ، ولـكنى لم استطع أن أتبين له أية ميزة اللهم الا ايثار الآخرين ! ومن ثم فقد قررت فى النهاية ألا أزعج نفسى بالتفكير فى مثل هذه الأمور !! وكانت الأرملة تنتحى بى ناحية منعزلة فى بعض الأحايين وتحدثنى عن القدر بطريقة تسيل لعاب الانسـان ، ولكن الآنسة واطسون كانت لا تلبث أن تحدثنى فى اليوم التالى حديثا يمحو الأثر الذى تركه حديث الأرملة فى نفسى ! لذلك بدأت أعتقد أن هناك قدرين ، وان الانسان يستطيع أن يرتاح الى قدر الأرملة ، فاذا ما تولت الآنسـة واطسون زمام أمره ، ضاع كل شىء ! وفكرت فى الأمر بامعان ، وقررت أن أنتمى الى القدر الذى تتحدث الأرملة عنه ، وان كنت لم أسـتطع أن أدرك كيف يمكن أن يكون القدر أحسن مما كان من قبل ، وأنا غلام جاهل لا حول لى ولا قوة !!.. أما

بعد أن كبرت ونما عقلى واتسعت مداركى ، فقد عرفت من أمر القدر ما عرفت من أمر الصلاة .

* * *

وكان قد انقضى عام كامل دون أن يرى أحد أبى ، ولهذا كنت أحس براحة شديدة لاننى لم أكن راغبا فى رؤيته مرة اخرى ، لانه اعتاد أن يسىء الى كلما تخلص من سيطرة الخمر وأمكنه أن يظفر بى ، مع اننى كنت أحرص دائما على الاختفاء منه فى الغاب كلما استطعت الى ذلك سبيلا . ولقد سمعت من بعض الناس انهم عثروا على غريق فى النهر على مبعدة اثنى عشر ميلا من القرية ، وان هذا الغريق الذى عثر عليه كان فى قوام أبى تقريبا ، وكان يرتدى أسمالا بالية مثله ، وله شعر مسترسل بشكل غير عادى مثل أبى الذى كان يترك شعره يطول بشكل غير عادى ، ولكن الناس لم يستطيعوا تمييز وجه الغريق لأنه بقى وقتا طويلا فى الماء فضاعت معالمه تماما . وقالوا انه كان طافيا على ظهره فانتشلوه ودفنوه على الشاطىء . ولم يدم ارتياحى طويلا لأن خاطرا طرأ على بالى فأزعجنى . فقد كنت أعلم تمام العلم أن « الرجل » الغريق لا يطفو على ظهره ، وانما يطفو على وجهه ! ! ومن ثم أدركت أن الغريق لا يمكن أن يكون أبى ، وانما كان امرأة فى ثياب رجل ! ! وهكذا انتابنى القلق من جديد ، وأدركت أن أبى لن يلبث أن يظهر ثانية فى أحد الأيام مع اننى كنت أتمنى من كل قلبى ألا يفعل ! !

وقضينا حوالى شهر ونحن نقوم بمغامراتنا ، ثم استقلت من الجماعة ، وفعل الغلمان مثلما فعلت ، لأننا لم نقم بأية مغامرة ذات بال ، وانما اكتفينا بالتظاهر والادعاء بأننا مغامرون ! فقد كنا نندفع خارجين من قلب الغاب ، ثم نتظاهر بالانقضاض على

اللصوص ، وعلى قطمان الخنازير المسروقة ، ولكننا لم نستطع أن نحقق بصفة عملية حلما من هذه الأحلام ! وكان « توم سوير » يطلق على الخنازير اسم « الذهب ! » وعلى اللفت اسم «الجواهر» ! وكنا نعود بعد ذلك الى الكوخ حيث نتحدث ضاخبين عما فعلناه . وعن عدد اللصوص الذين قبضنا عليهم ، وعن الخنازير التى أعدناها الى أصحابها ، ولكنى لم أتبين اننا ربحنا شيئا على الاطلاق ! وذات مرة ، أرسل « توم سوير » غلاما يحمل شعلة وهو يعدو فى المدينة ، وكان يطلق على ذلك اسم « الشعار » ! وكانت تلك هى العلامة المتفق عليها لجمع أفراد الجماعة ، فلما التأم شملها قال « توم سوير » انه تلقى من جواسيسه معلومات سرية مؤداها أن مجموعة كبيرة من اللصوص سيعسكرون فى كهف « هولو » فى اليوم التالى ، وأن معهم مائتى فيل وستمائة جمل وأكثر من ألف دابة من دواب الحمل وكلها محملة بالماس ، وأن اربعمائة لص يتولون حراسة هذه القافلة الكبيرة ، ولذلك فان فى استطاعتنا أن ننصب لهم فخا ..! وقال أيضا أنه يجب علينا أن نشحذ سيوفنا ونعد بنادقنا للعمل . ومع انه لم يستطع أن يطارد احدى المركبات المحملة باللفت ، فقد أصر على اعداد السيوف والبنادق للعمل ! وكانت هذه السيوف والبنادق تتكون من عصى المكانس ! وكان علينا أن ننظفها بكثرة الحك ، فتضاءلت وأصبحت عديمة الجدوى ! ولم أصدق اننا سنستطيع أن نقضى على مثل هذا الحشد الكبير من اللصوص ، ولكننى كنت تواقا الى مشاهدة الجمال والفيلة ! ولذلك حرصت على أن أكون فى «الكمين» فى اليوم التالى ، وكان يوم أحد ! وعند ما صدر الينا الأمر ، اندفعنا الى خارج الغاب وانحدرنا من فوق التل ولكننا لم نجد لصوصا ولا جمالا ولا فيلة ، وكل ما وجدناه ، جماعة من صغار التلاميذ والتلميذات فى رحلة مدرسية ! ! وأفسدنا الرحلة ،

ورحنا نطارد الصغار حتى كهف « هولو » ، صادرين فى ذلك عن السذاجة التى يتصف بها الأطفال أمثالنا دائما . بيد أننا لم نحصل من وراء ذلك الا على قليل من الفطائر والمربى ، وان كان « بن روجرز » قد استطاع أن يحصل على دمية من القماش ، بينما حصل « جو هاربر » على كتاب دينى وكراسة ! وسرعان ما خف المدرس الى مطاردتنا ، فاضطررنا الى التخلى عن كل ما استولينا عليه ثم هربنا ! وهكذا لم أر ذهبا أو ماسا ، ولما قلت ذلك لتوم سوير قال انه كانت هناك أكداس منه على كل حال ، كما قال انه كان هناك لصوص وفيلة وأشياء أخرى ! فسألته : لماذا لم نرها اذن ؟ فأجاب بأن ذلك سببه جهلى ، لأنى لم أقرأ كتاب « دون كيشوت » (١) !! فلو أننى قرأته لعرفت كل شيء ، ولما كنت بحاجة الى القاء هذه الأسئلة عليه ! وأضاف أن كل شيء يحدث بالسحر ! ثم قال ان هناك مئات من الجمال والفيلة فضلا عن الكنوز ، الا أن لنا أعداء أطلق عليهم اسم السحرة ، أحالوا كل شيء الى أطفال مدرسة من مدارس الأحد بدافع من الحقد ، فقلت له : اذن فان ما يجب أن نفعله هو أن نلجأ الى السحرة !. وعندئذ قال « توم سوير » اننى جاهل عقيم التفكير !!. وأردف : أن فى استطاعة الساحر أن يدعو اليه عددا كبيرا من الجن ، وهؤلاء يستطيعون القضاء عليك قبل أن تتمكن من النطق باسم « جاك روبنسون » ! ! انهم طوال كالأشجار ، ضخام كمبنى الكنيسة .

فقلت : ولنفرض اننا استطعنا أن نطلب من بعض هؤلاء الجن مساعدتنا ؟ ألا نستطيع بذلك أن نتغلب على الجماعة الأخرى ؟ .

فقال : وكيف يمكننا أن نصل اليهم ؟

فقلت : لست أدرى .. كيف يتصلون هم بهم ؟

---

(١) صدرت قصة « دون كيشوت » ضمن مجموعة الألف كتاب .

فقـال : انهم يملكون مصباحا عتيقا أو خاتما حديديا ، يحكونه فيندفع الجن اليهم ، بعد فرقعة كفرقعة الرعد وضـوء كالبرق الخاطف ، وتحيط بهم سحب كثيفة من الدخان ، ولا يترددون فى تنفيذ كل مايطلب منهم ! ان هؤلاءالجن قادرون علىاتيان أىشىء.

قلت : ومن الذى يجعلهم يجيئون على هذه الصورة ؟.

قال : أى شخص يملك المصباح أو الخاتم ، أن هؤلاء الجن يصبحون خدما مطيعين لأى شخص يحك المصباح أو الخاتم ، كما انهم مرغمون على تنفيذ كل ما يطلبه منهم ، فاذا طلب منهم صاحب المصباح أو الخاتم أن يشيدوا قصر طوله أربعون ميلا من الماس الخالص وأن يملأوه « باللبان » أو أى شىء يريد ، وأن يأتوه بابنة أحد الأباطرة الصينيين ليتخذ منها زوجة ! فانهم يلبون الأمر بلا معارضة أو ابطاء ، بحيث يتم كل شىء قبل شروق شمس اليوم التالى ! وأكثر من ذلك انهم يشيدون هذا القصر فى أية بقعة يختارها من المدينة ! هل فهمت ؟

فأجبت : أكبر الظن أن هؤلاء الجن أغبياء لأنهم لا يحتفظون بالقصر لأنفسهم بدلا من أن يشيدوه لغيرهم ! فلو أننى كنت واحدا منهم ، لما لبيت نداء أى شخص يحك مصباحا قديما من الصفيح ! ! بل لو اننى كنت واحدا من هؤلاء الجن ، لتخليت عن عملى !

ـ انك تهرف يا هاكليرى .. انك ستكون مضطرا للمجىء كلما حك انسان المصباح سواء أردت ذلك أم لم ترده !

ـ ماذا تقول ؟ هل أكون طويلا كالشجرة ، ضخما كمبنى الكنيسة ، وانصاع لأمر شخص ما ؟ ! وحتى اذا رضخت لأمره ، فسوف أجعل مثل هذا الشخص يتسلق شجرة تفوق أية شجرة وجددت فى البلاد ارتفاعا وطولا ! !

ـ هذا سخف .. من العبث التحدث معك يا هاكلبرى ، فان رأسك فارغ أجوف ! !

وفكرت فيما سمعته من « توم سوير » يومين أو ثلاثة ، وقررت أن أتأكد مما اذا كان فى قوله هذا شىء من الصدق ، فحصلت على مصباح قديم من الصفيح وخاتم حديدى ، وذهبت الى الغاب وأخذت أحكهما الى أن انسال العرق من جسمى بغزارة وأنا أعلل النفس بتشييد قصر أبيعه بعد تشييده ، ولكن جهودى ذهبت أدراج الرياح ، اذ لم يأت أحد من الجن ، وعندئذ أيقنت ان كل ما سمعته من « توم سوير » لم يكن الا أكذوبة من أكاذيبه التى لا ينضب لها معين ! !

وأيقنت كذلك انه يؤمن بالخرافات والسحر ، ولم أسمح لنفسى بأن أؤمن بمثل هذه الخرافات ! !

الفصل الرابع

التقدم ببطء « ولكن بثقة » — هاكلبرى والقاضى — خرافة .

مضت ثلاثة شهور أو أربعة ، تم أقبل النساء ومضى منه شطر طويل ! وكنت أقضى معظم وقتى فى المدرسة ، فتعلمت القراءة وبعض مبادىء الكتابة أيضا ، كما استظهرت ستة أسطر من جدول الضرب ، فكنت أستطيع أن أقول مثلا ان ٦ × ٧ = ٣٥ ! ولكننى كنت واثقا من اننى لن أستطيع أن أذهب الى ما هو أبعد من ذلك حتى ولو عشت الى الأبد ، فقد كنت لا أهضم مادة الحساب ! !

ولقد نفرت من المدرسة فى بادىء الأمر ، ولكننى لم ألبث أن ألفتها بمرور الوقت ، وكنت كلما استولى التعب على لعبت الهوكى ، فأشعر بالانتعاش والمرح فى صباح اليوم التالى ، وهكذا كنت كلما مضت الأيام وكثر ترددى على المدرسة ازداد اطمئنانا وارتياحا اليها ، كما اننى ألفت أسلوب الأرملة فى الحياة الى حد ما ، رغم ما كنت أشعر به من ضيق أحيانا من جراء الحياة فى منزل نظيف والنوم فوق سرير ! ولهذا دأبت ، قبل حلول فصل الشتاء ، على التسلل من المنزل والنوم فى الغاب ! وكان ذلك يتيح لى ارتياحا عظيما لأننى كنت لا أزال أحن الى حياتى

القديمة ! واذ بدأت آلف الحياة الجديدة بعض الشيء . كانت الارملة تقول انني أتقدم وئيدا ولكن بثقة ، وان سلوكي أصبح يدعو للارتياح !

وحدث ذات صباح ان اصطدمت يدي بوعاء الملح فسقط وتناثرت محتوياته ، وعندئذ أسرعت أمد يدي ، والتقطت قليلا منه ، ألقيته من فوق كتفي الأيسر لأطرد النحس عني . ولكن الآنسة واطسون سبقتني الى ذلك وزجرتني قائلة : « ابعد يديك يا هاكليري ! انك تفسد كل شيء دائما ! » وتدخلت الأرملة فامتدحتني ، ولكن مديحها هذا لم يطرد النحس عني ! ومن ثم فما كدنا نفرغ من تناول طعام الافطار حتى غادرت المنزل وأنا قلق مضطرب ، أتساءل : أين سيدهمني النحس ؟ وأية كارثة تلك التي ستحيق بي ؟.. ومع انني كنت أعلم أن هناك عدة وسائل أخرى لابعاد بعض أنواع النحس ، فقد كنت واثقا من أن نكبتي لن تكون قابلة للتجنب ، ولذلك لم أحاول أن افعل شيئا لدرئها ، واكتفيت بالترقب والانتظار وأنا منهار معنويا ! !

ومضيت الى الحديقة الأمامية فتسلقت سياجها العريض . وكانت الأرض مغطاة بطبقة حديثة من الجليد سمكها بوصة ! وسرعان مارأيت آثار أقدام فوقها . وكان من الواضح ان صاحب هذه الآثار قد أقبل من المحجر وتريث قليلا عند الدرج المؤدى الى السياج ثم استقله وراح يدور حول سياج الحديقة . وبدا لي أن هذا الرجل الغريب لم يدخل الحديقة بعد ان وقف خارجها هذه الفترة الطويلة . ولم أستطع أن أدرك جلية الأمر ، وأيقنت أن في الأمر ما يدعو للغرابة ، وكدت أتعقب هذه الآثار ، فانحنيت أتأملها أولا ، ولكني لم ألاحظ شيئا في البداية ، غير انني لم ألبث أن تبينت أن هناك رسم صليب محفورا في الجليد في اثر حذاء القدم اليسرى ، وكنت أعلم أن هذا الصليب يتخذ دائما وسيلة لطرد النحس والشيطان ! !

واستويت واقفا فى الحال ! ومضيت أهبط السياج على عجل وأنا لا أفتأ أتطلع ورائى من فوق كتفى ، ولكنى لم أر أحدا ، وانطلقت أركض دون أن أتوقف حتى بلغت منزل القاضى تاتشر .

واستقبلنى الرجل قائلا : لماذا تلهث هكذا يا بنى ؟ هل جئت فى طلب ما حققته نقودك من ربح ؟

فأجبت : لا ياسيدى ... هل أستحق بعض الربح ؟

ــ نعم ، انك تستحق اليوم ربح نصف عام ... أكثر من مائة وخمسين دولارا (ريالا) ... انها ثروة كبيرة يجمل بك أن تستثمرها مع الستة آلاف دولار التى تملكها ، لأنك أن أخذت هذا الربح ستبدده وتنفقه !

فقلت : لا يا سيدى ، اننى لا أريد انفاقه ، بل اننى لا أريده على الاطلاق، بل ولست أريد الستة الآلاف الدولار أيضا !! لقد وهبتك هذا المال يا سيدى ... أ أعنى الستة الآلاف الدولار أيضا !

ــ ماذا تعنى يا بنى ؟

فقلت : أرجو ألا تلقى أية أسئلة على ... خذ المبلغ كله .... ألا تفعل ؟

فقال : حسنا ... اننى فى حيرة ... هل مسك ضر ؟

ــ أرجوك أن تأخذه ، ولا تطلب منى تفسيرا لذلك حتى لا تضطرنى للالتجاء الى الكذب .

فتأملنى مليا ، ثم قال :

ــ أكبر ظنى أننى فهمت ... انك تريد أن تبيعنى كل ماتملك !! انها فكرة سليمة !

ثم كتب بضع عبارات على رقعة من الورق وقرأها على .... وقال :

ــ اسمع ، لقد كتبت « مبايعة » ، ومعنى ذلك أننى اشتريت

أملاكك منك ، ودفعت لك ثمنها . . . اليك دولارا ، ووقع هذه الوثيقة .

ووقعت الوثيقة ، وانصرفت .

واذ كنت أعرف أن « جيم » الزنجى خادم الآنسة واطسون كان يحتفظ بكرة فى حجم قبضة اليد اقتطعها من معدة ثور . وكان يستعملها فى السحر والشعوذة بحجة أن بداخلها روحا تعرف كل شيء ، فقد ذهبت اليه فى تلك الليلة وقلت له أن أبى عاد ثانيا ، واننى تبينت آثار قدميه فوق الجليد ، واننى أريد ان أعرف ماذا ينبغى أن أفعل ، وما الذى سيقوله ؟ وأخرج جيم الكرة وهمس لها ثم رفعها وتركها تسقط على الأرض ، فتدحرجت قليلا ثم ثبتت فى مكانها ! وكرر « جيم » ذلك مرة ثانية ثم ثالثة ولكن الكرة كانت تتدحرج فى جميع المرات الى بوصة أو اثنتين ثم تتوقف : وعندئذ ركع « جيم » فوق ركبتيه وألصق أذنه بالكرة وأصاخ السمع ولكن بدون جدوى ! قال جيم ان الكرة ترفض الكلام ! وأضاف انها لا تتكلم فى بعض الأحايين الا بنقود ! فقلت له اننى أملك ربع دولار قديم مزيف لا يصلح لشيء لأنه مصنوع من النحاس ، وان كان مغطى بطبقة من الفضة وأخرى من الشحم والقذارة ! ولم أذكر له شيئا عن الدولار الذى أعطانى اياه القاضى ! ثم أضفت أن قطعة النقود التى معى لا تصلح لشيء ولكن من الجائز أن تقبلها الكرة لأنها لن تعرف انها مزيفة !! وأخذ « جيم » قطعة النقود وشمها ، وقضمها بأسنانه ثم حركها ، وأخيرا قال انه سيحاول أن يجعل الكرة تعتقد انها قطعة نقود صحيحة لا غبار عليها ! ثم أضاف بأنه سيشق ثمرة بطاطس ايرلندية ثم يضع قطعة النقود فى الشق ويحتفظ بها على هذا النحو طوال الليل ، حتى اذا ما حل صباح اليوم التالى اختفى النحاس ، وطبقة الشحم والقذارة المتراكمة فوقها ، وبذلك يمكن تداولها بسهولة ! ولقد كنت أعلم من

قبل أن البطاطس تستطيع أن تفعل ذلك ولكنى كنت قد نسيت ذلك فى تلك اللحظة .

ووضع « جيم » قطعة النقود تحت الكرة ثم ركع فوق ركبتيه وأصاخ السمع مرة أخرى ، وفى هذه المرة قال ان الكرة لم تعارض، وانها مستعدة لأن تكشف لى عن مستقبلى اذا شئت ، فطلبت اليه أن يفعل ذلك ، وتحدثت الكرة الى « جيم » ، ونقل « جيم » الى ما قالته . . .

قال : ان أباك لا يعلم بعد ما سيفعله ، فهو يقول أحيانا انه سيرحل ولكنه يعود فيقول انه سيبقى ، وخير ما يمكن أن تفعله هو أن تهون عليك وتدع الرجل العجوز يمضى حينما يحلو له ، أن هناك ملاكين يحومان حوله ، أحدهما أبيض متألق والآخر أسود اللون ، أما الملاك الأبيض فيحاول أن يهديه الى السبيل السوى ، ولكن الملاك الأسود لا يلبث أن يتدخل فى الأمر ويفسد كل شىء ، ولهذا لا يستطيع أحد أن يقول أى الملاكين هو الذى سينتصر فى النهاية ، أما أنت فلا خوف عليك ! صحيح انك ستواجه كثيرا من المتاعب فى حياتك ، ولكنك ستفوز أيضا بكثير من المتع ، وسـ[illegible] مرة بأذى ، وتمرض أحيانا ، ولكنك ستبرأ من مرضك فى كل مر[illegible] وستؤثر فى حياتك فتاتان ، احداهما شقراء والأخرى سمراء ، احداهما ثرية والأخرى فقيرة ، وستتزوج الفقيرة أولا ، ثم تتزوج الثرية ! ويجب عليك أن تتجنب الماء قدر طاقتك ، وأن تكف عن المغامرة لأنك ان لم تفعل سيكون مصيرك الشنق ! !

وعند ما أشعلت شمعدانى وصعدت الى غرفتى فى تلك الليلة ، وجدت أبى بلحمه ودمه جالسا هناك ! !

الفصل الخامس

والد هاكلبرى ـ الأب المحب ـ نحو الاصلاح ..

أغلقت الباب ورائى ، ثم استدرت ، فالفيته هناك ! ولما كنت قد اعتدت أن أخشاه دائما لدأبه على ايذائى ، فقد ركبنى الخوف فى تلك اللحظة ، ولكنى لم ألبث أن تجلدت وصمدت بعد أن انحسر أثر المفاجأة الأولى عنى ، ثم لم ألبث أن أيقنت اننى لم أعد أخشاه.

كان أبى فى حوالى الخمسين من عمره ، وان كان منظره يوحى بأنه أكبر من ذلك كثيرا . وكان شعره طويلا مسترسلا ملطخا بالقاذورات المختلطة بالعرق ، وكانت عيناه تتألقان من وراء شعره الأسود الفاحم الذى لا أثر للشيب فيه ، كذلك كان سالفاه قاتمى اللون لم يدب فيهما الشيب ، أما وجهه فكان لا لون له ! بل لقد كانت ثمة بقع بيضاء تثير الاشمئزاز والقشعريرة منتشرة فوق وجهه كله ، وكانت ملابسه أسمالا بالية ... وكان يضع احدى ركبتيه فوق الأخرى ، أما الحذاء الذى ينتعله فكان ممزقا ، وقد برزت من مقدمه بعض أصابعه التى كان يحركها بين الحين والحين ! وكانت قبعته العتيقة السوداء اللون التى تآكل الجزء العلوى منها ، ملقاة على الأرض !

ورحت أتأمله مليا ، كما تأملنى بدوره وقد مال بمقعده قليلا الى الوراء ، ووضعت الشمعدان فوق المنضدة ، ولاحظت أن النافذة مفتوحة ، فأدركت أنه تسلل الى الغرفة عبرها بعد أن

تسلق الحظيرة ، وظل يصعدنى بنظـره بعض الوقت ثم لم يلبث أن قال :

ـ يا لها من ملابس منشاة ، منشاة جدا ... أغلب الظن أنك تعتقد أنك الآن شخص عظيم ... أليس كذلك ؟

ـ ربما نعم ... وربما لا .

فقال : اننى لا أسمح لك بمثل هذا التهكم ... لقد تماديت فى سـخافاتك منذ أن تركتـك ! ولكن اعلم اننى سوف أقضى على مظهرك هذا قبل أن أصفى حسابى معك ! انهم يقولون انك أصبحت شخصا متعلما تعرف القراءة والكتابة ! ولا شك أنك تظن الآن انك صرت أفضل من أبيك لأنه لا يعرف ما تعرف .. ولكن أعلم اننى سأجعلك تكف عن القراءة والكتابة ... قل لى ، من الذى جعلك تتورط فى مثل هذه الحماقات ؟ من قال انك تستطيع أن تفعـل ذلك ؟ ..

ـ انها الأرملة ...

ـ الأرملة ؟ ومن الذى قال للأرملة انها تستطيع ان تقحم نفسها فيما ليس من شئونها ؟

ـ لم يقل أحد ذلك لها .

ـ حسـنا ، سأعلمها عقبى التدخل فيما لا يعنيهـا ... والآن اصغ الى . يجب عليك أن تكف عن الذهاب للمدرسة ... هل تسمعنى ؟ سأعلم هؤلاء النـاس أى اثم يرتكبون بتعليمهم الابن كيف يتعاظم على أبيه ! ... حذار أن أراك تتسـكع حول هذه المدرسة ، هل سمعت ؟ ان أمك لم تكن تعرف القراءة والكتـابة قبل أن تموت ! وأنا أيضا لا أستطيعهما ، بينما تتعاظم أنت هكذا وتتباهى ! اننى لست بالرجل الذى يستطيع احتمـال مثل هذا الوضع ، هل تسمعنى ؟ دعنى أسمعك وأنت تقرأ .

فالتقطت كتابا وبدأت أقرأ شيئا عن الجنرال « واشـنطون »

والحرب ، وما كدت أقرأ حوالى نصف دقيقــة ، حتى انـزع ابى الكتاب من يدى وقذف به بعيدا وقال :

ـ اذن فقد كانوا صادقين ... فهاأنذا أراك تقــرأ ... لقد ساورتنى الريب عند ما تحدثت الى ، والآن اصغ الى ... عليك أن تكف عن كل هذه السخافات لأننى لن أســمح لك بها ، واذا ضبطتك عند هذه المدرسة ، سأضربك ضربا موجعا ... ثم لقد علمت أنك بدأت تدرس الدين أيضا ! هل هذا صحيح ؟ يا لله .. اننى لم أسمع طيلة حياتى عن ابن فعل ما تفعل الآن !

والتقط صورة صغيرة تصور قطيعا من البقر وغلاما باللونين الأزرق والأصفر وسأل :

ـ ما هــذا ؟

ـ انها جائزة منحونى اياها لأننى استذكرت دروسى جيدا .

ومزق أبى الصورة وقال :

ـ سأعطيك شيئا أفضل منها .. سأعطيك جلد بقرة ! !

وبقى ملازما مكانه وهو يحدجنى بنظرة صارمة ويتمتم بكلمات غير مفهومة ...

وأخيرا قال : ألا تعتقد أنك غلام معطر مغال فى التانق ؟ فراش، وأغطية للفراش ، ومرآه ، وسجادة فوق الأرض ، بينما ينام ابوك مع الخنازير فى ساحة المدينة ! ! ... اننى لم أر ابنا كهذا ، واراهن أننى سوف أجردك من بعض هذه الأناقة قبل أن انتهى من تصفية الحساب معك ... اننى لا أرى نهاية لموقفك السخيف هذا ! لقد سمعتهم يقولون انك ثرى ... فكيف حدث ذلك ؟

ـ انهم كاذبون فيما يقولون .

ـ اصغ الى ، يجب أن تخاطبنى بلهجة مؤدبة ، لقــد احتملت وقاحتك أكثر مما أطيق ، فلا تحاول خديعتى ! لقد انقضى على يومان فى المدينة ، وسمعت الناس جميعا يتحدثون عن ثرائك ، ولم

أقابل أحدا على طول النهر الا وحدثنى عن ذلك ، وهذا هو السبب فى مجيئى ، فعليك أن تحضر لى هذه النقود غـدا ، فاننى بحاجة اليهـا . .

ــ ولكنى لا أملك مالا يا أبى !

ــ هذا كذب . . ان ثروتك مودعة عند القاضى تاتشر ، فعليك أن تستردها ، لأننى أريدها .

ــ اننى لا أملك نقودا كما قلت لك . . اذهب وسل القـاضى تاتشر ، وسيقول لك ما أقوله .

ــ حسنا ، سأسأله ، وسأرغمه على الكلام . . . أخبرنى كم معك من نقود ؟ اننى فى حاجة اليها .

ــ ان معى دولارا واحدا فقط . . . وأنا بحاجة اليه أيضا . .

ــ ان حاجتك اليه لا تهمنى . . هات هذا الدولار !

واختطفه من يدى ، وعضه بأسنانه ليتأكد من أنه غير زائف ، ثم قال انه سيذهب الى المدينـة ليحتسى بعض الشراب لأنه لم يحصل على كأس واحدة طوال النهار ، وعند ما تسلل من النافذة الى الحظيرة ، عاد فأدخل رأسـه من النافذة ثانية وراح يؤنبنى ويعيرنى بأناقتى ويلومنى لأننى أحاول أن أكون أحسن حالا منه ، وعند ما ظننت أنه انصرف ، عاد فأدخل رأسـه من النافذة مرة أخرى وأوصانى بأن أذكر ما قاله لى عن المدرسة لأنه سوف يكمن لى هناك ويفتـك بى ان عصيت أمره ، ولم أكف عن الذهاب الى المدرسـة .

وشرب أبى حتى ثمل فى اليوم التالى ، وذهب الى منزل القاضى تاتشر ، وحاول التأثير عليه للحصول على المال ، ولكنه لم ينجح ، وعندئذ أقسم أن يلجأ الى القانون ليرغمه على تسليم الثروة له .

ولجأ القاضى تاتشر والأرملة الى المحكمـة ليحصلا على حـكم بانتزاعى من أبى وتعيين أحدهما وصيا على ، الا أن قاضى المدينة

كان حديث عهد بها لسوء الحظ ، ولم يكن يعرف حقيقة أبى . ولهذا قال انه ينبغى ألا تتدخل المحاكم فى أمر كهذا خشية القضاء على الروابط العائلية ، كما أنه ينبغى ألا يحرم أب من ابنه .. ومن ثم فقد اضطر القاضى والأرملة الى التخلى عن الاحتكام الى القانون .

ولقد سر ذلك أبى أيما سرور ، وقال انه سوف (يسلخ) جلدى اذا لم أعطه بعض المال ، فاضطررت الى اقتراض ثلاثة دولارات من القاضى تاتشر ، أعطيتها له ... وبعد أن ملأ أبى معدته بالخمر ، راح يتسكع هنا وهناك وهو يصخب ويعربد . وظل يتجول فى أنحاء المدينة الى أن انتصف الليل تقريبا ، وعندئذ قبض رجال البوليس عليه وأودع السجن ، وفى صباح اليوم التالى قدم للمحاكمة وحكم عليه بالسجن أسبوعا ، ومع ذلك فقد قال انه سعيد غاية السعادة لأنه أصبح المهيمن على ابنه وانه سوف يؤدبه حسبما يريد ..

وعند ما أفرج عن أبى ، قال القاضى الجديد انه سيتولى أمره ليجعل منه رجلا صالحا ، ثم أخذه الى منزله وألبسه ثيابا لطيفة نظيفة ، وجعله يتناول طعام الافطار والغداء والعشاء مع الأسرة . وبعد أن فرغ الجميع من تناول طعام العشاء أول ليلة ، تحدث القاضى الى أبى عن التعفف والاعتدال وما شابه ذلك حتى بدأ أبى يبكى ويقول انه كان غبيا وانه أضاع حياته سدى ، وانه يتعهد بأن يحيا حياة جديدة وان يكون رجلا لا يخجل أحد منه ، وأعرب عن أمله فى أن يساعده القاضى لتحقيق هذه الغاية وألا يشمئز أو يخجل منه ، وانشرح صدر القاضى وزوجه ، فتأثرا لذلك أشد التأثر . وقال أبى ان الناس كانوا يسيئون دائما فهمه ، فقال القاضى انه يصدقه . وعندئذ قال أبى ان ما يحتاج اليه رجل يتردى فى وهدة الشر هو العطف . فأمن

القاضى على قوله . وعند ما حان موعد النوم نهض أبى وبسط يده للقاضى قائلا :

ـ أنظروا الى هذه اليد أيها السادة والسيدات وصافحوها ! لقد كانت يد خنزير ولكنها لن تصبح كذلك منذ الآن . . انها يد رجل بدأ حيـــاة جديدة ، ولن يعود الى حيـــاته القديمة ولو كان جزاؤه الموت . . سجلوا هذه الكلمات على ولا تنسوا اننى نطقت بها . . انها يد نظيفة ، فصافحوها ولا تخافوا !

وهكذا صافحوه جميعا وهم فى أشد حالات التأثر . بل لقد قبلت زوجة القاضى يده ، وهنا قال القاضى أن تلك هى أقدس لحظة مرت به ، وقادوا أبى الى غرفة جميلة كانت الأسرة قد أعدتها للزائرين ، وعند ما تقدم الليل ، شعر أبى بظمأ شديد الى الشراب فتسلق النـــافذة ثم أخذ طريقه الى المدينـــة حيث رهن سترته الجديدة مقابل بضع كؤوس من الخمر ! وعند ما حصل على كفايته من الخمـــر ، كان الفجر قد بدأ يتنفس ، فأسرع عائدا الى منزل القاضى وهو يترنح من فرط ما شرب من خمر . وعند ما شرع يتسلق بوابة المنزل سقط من فوقها فانكسر ذراعه فى موضعين وأغمى عليه . وعند ما عثروا عليه بعـــد شروق الشمس ، كانت أطرافه شبه متصلبة ! !

وأغضب القاضى مسلك أبى ، حتى لقد خيل اليه أن السبيل الوحيد لاصلاحه هو اطلاق النار عليه ! !

الفصل السادس

مقاضاة القاضي تاتشر ــ هاكلبرى يقرر الرحيل ــ التفكير فى الأمر ــ الاقتصاد السياسي ــ الضرب على غير هدى .

استرد أبى صحته سريعا ، واستأنف نشاطه ! وما لبث ان لجأ الى المحاكم مطالبا القاضى تاتشر باعطائه النقود ، كما شرع فى مطاردتى لاننى لم أكف عن التردد على المدرسة . ولقد ظفر بى مرتين ، ضربنى ضربا مبرحا ، ولكنى مع ذلك لم أكف عن الذهاب للمدرسة ، وكنت أتحاشى لقاء أبى أو أهرب منه اذا رأيته . والواقع اننى لم أكن أحب الذهاب الى المدرسة رغبة فى العلم : وانما فقط أردت أن أغيظ أبى ، أما الدعوى القضائية فكانت بطيئة للغاية ، حتى لقد خيل الى انها لن تبدأ على الاطلاق ، ولهذا كنت مضطرا الى اقتراض دولارين أو ثلاثة دولارات من القاضى تاتشر بين الحين والحين لأعطيها لأبى لكى أتجنب تعذيبه لى. وكان أبى كلما حصل على النقود ، أفرط فى احتساء الخمر ، وأثار زوبعة من الصخب فى المدينة ، وفى مثل هذه المناسبات كان المسئولون يودعونه السجن ، ولكن هذه المعاملة لم تكن لتضايق أبى لأنها كانت تلائمه وتتلاءم مع طبيعته .

وأكثر أبى من التسكع حول منزل الأرملة ، وأخيرا قالت له المرأة انها ، اذا لم يكف عن ازعاجها ، سوف تسبب له كثيرا من

المتاعب ! ولم يفزع ذلك أبى ، فقد كان ملتاثا .. فقال لها انه سوف يريها من هو ولى أمر هاكلبرى فن ! وراح يتحين الفرص الى أن تمكن من اقتناصى فى يوم من أيام الربيع ، وأرغمنى على ركوب القارب معه . وبعد أن قطعنا حوالى ثلاثة أميال فى النهر ، عبرناه الى « شاطىء الينوى » حيث تقوم غابة كثيفة لا يوجد بها منازل اللهم الا كوخا عتيقا مشيدا من كتل خشبية ضخمة . وكان هذا الكوخ محجوبا تماما عن العيون ، فلا يستطيع أحد معرفة مكانه الا اذا كان يعرف ذلك سلفا !

واستبقانى معه طوال الوقت ، فلم تتح لى فرصة للهرب ، وهكذا عشنا فى هذا الكوخ العتيق . وكان أبى يغلق الباب بالمفتاح ويضع المفتاح تحت رأسه أثناء الليل ، وكان يتسلح ببندقية سرقها من أحد الأشخاص ، وكنا نصطاد السمك والطيور البرية ونطعم بما نصطاد . وكان أبى لا يفتأ يسجننى فى الكوخ بين آونة وأخرى ، ويذهب الى المدينة ليجلب المؤن مستقلا القارب ، فيبيع السمك والطيور التى نصطادها مقابل الحصول على ماينبغى من شراب ، فاذا ما عاد أخذ يعب الشراب عبا ، حتى اذا ما لعبت الخمر برأسه انهال على ضربا ، ولقد استطاعت الأرملة أن تعرف المكان الذى سجننى أبى فيه ، فأرسلت رجلا ليحاول انتزاعى من براثنه ، ولكن أبى اضطره الى الرحيل بعد أن هدده باطلاق النار عليه .. وانقضى على ذلك وقت طويل ، حتى بدأت آلف حياتى الجديدة واطمئن اليها ، لولا ما كان ينالنى من أذى أبى بين الحين والحين .

وكانت حياتى هناك حياة خمول وتراخ ، فكنت أقضى يومى كله ما بين نوم وتدخين وصيد .. فلا كتب ولا دراسة ! ومضى شهران أو أكثر ، فتمزقت ثيابى حتى تحولت الى أسمال بالية ملطخة بالأوحال والقاذورات ، ولم أستطع أن أدرك حينذاك كيف

كنت أحتمل الحياة الرتيبة النظيفة المضنية فى منزل الأرملة حيث كان يتعين على أن أغتسل وأن أتناول طعامى فى طبق ، وأن امشط شعرى ، وان آوى الى فراشى واستيقظ من نومى فى مواعيد منتظمة ، وان أزعج رأسى باستذكار الدروس ، واحتمال مضايقات الآنسة واطسون طوال الوقت !!. وشيئا فشيئا أدركت اننى لا أرغب فى العودة الى هذا المنزل مرة أخرى ، وبعد أن كنت قد كففت عن استخدام الألفاظ غير المهذبة التى لم تكن الأرملة تحب سماعها ، فقد أصبحت استخدم هذه الألفاظ لأن ابى لم يكن يستنكرها .. وهكذا بدأت استمتع بالحياة فى الغاب !!.. ولكم ندمت على ذلك فيما بعد . فالبيئة السيئة هى التى حملتنى على ذلك !

وتمادى أبى فى ايذائى حتى بلغ السيل الزبى . ولم استطع احتمال اضطهاده وقسوته ، فقد اعتاد أن يكثر من التغيب عن الكوخ بعد أن يسجننى بداخله ، ولقد سجننى ثلاثة أيام ذات مرة ، فشعرت بقسوة الوحدة ، بل لقد ظننت انه غرق واننى لن أخرج من سجنى ، وتولانى الفزع ، وقررت أن أبحث لى عن مخرج ، وكنت قد حاولت الخروج من الكوخ مرات عديدة ولكن بدون جدوى ، لأنه لم تكن بالكوخ نافذة كبيرة تكفى لأن يتسلل كلب منها ، كما اننى لم أستطع أن أتسلل من « ماسورة » المدفأة لشدة ضيقها . وكان باب الكوخ مصنوعا من كتل سميكة من خشب البلوط ، كما أن أبى كان يحرص على ألا يترك فى الكوخ سكينا أو أية أداة حادة أثناء غيابه . ولقد فتشت الكوخ أكثر من مائة مرة بحثا عن أداة تصلح لفتح فجوة فى جدار الكوخ ولكنى منيت بالفشل ، الا اننى نجحت فى هذه المرة ، فقد عثرت على منشار قديم بلا مقبض بين لوحين خشبيين من الواح السقف ، فشحذته ! وكانت بالكوخ « بطانية » عتيقة مثبته فى الجدار خلف

المنضدة لتحول دون تسرب الهواء من السقوف التى تتخلل الكتل الخشبية ، وتسللت اسفل المنضدة ورفعت « البطانية » ورحت « أنشر » كتلة الخشب لكى أحدث فجوة تكفى لخروجى .. ولقد كانت مهمة مضنية شاقة ، ولكنى مضيت فيها بدأب وصبر حتى كدت أتمها ، غير اننى اضطررت الى التخلى عن العمل عند ما سمعت صوت طلقات بندقية أبى فى الغاب ، فاسرعت أتخلص من كل ما عساه أن يفضح امرى ، فوضعت « البطانية » فى مكانها ، كما خبأت المنشار . وبعد قليل ، كان ابى يدخل الكوخ !

وكان أبى ضيق الصدر محنقا فى ذلك اليوم . واقد قال لى انه كان فى المدينة ، وأن الأمور تسير من سيىء الى اسوأ ، فمع أن محاميه اكد له أنه سيربح القضية ويحصل على النقود اذا بدأت المحكمة نظر الدعوى ، فان الحكم فى القضية تأجل أمدا طويلا ، لأن القاضى تاتشر ، وهو الخصم ، يعرف شتى الألاعيب القضائية . واضاف أبى ان الناس قالوا له ان الأرملة ستلجأ بدورها الى القضاء مطالبة بانتزاعى منه ، وتعيينها وصية على ، وانهم يعتقدون انها ستوفق فى ذلك هذه المرة ! ولقد أفزعنى سماع هذا النبأ فزعا شديدا لأننى لم اكن راغبا فى العودة الى منزل الأرملة حيث اخضع لقسوة المدنية والحضارة كما كانوا يطلقون عليها ! ثم بدأ أبى يسب ويشتم ، كل شيء وكل انسان يخطر على باله ، وأعاد سبهم مرة أخرى ليستوثق من أنه لم ينس أحداً ، ثم فقد سيطرته على أعصابه فازداد سبا ولعنا ، وشمل سبابه أشخاصا وهميين ، واستمرت ثورة غضبه الجائحة هذه فترة طويلة .

واخيرا قال انه يود ان يعرف كيف ستتمكن الأرملة من انتزاعى منه . واضاف انه سيكون لهم بالمرصاد ، فاذا حاولوا خداعه فانه سوف ينقلنى الى مخبأ سرى يعرفه على مبعدة ستة اميال

أو سبعة ، ثم يدعهم يبحثون عنى حتى يصيبهم اليأس فيكفون عن البحث ! ولقد جعلنى قوله هذا أشعر بالقلق ، ولكن هذا القلق لم يدم طويلا ، لأننى كنت موقنا انى لن أبقى طويلا فى قبضة ابى .

وأمرنى أبى أن أذهب الى القارب لاحضار الاشياء التى جلبها من المدينة ، وهى جوال من الدقيق زنته خمسون رطلا - وفخذة من اللحم ، وملح ، وبعض الذخيرة ، ووعاء سعته أربعة جالونات مملوء بالشراب ، وكتاب قديم ، وصحيفتان الف الأشياء ، ولفافة من حبال القنب !!.. وجمعت بعض هذه الاشياء معا ، ثم جلست عند أحد جانبى القارب لأستريح ، ومضيت أفكر فى الموقف ، فخطر لى أن أهرب حاملا معى البندقية وبعض « سنارات » صيد السمك ، وأن ألوذ بالغاب أول الأمر على الا الزم مكانا واحدا ، وانما أتجول فى طول الغاب وعرضه وبخاصة أثناء الليل ، فاصطاد الطيور والسمك لأقتات بها ، وهكذا اختفى عن أبى والأرملة معا ! ! وقدرت انه سيكون فى استطاعتى أن أنتهى من عملية « نشر » كتلة الخشب والتسلل من الكوخ فى تلك الليلة اذا ثمل أبى كعادته دائما ، ولقد جعلنى استغراقى فىالتفكير أنسى مرور الوقت . وهكذا ظللت شارد الفكر ، الى أن سمعت أبى يصيح متسائلا ما اذا كان قد غلبنى النوم على أمرى أم ابتعلنى الماء فغرقت ! !

ونقلت الأشياء جميعها الى الكوخ . وكان الظلام قد بدأ يرخى سدوله فى تلك الأثناء ، وبينما كنت أعد طعام العشاء شرب أبى كأسا أو اثنتين من الخمر فدبت الحرارة فى أوصاله ، وانحلت عقدة لسانه ، فقال انه قضى وقته فى المدينة وهو مخمور ، حتى لقد سقط فىحفرة مملوءة بالقاذورات والأوحال نام فيها طوال الليل ، وفى الصباح كان منظره يبعث على الاشمئزاز لأنه كان ملوثا بطبقة من الوحل !. وكان أبى كلما احتسى الخمر ولعبت برأسه ، راح

يسب الحكومة لأنها لا تهيىء له فرصة العبث !. ولقد قال لى فى تلك الليلة :

ــ هل تدعوها حكومة ؟ تأمل نوع هذه الحكومة ! ها هو القانون يقر حرمان رجل من ابنه !!.. نعم حرمان رجل من فلذة كبده ، رغم ما لاقاه من عناء وقلق وما أنفقه من مال فى سبيل تنشئته.. نعم ، عند ما انتهى هذا الرجل أخيرا من تربية ابنه ، وأعده للعمل والانتاج حتى يمكنه من الراحة ، يقف القانون ليحول بينهما ويحرم الأب من ابنه .. وهم بعد ذلك يقولون انها حكومة !! وليس هذا هو كل شيء ، فان القانون يسند القاضى الكهل تاتشر ويساعده على حرمانى من ممتلكاتى !!! هذا هو ما يفعله القانون ... ان القانون يرغم رجلا تزيد ثروته على ستة آلاف دولار على السكنى فى جحر عتيق كهذا الذى أعيش فيه ، ويدعه يتجول وهو يرتدى ثيابا لا تصلح لخنزير ! وهم بعد ذلك يقولون انها حكومة !! ان الانسان لا يستطيع الحصول على حقوقه ما دامت الحكومة القائمة كهذه !! ولهذا فاننى أفكر أحيانا فى الرحيل عن هذه البلاد .. نعم ، لقد قلت لهم ذلك ! قلته لتاتشر العجوز فى وجهه ! ولقد سمعنى الكثيرون وأنا أقول ذلك ، وفى استطاعتهم أن يذكروه ! لقد قلت اننى أتمنى مغادرة هذه البلاد وعدم الاقتراب منها ثانية .. كما قلت لهم : أنظروا الى قبعتى ــ ان كنتم تعتبرونها قبعة ــ ! ان غطاءها قابل للارتفاع بينما تهبط جوانبها حول عنقى الى أسفل ! انها ليست قبعة على الاطلاق ! أنظروا اليها .. أنظروا الى هذه القبعة التى أضطر الى ارتدائها رغم اننى سأصبح واحدا من ثراة المدينة اذا استطعت الحصول على حقوقى !!.. نعم ، انها حكومة مدهشة !!.. مدهشة !! .. اصغ الى يا بنى .. لقد رأيت هناك زنجيا من أوهايو يكاد يشبه الرجل الأبيض فى كل شيء .. لقد كان يرتدى

قميصا ناصع البياض ، فضلا عن قبعة شديدة اللمعان ، وبذلة لايملك مثلها أى رجل فى هذه المدينة ، وساعة ذهبية ذات سلسلة . وعصا ذات رأس من الفضة !.. صفوة القول انه أثرى كهل فى الولاية .. فماذا تظنه ؟ لقد قالوا انه استاذ فى احدى الكليات وانه على علم بجميع اللغات ، ويعرف كل شىء ! وقالوا أيضا أنه يستطيع أن يدلى بصوته فى الانتخابات فى الولاية التى ينتمى اليها ! ولقد أثارنى ذلك ، وبدأت أتساءل عن مصير هذه البلاد ! !

وأخذت الكلمات تتدفق من فم أبى وهو يسير فى الكوخ ، فلم يلاحظ الى أين كانت قدماه المرتعشتان تقودانه ، وتعثر فى وعاء لحم الخنزير المملح ، وسقط فوقه ، وراح يسب ويشتم بأقذر الكلمات وأكثرها بذاءة ، وكان معظم سبابه وشتائمه منصبا على الزنجى والحكومة ، وان كان بعض السباب قد انصب على الوعاء الذى تعثر فيه ! وراح يعظل فترة حول الكوخ باحدى قدميه ، ثم بالقدم الأخرى وهو يمسك تارة باحدى ساقيه ثم بالأخرى . وأخيرا ، وعلى حين بغتة ، ازداد هياجه ، فركل وعاء لحم الخنزير بقدمه اليسرى ، ولكنه أخطأ التقدير ، لأنه نسى أن حذاءه ممزق من الأمام وأن أصابعه تبرز منه . وفى التو صرخ صرخة مدوية وقف لها شعر رأسى ، ثم سقط ، وتدحرج على الأرض وهو ممسك بأصابع قدمه ، والسباب ينهال من فمه على كل شىء !!..

وبعد العشاء ، التقط أبى ابريق الخمر ، وقال ان به ما يكفى للشراب مرتين أو يزيد ، فقدرت أنه سوف يصبح ثملا خلال ساعة ، وعندئذ أستطيع أن أسرق مفتاح الكوخ منه ، او امضى فى « نشر » الجدار الخشبى وأخرج من الفجوة التى سأحدثها . ومضى أبى يعب الخمر عبا ، ثم تهاوى فوق « البطاطين » . ولم يحالفنى الحظ ، لأن أبى لم يستغرق فى نوم عميق ، وانما كان قلقا

مضطربا ، فراح يتأوه ويتقلب على جانبيه فترة طويلة من الوقت ، وأخيرا دب النعاس فى جفونى ، ولم أستطع الاحتفاظ بعينى مفتوحتين ، فاستسلمت للنوم قبل أن أدرك ذلك ، وتركت الشمعدان موقدا ! !

ولست أدرى كم مضى على من وقت وأنا نائم ، ولكنى سمعت فجأة صرخة مروعة أيقظتنى من نومى وألفيت أبى أمامى ، وكان شديد الهياج ، يثب فى كل مكان ، ويصرخ فزعا من ثعابين زعم انها تزحف صاعدة فوق ساقيه ! ثم لم يلبث أن وثب وصرخ وصاح قائلا ان ثعبانا عضه فى خده ! ولكنى لم أستطع ان أرى ثعابين . وانتفض أبى ، وراح يعدو حول الكوخ وهو يصرخ فزعا ويصيح « ابعده عنى ، ابعده ، انه يعضنى فى عنقى . . » والواقع اننى لم اكن قد رأيت من قبل رجلا تمثل الرعب فى عينيه مثلما تمثل فى عينى أبى فى تلك اللحظة ، ولكنه سرعان ما استنزف قواه ، وسقط على الأرض لاهثا ، وراح يتدحرج المرة بعد الأخرى ، وهو يركل الأشياء بقدميه ، ويضرب الهواء بقبضتيه ، وصرخات الفزع تنطلق من حنجرته ، ثم لم يلبث أن صاح قائلا ان الشياطين تطارده وتلاحقه . وبعد قليل تملكه الاعياء ، فخمدت حركته بعض الشيء ولكنه لم يكف عن التأوه . وسرعان ما كف عن الصراخ بل عن الكلام ، فاستطعت أن أسمع أصوات نعيب البوم وعواء الذئاب صادرة من قلب الغاب . وكان صداها مفزعا ، أما أبى ، فقد ظل ممددا فى ركن الكوخ ، ثم رفع رأسه قليلا ، وأصاخ السمع وقد مال رأسه ، ثم قال ببطء شديد :

— انى أسمع وقع أقدام .. انهم الموتى .. لعلهم قادمون فى طلبى ، ولكنى لن أذهب معهم .. انهم هنا .. لا تلمسونى .. لا تفعلوا .. ارفعوا أيديكم لأنها باردة .. اذهبوا .. دعوا الشيطان التعس وشأنه .

وراح يزحف على الأرض وهو يتوسل اليهم أن يدعوه وشأنه.
ثم لف نفسه فى « بطانيته » وتدحرج حتى استقر تحت المنضده وهو لا يزال يتوسل ، ولكنه سرعان ما انفجر باكيا . واستطعت أن أسمع صوت بكائه من خلال « البطانية » .

وبعد قليل ، نهض من تحت المنضدة ووثب واقفا على قدميه وقد بدت عليه أمارات القسوة والوحشية ، وماكادت عيناه تقعان على ، حتى انقض على ، ولكنى راوغته ، فبدأ يطاردنى حول الكوخ ، وقد شهر سكينا فى يده ، ومضى يدعونى « ملاك الموت » ويقول انه سيجهز على حتى لا أحاول القضاء عليه ، أما انا ، فقد تملكنى الفزع ورحت أتوسل اليه أن يدعنى وشأنى ، فانا لست الا هاكليرى ابنه !! ولكنه أطلق ضحكة شيطانية ، وزمجر ، وشتم ، ومضى يطاردنى ، ثم اندفع نحوى فجأة وانقض على ، ولكنى أفلت من تحت ذراعه ، فأمسك بسترتى من عند عنقى ، وعندئذ خيل الى اننى أصبحت من الهالكين ، ولكنى بادرت بالانزلاق من السترة بسرعة البرق ، وبذلك أنقذت نفسى من موت محقق ، وسرعان مادب الاعياء فى أوصال أبى فتهالك على ظهره فوق الأرض عند الباب . وقال انه سيستريح دقيقة ثم يقتلنى ، ووضع سكينه تحت راسه ، وأردف قائلا انه سينام ليسترد قوته ثم يرى بعدئذ أينا الأقوى !!

وسرعان ما دب النعاس فى جفونه . وعندئذ نقلت المقعد بهدوء الى الجانب الآخر من الكوخ ، وتسلقته وأنا أتحاشى احداث اية ضوضاء ، وأنزلت البندقية ، وبعد أن فحصتها وتأكدت من انها محشوة ، وضعتها فوق برميل اللفت وقد سددت فوهتها الى أبى ، وجلست خلف البرميل فى انتظاره حتى يستيقظ ، الا أن الوقت كان يمر ببطء شديد ممل ... وبعد قليل غلبنى النوم !

الفصل السابع

فى موقف التربص ـ سجين فى الكوخ ـ الاستعداد للرحيل ـ اغراق الجثة ـ رسم خطة ـ قسط من الراحة

ــ انهض . ماذا تفعل ؟

وفتحت عينى وأدرتهما حولى محاولا ان أتبين أين أنا .. كانت الشمس قد أشرقت ، ومعنى ذلك اننى قضيت وقتا طويلا وأنا مستسلم للنوم العميق ، ووجدت أبى منتصب القامة وقد بدا عليه الغضب ، والمرض ايضا !

قال : ماذا تفعل بهذه البندقية ؟

وأيقنت أنه لا يتذكر شيئا مما فعله ليلا ، فقلت له :

ــ لقد حاول مجهول اقتحام الكوخ فكمنت له .

ــ لماذا لم توقظنى ؟

ــ لقد حاولت ذلك فعلا ، ولكنى فشلت .. فشلت فى ايقاظك .

ــ على أية حال ، لا تقف هكذا كالأبله طوال النهار .. هيا ، اذهب وانظر هل اصطادت احدى السنارات سمكة نفطر بها ؟ أما أنا فسألحق بك بعد قليل .

وفتح أبى الباب ، فخرجت . وانطلقت فى اتجاه شاطىء النهر ،

ورأيت كتلا من الخشب طافية فوق سطح الماء ، فأدركت أن الفيضان قد بدأ ، وتذكرت أن تلك هى الفترة التى كنت انعم فيها بوقت سعيد فى المدينة ، فقد كان فيضان النهر فى شهر يونيو يجلب لى حظا حسنا دائما ، اذ مايكاد الفيضان يبتدىء حتى يجلب التيار معه كتلا من الخشب مختلفة الأنواع تتجمع أحيانا حتى يصل عددها الى اثنتى عشرة قطعة دفعة واحدة ، وعندئذ كنت أسحبها الى البر وأبيعها لأصحاب مخازن الخشب أو الورش .

وسرت على الشاطىء وأنا أرقب حركات أبى ، وأرقب النهر فى الوقت ذاته لأرى ما قد يأتينى به الفيضان ، وفجأة رأيت زورقا مقبلا ... وكان زورقا جميلا طوله حوالى ثلاث عشرة او أربع عشرة قدما ، وهو ينزلق فوق الماء كالبطة ، فألقيت بنفسى فى الماء كالضفدعة دون أن أخلع ثيابى ، ورحت أسبح نحو الزورق ، وكنت أتوقع أن أجد شخصا ممددا فيه ، لأن الناس كثيرا ما يفعلون ذلك للسخرية من اللصوص ! فعندما يحاول احد الأشخاص الاستيلاء على مثل هذا القارب يبرز من قلبه شخص آخر يسخر منه ، ولكن الأمر لم يكن كذلك فى هذه المرة ... فقد كان القارب خاليا تماما ، ومن ثم ، فقد تسلقته ، وأخذت أقوده نحو الشاطىء ، وأنا أحدث نفسى بأن الرجل العجوز — أبى — سيفرح بالقارب لأنه يساوى عشرة دولارات ... وعند ما بلغت الشاطىء لم أجد أبى هناك ، وبينما كنت أقود القارب داخل فجوة مغطاة بالأشجار بين الصخور ، خطرت لى فكرة أخرى ... خطر لى أن أخفى القارب كى أستقله عندما أعتزم الهرب فذلك خير من الاختفاء فى الغابة ؛ وأمضى به فى النهر خمسين ميلا ، ثم أعسكر فى مكان آمن ، وبذلك أتجنب قطع هذه المسافة الطويلة سيرا على قدمى !

وما كدت أفعل ذلك حتى سمعت دبيب أقدام فظننت أن أبى قادم ، ولكنى لم أعبأ بذلك ، اذ كنت قد فرغت من اخفاء الزورق ،

وأسرعت أخرج الى العراء ، فرأيت أبى يصوب بندقيته الى طائر فى الفضاء ويطلقها فيسقطه ، وعندئذ أيقنت أنه لم يدرك مافعلت !

وعند ما رآنى ، كنت أجذب احدى السنانير ، وعندئذ انفجر يسبنى ويشتمنى لتكاسلى ، ولكنى قلت له اننى سقطت فى النهر ، وهذا هو سبب تأخرى ! فقد كنت أعلم أنه سيلاحظ بلل ثيابى ، فيمطرنى بوابل من أسئلته ... وتبين لنا أن السنانير اصطادت سمكا كثيرا فأخذناه وعدنا الى الكوخ !

وعند ما فرغنا من تناول طعام الافطار ، أحس كل منا بالاعياء فتمددنا على الأرض لنستريح . وعندئذ رحت أفكر فى أننى اذا استطعت ان أحول دون نجاح أبى والأرملة فى تعقب أثرى ، فاننى سوف أجعل المسافة بينى وبينهما طويلة جدا قبل أن يكتشفا اختفائى ، وبينما أنا مستغرق فى التفكير ، استيقظ أبى وشرب « برميلا » آخر من الماء ، ثم قال :

ــ عند ما تسمع دبيب أقدام أحد فى هذه المنطقة بادر بايقاظى ... هل فهمت ؟ ان هذا المجهول كان يعتزم شرا ولا شك ، ولو أننى رأيته لأطلقت النار عليه ، فعليك أن توقظنى فى المرة التالية ... هل سمعت ؟

ثم تمدد ثانية على الأرض ، واستسلم للنوم ... وفى الحق ان ما قاله لى زودنى بالفكرة التى كنت أبحث عنها ، فقلت لنفسى اننى أستطيع الآن أن أضع خطة تصرف الناس جميعا عن تتبع أثرى ! ...

واستيقظنا حوالى الظهر ، فمضينا الى شاطىء النهر ، وكان الفيضان قد بلغ درجة عالية من الارتفاع ، والتيار شديدا ، وكانت عشرات من الكتل الخشبية تطفو مع التيار ، وبعد فترة من الوقت ، أقبل طافيا فوق الماء جزء من قارب خشبى محطم تبقت منه تسع كتل خشبية مشدودة الى بعضها . وركبنا قارب أبى ورحنا ننقل

هذه الكتل الضخمة من الخشب الى الشاطىء وتناولنا طعام الغداء. ولو أن أحدا آخر - غير أبى - كان هناك ، لتريث حتى ينصرم النهار ليحصل على كميات كبيرة من الكتل الخشبية الطافية . ولكن التريث لم يكن شيمة أبى ، ولهذا فقد اكتفى بالكتل التسع التى حصل عليها وقرر أن يذهب الى المدينة بلا ابطاء لبيعها هناك . وسرعان ما سجننى فى الكوخ وأخذ قاربه وشد اليه الكتل الخشبية ومضى الى المدينة . كان ذلك حوالى الساعة الثالثة والنصف . وقدرت أنه لن يعود الى الكوخ فى تلك الليلة ، وانتظرت حتى يبتعد عن مكانى كثيرا ، ثم بادرت باحضار المنشار واستأنفت « نشر » كتلة الخشب التى يتكون منها باب الكوخ . وقبل أن يصل أبى الى الشاطىء الثانى للنهر ، كنت قد نجحت فى الخروج من الكوخ ، وتطلعت الى الجانب الثانى من النهر ، فلاح لى أبى وقاربه كنقطة صغيرة فوق صفحة الماء !

ونقلت كيس الدقيق الى المكان الذى أخفيت قاربى فيه ، كما نقلت أيضا « فخذة اللحم » وكل ما فى الكوخ من بن وسكر وطعام . ولم أنس الدلو و « الطست » والقدح النحاسى والمنشار العتيق . وبطانيتين ووعاء القهوة وعلب النقاب ! لقد نقلت كل ما فى الكوخ من أدوات وأمتعة ، وتركته شاغرا تماما ! وكنت بحاجة الى فأس ولكننى لم أجد فأسا فى الكوخ ، ولكنى وجدت فأسا فى كومة أخشاب قريبة ، فلم آخذه وانما تركته حيث هو لفكرة خطرت ببالى ... وأخذت البندقية معى أيضا ، وبذلك تم تأهبى .

وكنت قد تركت ورائى آثارا واضحة على الأرض بسبب كثرة دخولى وخروجى من الفجوة وجر الأشياء التى نقلتها ، ومن ثم رحت أصلح ما فسد من معالم الأرض جهد طاقتى ، بنشر التراب فوق الآثار الظاهرة حتى انطمست ، وأخيرا وضعت قطعة الخشب التى انتزعتها من جدار الكوخ فى مكانها ووضعت تحتها قطعتين من

الصخر ، وقطعة ثالثة أمامها لتثبيتها في مكانها ــ ذلك أن قطعة الخشب « المنشورة » كانت مقوسة الى الخارج . ولو أنك وقفت على مبعدة أربع أقدام أو خمس ، وتطلعت الى الجدار ، لما عرفت أنه « منشور » . ولما لاحظت أي شيء غير عادي ! وعدا ذلك فان الجدار الذي تسللت منه كان الجدار الخلفي للكوخ ، ومن ثم لم يكن من المرجح ان يحاول أحد اكتشافه !

كانت المنطقة المؤدية الى القارب مجردة من الأعشاب . كما انني لم أترك فوقها أي أثر ، ومع ذلك فقد أخذت استكشفها لاستوثق من عدم وجود أية آثار يمكن أن تفضح أمري . ووقفت عند شاطئ النهر ، ورحت أتأمل الماء . . . كان كل شيء آمنا ، ومن ثم التقطت البندقية ومضيت الى القارب لعلى أصطاد بعض الطيور ، فلم ألبث أن رأيت خنزيرا بريا ! ولا عجب ، فان الخنازير تلوذ بالغاب بعد أن تغادر مزارع البراري في تلك الفترة ، وفي التو أطلقت الرصاص على الخنزير وحملته ذبيحا الى الكوخ !

والتقطت الفأس وهويت به على باب الكوخ مرة ثم مرات حتى حطمته الى حد كبير . وحملت الخنزير الذبيح الى داخل الكوخ ورحت أجذبه الى مكان قريب من المنضدة ! ثم رفعت الفأس ، وبضربة واحدة خطمت عنق الخنزير ، فسال الدم منه بغزارة ولطخ الأرض! نعم لطخ الأرض التي لم يكن يغطيها بلاط ولا خشب، وبعد ذلك أحضرت جوالا قديما حشوته بالصخور التي كان في استطاعتي أن أجرها . ووضعت الجوال عند المكان الذي أخرجت منه جثة الخنزير ، ورحت أجذب الجوال فوق الأرض نحو الباب ، ثم في الغاب حتى حافة النهر . وأخيرا أغرقته فيه فغاب عن الأنظار ! وهكذا أصبح في استطاعة أي انسان أن يدرك بمجرد القاء نظرة عابرة ، ان شيئا ثقيلا قد جر فوق الأرض ما بين الكوخ وشاطئ النهر ثم ألقي في الماء ! ولكم تمنيت لو أن « توم سوير »

كان معى فى هذه اللحظة ، فقد كنت اعلم مدى شغفه بمثل هذه المغامرات ، وكم يحب دائما أن يضيف اليها بعض اللمسات التى يبتدعها خياله ، فليس هنالك انسان له عبقرية « توم سوير » فى مثل هذه المناسبات ! !

وأخيرا انتزعت خصلة من شعرى ، ولطخت الفأس بدم الخنزير، ثم ألصقت خصلة الشعر بنصل الفأس ، ووضعته فى ركن الكوخ ! وحملت الخنزير بين ذراعى بعد أن لففته جيدا فى سترتى كى لا يقطر الدم منه على الأرض ، وأخذت أسير حتى ابتعدت عن الكوخ مسافة كافية ، ثم أغرقته فى النهر ! وعندئذ خطرت لى فكرة أخرى .... ذهبت الى القارب ، وأحضرت جوال الدقيق والمنشار القديم ، وعدت الى الكوخ حيث وضعت الجوال فى مكانه المألوف واستعنت بالمنشار فى احداث ثقب بقاعدة الجوال لأننى لم أجد سكينا أو « شوكة » ... فقد كان أبى يستخدم المدية التى يحملها دائما فى أداء شتى الأعمال التى يحتاج أداؤها الى سكين ! . وكان يحتفظ بهذه المدية معه دائما ... ثم حملت الجوال وسرت به حوالى مائة ياردة فوق الأعشاب بين أشجار الصفصاف شرقى الكوخ حتى بلغت بحيرة ضحلة اتساعها خمسة أميال مملوءة بنبات السمار ، ويختفى فيها البط فى موسم الفيضان ! وكان ثمة نهير فى الجانب الآخر من البحيرة ، يجرى أميالا بعيدة فى قلب الغاب، وان كنت لا أعلم أين ينتهى ! ولكنه لم يكن يتصل بالنهر الكبير على كل حال ! ولقد تسرب الدقيق من ثقب الجوال وترك أثرا ضئيلا على طول الطريق حتى البحيرة ! ثم رتقت الفتحة التى ثقبتها فى الجوال بقطعة من الخيط حتى لا يتسرب الدقيق منه . وعدت بالجوال والمنشار الى القارب !!

كان النهار قد أوشك على الادبار ، فدفعت القارب الى النهر وأبقيته فى منطقة تكسوها أغصان أشجار الصفصاف الضخمة ،

وانتظرت ريثما يطلع القمر ، وشددت القارب الى جذع شجرة صفصاف . وتناولت بعض الطعام ، ثم تمددت فى القارب ريثما أتدبر الأمر ، وقلت لنفسى انهم سوف يتتبعون أثر الجوال المملوء يقطع الصخور حتى شاطىء النهر ، ثم يبحثون عنى فى النهر ، كما سيتتبعون أثر الدقيق الى البحيرة ويبحثون عنى فى البحيرة والنهير النابع منها ، وسيبحثون عن اللصوص الذين قتلونى وسرقوا ما فى الكوخ ، ولكنهم لن يجدوا لى أثرا ، وسوف يتملكهم اليأس والاعياء فيكفون عن البحث . . . وحدثت نفسى بأن هذا كله حسن وأيقنت اننى أستطيع عندئذ ان استقر حيثما أريد ! وخطر لى أن « جزيرة جاكسون » هى خير ملاذ لى ، فأنا أعرف جميع معالم هذه الجزيرة حق المعرفة ، ولن يفكر أحد فى البحث عنى هناك ! وهكذا أستطيع بعد ذلك أن أتسلل الى المدينة فى الليل لأحصل على كل ما قد يعوزنى . . . نعم ان جزيرة جاكسون هى أصلح مخبأ لى !

وكان التعب قد نال منى كل منال فغلبنى النوم على أمرى ، وعندما استيقظت لم أدرك أين أنا فى بادىء الأمر فاستويت جالسا وتلفت حولى وقد ركبنى الفزع ، ولم ألبث أن تذكرت كل شىء ! كان النهر يمتد أمامى أميالا وأميالا ، وكان القمر ساطعا حتى لقد كان فى استطاعتى أن أعد كتل الخشب الطافية على سطح النهر على مبعدة مئات الياردات من الشاطىء ! . . . وكان الكون هادئا غاية ما يكون الهدوء .

وتمطيت وتثاءبت ، وكدت أفك الحبل الذى يشد القارب الى جذع الشجرة استعدادا للرحيل ، ولكنى سرعان ما سمعت صوتا صادرا من الجانب البعيد من النهر ، فأصخت السمع . وسرعان ما تبينت حقيقة هذا الصوت ! كان صوت ارتطام مجاديف بالماء . وحدقت فى مصدر الصوت ، ولم ألبث أن تبينت قاربا مقبلا من

بعيد . ولم أستطع أن أحدد عدد ركاب القارب الذى راح يتقدم نحوى . وعند ما أصبح قبالتى ، تأكدت أنه ليس به غير شخص واحد ، وخطر لى أن القادم هو أبى ، رغم أننى لم أكن أتوقع عودته فى مثل هذا الوقت ، وابتعد القارب عنى منساقا مع التيار ، وبعد فترة من الوقت اقترب من الشاطىء متأرجحا متهاديا لبعده عن مجرى التيار القوى ، ومر القارب على مقربة منى ، بحيث كان فى استطاعتى ان أبسط ذراعى وأمسك حافته . ورأيت أبى يجلس فى القارب ، وأدركت من طريقة امساكه بالمجدافين أنه متمالك حواسه ووعيه وليس ثملا !

ولم أضع لحظة واحدة ! وفى اللحظة التالية ، كان القارب ينزلق بى فوق سطح الماء مستترا فى ظل الشاطىء . وقطعت ميلين ونصف ميل ، ثم اتجهت الى قلب النهر حتى قطعت حوالى ربع ميل ، فقد كنت أعلم اننى لن ألبث أن أمر بحرس القوارب وربما رآنى بعض الناس واستوقفونى . وسرعان ما اصطدم قاربى بكتل الخشب الطافية على صفحة الماء . وبادرت بالتمدد فى قاع القارب ، وتركته ينساب مع التيار ! وظللت ممددا فى مكانى فترة طويلة من الوقت لأستريح ، ورحت أتطلع الى السماء التى لم تكن تعكر صفحتها سحب أو غيوم ! ولكم تبدو صفحة السماء شديدة العمق حينما تتمدد فوق ظهرك والقمر ساطع ، وهو ما لم أكن أعلمه من قبل ! بل ان الانسان ليستطيع أن يسمع الأصوات التى تصدر من بعيد فوق سطح الماء فى مثل هذه الليالى ! فقد سمعت الناس وهم يتكلمون عند مرسى الزوارق ، وطرقت أذنى كل كلمة كانوا ينطقون بها ! فسمعت رجلا يقول ان هذا الوقت من العام يقترب من الأيام التى يطول فيها النهار ويقصر الليل ! وعندئذ ضحك سامعوه ، فعاد الرجل يكرر قوله ، فضحكوا ثانية ، وأيقظوا رجلا آخر أنبأوه بما قاله الرجل الأول ، ولكنه لم يضحك

مثلهم ، وانما قال لهم شيئا ما بلهجة خشنة ، وطلب اليهم أن يدعوه وشانه ! وعاد الرجل الاول يقول انه سوف يخبر زوجته العجوز بالامر ، ولا شك فى أنها ستصدقه ، ولكنه عاد فقال ان الحقيقة التى ذكرها لا تعتبر شيئا مذكورا اذا قيست بحقائق اخرى هامة سبق أن أفضى بها لزوجته ! ! وسمعت رجلا يقول ان الساعة تقترب من الثالثة صباحا وانه يامل الا يتاخر طلوع الفجر اطول مما تأخر فى الاسبوع الماضى ! ! واخيرا بدأت اصوات المتحدثين تخفت ، فلم تستطع أذنى التقاط كلماتهم بعد أن أصبح حديثهم همهمة تتخللها ضحكة بين حين وآخر !

وكنت قد ابتعدت كثيرا عن مرسى الزوارق فى تلك الاثناء ، فاستويت جالسا . وعندئذ رايت « جزيرة جاكسون » على مبعدة حوالى ميلين ونصف ميل الى الجنوب ، تظلل سماءها اغصان الاشجار الكثيفة ، وهى قابعة فى قلب النهر صلبة ، كباخرة جبارة لا يتسلل منها نور . ولم ار حاجزا عند راس الجزيرة ، فقد كان الحاجز مغمورا بالماء فى تلك الاثناء .

ولم يستغرق وصولى الى الجزيرة وقتا طويلا ، فقد بلغت رأسها بسرعة عظيمة لشدة التيار ، ثم بلغت منطقة الماء الهادئة ، فهبطت الى البر على الجانب المواجه لشاطىء « الينوى » ، واخفيت القارب فى فجوة عميقة كنت أعرفها ، وحرصت على أن يكون القارب محجوبا عن العيون اسفل أغصان شجر الصفصاف حتى لا يراه أحد من الخارج .

وجلست فوق كتلة خشب عند راس الجزيرة ، وتطلعت الى النهر الكبير وكتل الخشب المظلمة التى كانت تتهادى فوق صفحة مائه ثم تطلعت الى المدينة على مبعدة ثلاثة أميال ، وقد تالقت فيها ثلاثة اضواء أو اربعة . ورايت قاربا ضخما من كتل الخشب يجرى فوق صفحة الماء قادما نحوالجزيرة على مبعدة ميل تقريبا ،

وقد انبعث منه ضوء مصباح موقد. ورحت أراقبه وهو يزحف، وعند ما أصبح محاذيا للمكان الذى كنت فيه سمعت رجلا يقول: « مجاديف المؤخرة .. حول رأس القارب فى الاتجاه الآخر ! » ولقد سمعت هذه العبارة بوضوح كما لو كان المتكلم واقفا بجوارى ! !

وبدأ ضوء الفجر يقهر ظلمة الليل فى تلك الأثناء، فاندفعت داخل القارب لأحصل على قسط من النوم قبل أن أتناول طعام الافطار ! !

الفصل الثامن

النوم فى الغابة ـ ايقاظ الموتى ـ الترقب ـ استكشاف الجزيرة ـ نوم عديم الجدوى ـ العثور على جيم ـ هرب جيم ـ علامات ـ ((الزنجى الأعرج)) .

كانت الشمس قد ارتفعت فى كبد السماء عند ما استيقظت من نومى ، حتى لقد قدرت أن الساعة بلغت الثامنة . وبقيت ممددا فوق الأعشاب فى الظل الرطب وأنا أفكر فى الموقف ، وقد شعرت براحة وارتياح . وكان فى استطاعتى أن أرى الشمس من فجوة أو اثنتين خلال أغصان الأشجار ، التى كانت تملأ هذه المنطقة . . وكانت الفجوات التى تتخلل هذه الأشجار معتمة ، كما كانت هناك أماكن متفرقة على الأرض يتسرب اليها الضوء من بين الأغصان . وكانت أوراق الأشجار تهتز فأدركت أن هناك نسيما ، وحط سنجابان على أحد الغصون وراحا يثرثران بود عظيم ! !

كنت أشعر بكسل شديد وراحة كاملة ، فلم تتملكنى رغبة فى النهوض لطهى طعام الافطار . وكدت أستسلم للنوم مرة أخرى عند ما خيل الى أننى أسمع صوتا أشبه بصوت انطلاق المدافع صادرا من بعيد عبر النهر ، فرفعت رأسى وأستندت على مرفقى

وأصخت السمع . وسرعان ما تكرر الصوت ، فانتصبت واقفا ، وتقدمت من فجوة بين أوراق الشجر تطلعت من خلالها فرأيت سحابة من الدخان فوق صفحة الماء على مسافة بعيدة ، بمحاذاة مرسى القوارب . ورأيت ناقلة بحرية محملة بالرجال ، تسير فى الاتجاه المضاد من النهر ، وأدركت جلية الأمر على الفور .. وعلا صوت المدفع مرة أخرى ، ورأيت الدخان الأبيض ينبعث من كل جانب .. فأدركت أن ركاب الناقلة يطلقون مدفعها فوق صفحة الماء لكى تطفو جثتى ! !

كنت اشعر بجوع شديد ، ولكنى أدركت أن من خطل الرأى أن أشعل نارا ، خشية أن يرى ركاب الناقلة دخانها ، فلزمت مكانى ومضيت أرقب دخان المدفع وأصغى الى صوت اطلاقه . وكان عرض البحر ميلا فى هذه المنطقة . وكان يبدو جميل المنظر فى هذا الوقت من الصيف وبخاصة فى الصباح ، ولهذا استمتعت أعظم متعة وأنا أراقبهم ينقبون المـاء بحثا عن جثتى ، ولم يعكر صفو متعتى سوى شعورى بالجوع ، وتذكرت فى تلك الأثناء كيف أن أهل المدينة اعتادوا أن يضعوا مقادير من الزئبق فى أرغفة من الخبز يلقونها فى الماء ، لإعتقادهم أن هذه الأرغفة تذهب دائما الى حيث توجد جثة الغريق !.. وقلت لنفسى اننى سأمضى فى المراقبة ، فاذا طفا أحد الأرغفة حول المكان الذى أنا فيه ، فلا بد لى من الحصول عليه ! ! وانتقلت الى شاطىء الجزيرة المواجه لمقاطعة « الينوى » لأرى ما يخبئه لى القدر . ولم يخب ظنى ، اذ لم يلبث رغيف كبير أن أقبل نحوى . وكدت أفوز بالرغيف مستعينا فى ذلك بعصا طويلة ، ولكن قدمى انزلقت فابتعد الرغيف عنى ! بالطبع ، كنت أقف فى المنطقة التى كان التيار فيها أقرب ما يكون من الشاطىء ، ولكن ما ان انقضى وقت غير طويل حتى أقبل رغيف آخر ، استطعت أن أفوز به هذه المرة .

واسرعت أهزه بعنف حتى سقطت منه اللفافة المحتوية على الزئبق ، ثم أنشبت أسناني فيه ! فقد كان رغيفا من الصنف الفاخر لا من ذلك النوع الرديء الذي يثير الاشمئزاز ! !

وعثرت على مكان مريح بين الأشجار فاستندت الى كتلة من الخشب ورحت ألتهم الخبز وأراقب الناقلة النهرية وأنا اشعر بارتياح شديد . وعندئذ طاف بذهني خاطر !... حدثتني نفسي بأن الأرملة أو القاضي أو أي شخص آخر قد ابتهل الى الله أن يعثر هذا الرغيف علي . وها هو الرغيف قد أدى مهمته ، ومن ثم فليس من شك في أن اعتقاد الناس بهذه الطريقة فيه شيء من الصواب . أو بعبارة أخرى ، أن صلاة الأرملة أو الكاهن أو أي شخص مثلهما تؤدي الى نتيجة ما . أما صلاتي أنا فانها لا تؤدي الى شيء . وأكبر ظني أن الأمر كذلك بالنسبة لأي شخص آخر لا ينتمي الى ذلك الطراز المؤمن من الناس الذي تستجاب صلواته .

ورحت أراقب ما يدور امامي .. كانت الناقلة النهرية تسبح مع التيار ، فقلت لنفسي انني سأتمكن من رؤية من على ظهرها عند ما تمر أمامي لأنها خليقة بأن تقترب مني ، على الأقل الى النقطة التي اختفى الرغيف عندها . وعندما اقتربت الناقلة كثيرا مني ، ذهبت الى المكان الذي التقطت منه الرغيف واختبأت خلف كتلة من الخشب على الشاطيء في مكان مكشوف قليلا . وكان لهذه الكتلة فرعان يمكنني أن أختلس النظر من الفجوة بينهما .

وبعد فترة من الوقت ، أقبلت الناقلة واقتربت جدا من الشاطيء بحيث كان في استطاعة ركابها أن يمدوا منها لوحا من الخشب ليستقر فوق الشاطيء . كان جميع من اعرفهم في الناقلة ، أبي والقاضي تاتشر ، و « بيسي تاتشر » و « جو هاربر » و « توم

سوير » وخالته العجوز « بولى » و « سيدنى » وغيرهم . وكان الجميع يتكلمون عن جريمة القتل ، ولكن الربان قاطعهم قائلا :

ـ افتحوا عيونكم جيدا ، فان التيار أقرب مايكون الى الشاطىء هنا ، ومن المحتمل أن نكون قد جرف الجثة الى الشاطىء فاشتبكت ببعض الأعشاب النامية عند حافة الماء . أو هذا على الأقل ما أرجوه .

أما أنا فلم أكن أرجو ذلك ! وتجمهر الجميع عند حاجز الناقلة وراحوا يتطلعون باهتمام نحو الشاطىء حتى خيل الى أنهم يرون وجهى ، لأنهم جمدوا تماما فى أماكنهم وهم يتطلعون بكل قواهم . وكان فى استطاعتى أن أراهم بسهولة . أما هم ، فلم يكن فى استطاعتهم رؤيتى ، وعندئذ أنشأ الربان يقول :

ـ ابتعدوا ....

وانطلق المدفع ، وكان دوى انطلاقه عنيفا حتى خيل الى أننى أصبت بالصمم ، كما خشيت أن أصاب بالعمى نتيجة لشدة وهج الضوء الذى اقترن بالطلق . بل لقد خيل الى اننى من الهالكين ، فلو انهم قرروا اطلاق المدفع عدة مرات لاستطاعوا الحصول على الجثة التى يبحثون عنها ! ! وعلى أية حال ، فاننى لم أصب بمكروه ، والحمد لله على ذلك . واستمرت الناقلة تسبح مبتعدة عنى الى أن غابت عن عينى عند كتف الجزيرة . وكان فى استطاعتى أن أسمع دوى انطلاق المدفع بين الحين والحين ، ولكنه كان يتضاءل باستمرار ، حتى اذا ما انقضت ساعة تلاشى الدوى تماما فلم أعد أسمعه . ولما كان طول الجزيرة ثلاثة أميال ، فقد رجحت أن الناقلة بلغت طرفها فى تلك الأثناء وأن ركابها قد تملكهم اليأس وأنهم سوف يتخلون عن محاولتهم . ولكن واقع الأمر انهم لم يفعلوا ذلك ، اذ أنهم لم يلبثوا أن داروا حول طرف الجزيرة ثم انطلقوا فى الاتجاه المؤدى الى نهر الميسورى ، وهم يطلقون

المدفع من حين الى حين . فعبرت الجـزيرة ، حتى اذا ما بلغت جانبها الآخر أخذت أراقب الباحثين عنى ، ولم ألبث ان لاحظت أنهم ماكادوا يصلون الى راس الجزيرة حتى كفوا عن اطلاق المدفع ثم تراجعوا عن شاطىء نهر الميسورى وكروا عائدين الى المدينة .

أيقنت حينذاك أننى بمأمن ، فلن يخرج أحد للبحث عنى بعد ذلك ، فبـادرت باخراج أمتعتى من القـارب ، وأقمت لنفسى معسكرا فى الغابة الكثيفة . . أنشأت ما يشبه الخيمة مستعينا فى ذلك بالبطاطين ، لـكى أضع منقولاتى فيهـا حتى لا يصل المطر اليها . ثم اصـطدت سمكة ضخمة فتحت جوفهـا بمنشارى . وعنـد ما آذنت الشمس على المغيب ، أوقدت نارا وتنـاولت عشائى ، ثم أعددت « السنانير » لصيد بعض السمك لأجعل منه طعام افطارى .

وعنـد ما أظلمت الدنيـا جلست الى جوار النار الموقدة وأنا أشعر براحة غامرة، ولكنى لم ألبث أن أحسست بثقل وطأة الوحدة، فهرعت الى شـاطىء النهر ومضيت أصـغى الى الأمواج وهى تصطدم ببعضها البعض . كما أخذت أعد النجوم ، وكتل الخشب الطافية فوق الماء والقوارب الشاردة ، ثم آويت الى فراشى ، فقد كنت أعلم أنه ليس من وسيلة أفضل من النوم للتغلب على الوحدة .

وهكذا مضت ثلاثة أيام بلياليهـا ، رتيبة مملـة . غير أننى خرجت لاستكشاف الجزيرة فى اليوم التالى . . لقد كنت سـيد هذه الجزيرة . . كانت كلها ملكى فوددت أن أعرف كل شيء عنها ، وان كنت فى واقع الأمر قد أردت قطع الوقت ! وعثرت على كثير من أشجار الراولة وعنب الصيف وأشجار التوت المحملة بالثمار الناضجة ، كانت كلهـا فى متناول يدى أقطف منها فى أى وقت ما أشـاء .

وتوغلت فى الجزيرة حتى لقد رجحت اننى لم أعد بعيـدا س

نهايتها . وكنت أحمل بندقيتي محشوة بالرصاص ، ولكنى لم اصطد شيئا لأننى كنت أحملها للدفاع عن نفسى ، رغم اننى كنت اعتزم صيد بعض الطيور قبل عودتى الى المعسكر . وفى تلك اللحظة وقع بصرى على ثعبان ضخم ، لم يلبث ان تسلل بين الاعشاب والزهور فاسرعت أتعقبه محاوله أن أصيبه برصاص بندقيتى . وبينما أنا أطارده ألفيتنى فجأة أمام رماد نار كانت موقدة . وكان الدخان لا يزال يتصاعد منها .

ووثب قلبى بين ضلوعى ، ولم أتريث لأطيل النظر ، بل أعددت بندقيتى للعمل وعدت أدراجى من حيث أتيت وأنا اسير فوق أطراف اصابعى بأقصى سرعة مستطاعة ، وكنت انوقف لحظات بين الحين والحين وأصيخ السمع ، ولكن تنفسى كان يحدث صوتا عاليا يتعذر على معه أن اسمع أى صوت آخر . وقطعت شوطا آخر ، وتوقفت لأصيخ السمع ثانية ، وهكذا كنت افعل كلما قطعت مرحلة فى طريق عودتى الى معسكرى ، وكنت كلما رايت جذع شجرة مقطوعة ، حسبته رجلا ، وكلما حطمت قدماى فرع شجرة ملقى على الأرض جعلنى ذلك أشعر وكأن قلبى قد كف عن النبض !

وعند ما عدت الى المعسكر ، لم أكن أشعر بجرأة ما ، ولما كنت أدرك أن الموقف لا يحتمل اهمالا أو تهاونا ، فقد بادرت بنقل جميع أمتعتى الى القارب حتى تصبح بعيدة عن الأنظار ، واطفأت النار ، وبعثرت الرماد فى الهواء حتى يبدو لمن يرى النار انها كانت موقدة منذ عام . ثم تسلقت احدى الأشجار الضخمة .

وقضيت ما يقرب من ساعتين فوق الشجرة ، ولكنى لم اسمع ولم أر شيئا ، غير أنه خيل الى اننى سمعت ورايت آلاف الأشياء ... ولما لم يكن فى استطاعتى أن أبقى فى مكانى ذلك الى الأبد ، فقد هبطت أخيرا من فوق الشجرة ، ولكنى حرصت على التزام

المناطق الكثيفة من الغابة ، وعلى أن أظل مرهف الأذنين مفتوح العينين طوال الوقت ، وكان كل ما استطعت أن أحصل عليه من طعام لا يتعدى بعض ثمار التوت وبقايا وجبة الصباح .

وعند ما جن الليل ، أحسست بجوع شديد ، وما كاد الظلام يمتد حتى تسللت خلسة وبهدوء مبتعدا بقاربى عن الشاطىء قبل أن يطلع القمر ، وأخذت أجدف الى شاطىء « الينوى » ، حوالى ربع ميل . ونزلت الى الغابة وأعددت لنفسى عشاء ، وكدت أحزم أمرى على قضاء الليلة فى ذلك المكان لولا أننى سمعت وقع حوافر جياد . وبعد لحظات سمعت أصوات رجال ، فأسرعت أعيد كل شىء الى القارب بهدوء وحذر ، ثم تسللت عبر الغابة لأرى ماذا هناك ، ولكنى لم أذهب بعيدا ، فقد سمعت رجلا يقول :

ــ يحسن بنا أن نعسكر هنا ، فان هذا خير مكان يصلح لقضاء الليل ، كما أن الجياد متعبة جدا ، فدعونا نلق نظرة على ماحولنا .

ولم أنتظر ، وانما ركبت قاربى وأسرعت مبتعدا ، ثم ربطت القارب فى مكانه القديم ، وقررت النوم فيه .

ولم أنم طويلا ، فقد تعذر على النوم لاستغراقى فى التفكير . وكان يخيل لى كلما استيقظت ، أن شخصا يحيط عنقى بيديه ، ولهذا لم أفد من النوم كثيرا ، ولم ألبث أن قلت لنفسى اننى لن أستطيع العيش على هذا المنوال وأن لا مفر لى من أن أعرف أولئك الذين يقيمون معى بالجزيرة ؛ فان لم أعرف ذلك فسأنشق غيظا . . . وعندئذ شعرت بالارتياح ! !

وتسللت بقاربى مبتعدا عن الشاطىء خطوة أو اثنتين ، ثم سرت به فى ظل الشاطىء ، وكان القمر ساطعا فبدت الدنيا خارج نطاق ظل الشاطىء وكأنها تسبح فى ضوء النهار ، وظللت أتقدم بقاربى زهاء ساعة . وكنت قد أشرفت على بلوغ طرف الجزيرة فى تلك الأثناء ، وأخذ نسيم خفيف يلفح وجهى . وكان ذلك فألا

حسنا فى اعتقادى . واستعنت بمجدافى فى تحويل مقدم القارب نحو الشاطيء ، ثم حملت بندقيتى وهبطت الى الشاطيء ، وانطلقت الى حافة الغابة . ثم جلست فوق كتلة من الخشب وتطلعت من خلال أوراق الشجر ، فلاحظت أن القمر قد انحدر نحو المغيب ، وبدأ الظلام ينشر سرادقه فوق النهر ، ولكنى لم ألبث أن رأيت شعاعا خافتا ينعكس على ذوائب الأشجار ، فأدركت أن الفجر على الأبواب ، فالتقطت بندقيتى وسرت متلصصا فى الاتجاه الذى عثرت فيه على آثار النار . وكنت أتوقف عن المسير كل دقيقة أو دقيقتين لأصيخ السمع ، ولكن الحظ خاننى ، فلم أستطع العثور على المكان الذى وجدت فيه هذه الآثار . غير أننى لم ألبث أن لمحت نارا بين الأشجار البعيدة ، وبعد فترة كنت قد اقتربت منها . وسرعان ما رأيت رجلا بجوارها ، فكاد قلبى يكف عن النبض ! كان الرجل يلف بطانية حول رأسه ، وكان رأسه فى قلب النار تقريبا ، فجلست خلف كومة كثيفة من الأعشاب على مبعدة ست اقدام تقريبا من مكان الرجل ، وسددت النظر اليه ، وكان ضوء النهار قد بدأ يتسلل . وسرعان ما تمطى الرجل وتثاءب ونزع البطانية عن رأسه ... لقد كان « جيم » خادم الآنسة واطسون . وأقسم اننى سررت لرؤياه .

وهتفت : هاللو « جيم » ...

وانتصب الرجل واقفا فى لمح البصر ، وراح يتأملنى مبهوتا ، ثم جثا فوق ركبتيه ، وضم يديه الى بعضهما وقال :

— لا تمسسنى بمكروه . أرجوك ألا تمسسنى بمكروه ، فاننى لم أسيء الى الأشباح طيلة حياتى ... بل اننى أحب الأموات ، وأفعل كل ما فى طاقتى من أجلهم ... فاذهب الى النهر ثانية ، فالنهر موطنك ولا تسيء الى جيم الكهل ، لأنه صديقك الدائم !!

ولم أضع وقتا طويلا فى افهامه اننى لم أمت ، والحق اننى شعرت

بسرور غامر لرؤية جيم . . . انني لم أعد وحيدا فى الجزيرة . وقلت له انني لا أخشى أن يذهب وأن يقول للناس أين أنا . ومضيت أتحدث اليه . أما هو فقد ظل جامدا فى مكانه دون أن ينطق ببنت شفة ، واكتفى بالتحديق فى وجهى ، وعندئذ قلت له :

ـ لقد طلع النهار ، فدعنا نتناول طعام الافطار ، هلم زد نارك اشتعالا .

ـ وما جدوى اشعال النار ؟ هل تطهو عليها التوت وما يماثله من الثمار ؟ . . . ما دمت تحمل بندقية ، فاننا نستطيع أن نحصل على شيء أفضل من التوت .

فقلت : وهل كنت تعيش على التوت وما شابهه من قبل ؟

ـ لم يكن فى استطاعتى أن أحصل على أى شيء آخر .

ـ وكم من الوقت مضى عليك فى هذه الجزيرة ؟

ـ جئت الى هنا فى الليلة التى أعقبت مقتلك .

ـ ماذا تقول ؟ أقضيت كل هذا الوقت هنا ؟

ـ نعم . بالطبع .

ـ ولم تكن تأكل الا هذه التوافه ؟

ـ نعم يا سيدى . لا شيء آخر .

ـ اذن فلا شك انك توشك على الموت جوعا ؟

ـ أعتقد انني أستطيع التهام لحم جواد كامل . كم مضى عليك من الوقت فى هذه الجزيرة ؟

ـ منذ الليلة التى قتلت فيها .

ـ أحقا ؟ وماذا كنت تأكل ؟ لكن لا . . . ان معك بندقية ، هذا حسن . . . هلم اصطد شيئا ، وسأزيد النار اشتعالا .

ومضيت الى حيث كان يوجد قاربى ، وبينما كان « جيم » يوقد نارا فى منطقة مكشوفة بين الأشجار ، أحضرت لحما وخبزا وبنا ووعاء لاعداد القهوة ، وآخر لقلى اللحم ، وسكرا وقدحين

نحاسيين . وجلس الزنجى على الأرض جامد الحراك ... فقد كان يظن أن ما يجرى أمامه ان هو الا عمل من أعمال السحر ! .
واصطدت سمكة كبيرة ، واستعان « جيم » بمديتى فى شق بطن السمكة ، ثم شواها .

وعندما أعد طعام الافطار ، جلسنا فوق الحشائش ورحنا نلتهم الطعام .. وكان « جيم » جائعا جدا فالتهم قدرا كبيرا من الطعام، وعندما حصلنا على حاجتنا من الطعام تمددنا فوق الأرض متكاسلين .

وبعد قليل قال جيم : لكن اصغ الى يا « هاك » . من الذى قتل فى الكوخ ما دام هذا القتيل لم يكن أنت ؟

وسردت عليه القصة كلها .

فقال انها خطة بارعة ، ما كان « توم سوير » ليستطيع تدبير خطة أفضل منها .

سألته : وكيف اتفق حضورك الى هنا ؟ وكيف جئت يا جيم ؟

فبدا القلق عليه ، ولكنه لم يقل شيئا . وبعد فترة من الصمت قال :

ـ يحسن بى ألا أجيب على هذا السؤال .

ـ لماذا يا جيم ؟

ـ هناك أسباب كثيرة ... فلعلك لا تشى بى اذا ما أفضيت اليك بهذه الأسباب يا « هاك » .

ـ فليلعنى الله ان فعلت ذلك يا « جيم » .

ـ أعتقد أنك ستكتم السر . الواقع اننى هربت يا « هاك » .

ـ جيم !!

ـ تذكر أنك وعدتنى بكتمان السر . تذكر أنك تعهدت بالا تقول شيئا يا « هاك » .

ـ نعم لقد وعدتك وما زلت عند وعدى ، نعم يا « جيم » سأبر

بوعدى ، قد يتهمنى الناس بأنى وضيع ويحتقروننى لأنى لم أقل شيئا ، ولكن ذلك لا يهمنى ، فاننى لن أقول شيئا ، كما أننى لن أعود الى المدينة . . . والآن ، خبرنى بالقصة كلها .

ـ حسنا ، اليك ما حدث . . . لقد دابت الآنسه واطسون على مضايقتى ومعاملتى بخشونة وقسوة . . . كانت تهددنى دائما بأنها ستبيعنى لأننى رقيق وعبد لها . ولاحظت أن تاجر زنوج يتردد كثيرا على المنطقة فى الفترة الأخيرة فساورنى القلق . وذات ليلة تسللت الى الباب فى وقت متأخر من الليل ، ولم يكن الباب مغلقا جيدا فسمعت الآنسة تقول للأرملة انها ستبيعنى لأورليانز وانها رفضت أن تبيعنى لتاجر عرض عليها ثمانمائة دولار ثمنا لى ! وأدركت أن هذا المبلغ الضخم سوف يغرى الآنسة واطسون ببيعى ، فلم أتريث حتى أسمع بقية الحديث ، وانما بادرت بالهرب ، وأسرعت أهبط من فوق التل وأنا آمل أن تتاح لى فرصة سرقة زورق من تلك الزوارق التى يشدها أصحابها الى الشاطىء أثناء الليل ، ولكنى تبينت أن هناك أشخاصا كثيرين كانوا يتجولون فى منطقة النهر فآثرت الاختباء فى حانوت قريب ، وانتظرت ريثما ينصرف الجميع ، واضطررت الى البقاء فى الحانوت طوال الليل ، لأن تجوال الناس فى المنطقة لم ينقطع . وحوالى الساعة السادسة صباحا بدأت القوارب تتجول فى النهر ، وحوالى الساعة الثامنة أو التاسعة كان كل ركاب القوارب يقولون ان أباك جاء الى المدينة وقال انك قتلت ، وكانت القوارب مشحونة بالسيدات والرجال الذاهبين الى كوخ أبيك لرؤية الحادث . وكانوا يتوقفون عند الشاطىء ليستريحوا بين حين وآخر قبل أن يعبروا النهر ، وهكذا استطعت أن أعرف من أحاديثهم كل شىء عن جريمة القتل ، ولقد تملكنى حزن شديد لمقتلك يا « هاك » ، ولكن هذا الحزن انقشع الآن . . . وبقيت مختبئا طوال النهار ، ومع أننى كنت جائعا فاننى

لم أكن خائفا لأنني كنت أعلم أن الآنسة واطسون والأرملة ستذهبان الى الاجتماع بعد تناول طعام الافطار مباشرة وانهما لن تعودا الى المنزل طوال النهار ، وستظنان انني ذهبت مع القافلة عند الفجر ، ومن ثم فانهما لن ترتابا فى غيابى الا فى المساء . أما بقية الخدم فلن يرتابوا فى اختفائى لأنهم يمنحون أنفسهم عطلة عقب انصراف أصحاب المنزل ... وعند ما أقبل المساء ، تسللت الى طريق النهر ، وسرت حوالى ميلين أو أكثر حتى بلغت منطقة خالية من المساكن . وكنت قد حزمت رأيى على ما سأفعله ، كنت أعلم اننى لو حاولت الفرار سيرا على قدمى فلن تلبث الكلاب أن تقتفى أثرى ، واذا سرقت قاربا لأعبر النهر به فان أصحاب القارب سوف يكتشفون الأمر ويدركون اننى استعملته لعبور النهر الى الجزيرة ولن يلبثوا أن يقفوا على أثرى . وعندئذ قلت لنفسى ان خير ما ينقذنى هو الاستعانة بكتلة خشبية لعبور النهر لأنها لن تترك أى أثر يدل على . ورأيت احدى الناقلات البحرية مقبلة نحوى ، فخضت فى الماء حتى صدرى ثم سبحت وأنا أحرص على خفض رأسى حتى لا يرانى أحد ، ومضيت أسبح عكس التيار الى أن بلغت موضع الناقلة النهرية ، وغصت تحت الماء ومضيت فى السباحة حتى حاذيت مقدم الناقلة وتسلقتها وتمددت فوق أرضها وكان من فيها من الرجال يجلسون فى منتصفها حول ضوء المصباح ، وكان المد آخذا فى الارتفاع والتيار قويا وقتذاك فأدركت اننى سأقطع خمسة عشر ميلا بعيدا عن المدينة عند ما تبلغ الساعة الرابعة ، وعندئذ يمكننى التسلل من القارب قبل طلوع النهار والسباحة الى الشاطىء والاختفاء فى الغاب المواجه لالينوى . ولكن الحظ لم يحالفنى ، اذ ماكادت الناقلة تقترب من رأس الجزيرة حتى شرع أحد الرجال فى المجىء الى مقدم القارب وهو يحمل

المصباح ، وأيقنت ألا جدوى من الانتظار فانزلقت من الناقلة الى الماء بهدوء ومضيت أسبح نحو الجزيرة ، وكنت أعتقد أننى سأتمكن من الخروج الى الشاطىء فى أى مكان ، ولكنى لم أستطع . . . كان الشاطىء خداعا فاضطررت الى الاستمرار فى السباحة الى أن كدت أصل الى طرف الجزيرة الآخر قبل أن أجد مكانا يصلح للخروج الى الشاطىء ، ومضيت على الفور الى الغاب وأنا أعلم أن من العبث أن أحاول التسلل الى الناقلة النهرية مرة أخرى مادامت مضاءة بمصباح .

ــ ألم يكن لديك لحم ولا خبز نطعم بهما طوال هذه الفترة ؟ لماذا لم تحاول صيد الضفادع ؟

ــ وكيف يمكن الوصول اليها ؟ انك لا تستطيع الانقضاض عليها والامساك بها ، ثم كيف يمكن اصابتها بحجر ؟ وكيف يستطيع الانسان اقتناصها بالليل ؟ هذا الى أننى كنت مضطرا الى عدم الظهور على الشاطىء فى ضوء النهار .

ــ أصبت . . . لقد كنت مضطرا الى الاختباء فى الغابة طوال الوقت ، فهل سمعتهم وهم يطلقون المدفع ؟

ــ أوه ، نعم ، وأدركت أنهم يبحثون عنك . . . ولقد رأيت الناقلة وهى تجوب النهر وراقبتها من خلال الأعشاب .

وأقبل عدد من صغار الطيور ، وطارت الطيور على ارتفاع ياردة أو اثنتين فوق رأسينا ، فقال « جيم » انها علامة على أن السماء ستمطر . وكنت أهم بمطاردة بعضها ولكن « جيم » منعنى قائلا اننى اذا فعلت فان ذلك سيكون نذيرا بالموت ! . . ثم قال ان أباه كان مريضا وان بعض الأشخاص اقتنص طيرا صغيرا فما لبث أبوه أن مات ! !

وقال « جيم » انه ينبغى عدم عد الأشياء التى تطهى لطعام العشاء لأن ذلك فأل سيىء ، وان النحس يصيب من ينفض غطاء

المائدة بعد غروب الشمس ! كما قال انه اذا كان شخص يملك خلية نحل ، ومات هذا الشخص فيجب على النحل أن يسمع بموته قبل شروق شمس اليوم التالى والا ضعف النحل جميعه وتوقف عن العمل ثم مات !! وأضاف جيم ان النحل لا يلدغ البلهاء ، بيد أنى لم أصدق هذا القول لأننى جربته بنفسى مرات كثيرة فالنحل لم يلدغنى مع اننى لست غبيا ! .

وكنت قد سمعت عن بعض هذه الأشياء من قبل ولكنى لم أكن قد عرفتها جميعا ، أما « جيم » فيعرف كل ذلك ... لقد قال لى انه يعرف كل شيء تقريبا عن علامات الحظ والنحس . فقلت له انه يخيل لى ان جميع هذه العلامات تقتصر على سوء الحظ ، وسألت ان كانت هناك آية علامة على حسن الحظ .

فقال : انها قليلة جدا ، وهى لا تفيد احدا ... اذ ماذا تريد ان تعرف عن الحظ الحسن مادام فى طريقه اليك ؟ هل تريد أن تصده عنك ؟

ثم قال : اذا كان ذراعاك غزيرى الشعر ، وكذلك صدرك ، فان ذلك علامة على أنك ستصبح ثريا ! ولا شك فى ان معرفة مثل هذا الفال الحسن أمر مفيد لأنه يكشف عن المستقبل البعيد ... فقد تظل فقيرا وقتا طويلا ، وربما تملكك اليأس فتقدم على الانتحار ، لو لم تنبئك هذه العلامة بأنك ستصبح ثريا بعد حين !!

ـ وهل ذراعاك وصدرك غزار الشعر يا جيم ؟

ـ ما الفائدة من القاء هذا السؤال على ؟ الا ترى ان ذراعى وصدرى غزار الشعر ؟

ـ حسنا ... وهل أنت ثرى ؟

ـ لا ... ولكنى كنت ثريا فى أحد الأيام ، وسأصبح كذلك فى المستقبل ... لقد كنت أملك أربعة عشر دولارا ولكنى خسرتها فى التجارة .

ـ فيم تاجرت يا « جيم » ؟
ـ حسنا ... لقد تاجرت فى الماشية أول الأمر .
ـ أى نوع من الماشية ؟
ـ الماشية الحية ! ! ... القطعان كما تعلم ... فقد ضاربت بعشرة دولارات على بقرة ... ولكنى لن اجازف بنقودى فى الماشية ، فقد ماتت البقرة بين يدى .
ـ اذن فقد فقدت عشرة دولارات .
ـ كلا ، لم افقدها كلها ، وانما فقدت تسعة منها ، فقد بعت جلد البقرة الميتة بدولار وعشرة سنتات !!
ـ اذن فقد تبقى لديك خمسة دولارات وعشرة سنتات ... وهل تضارب الآن ؟
ـ نعم ، انك ولا شك تعرف الزنجى الأعرج الذى يملكه مستر براديش الكهل ؟ ... لقد انشأ مصرفا ، وهو يقول ان كل شخص يودع دولارا فى هذا المصرف يحصل على أربعة دولارات فى نهاية العام ... ولقد ساهم جميع الزنوج فى هذا المصرف ولكنهم لا يملكون نقودا كثيرة ، وكنت انا الوحيد الذى يملك هذا القدر من النقود ، ومن ثم تمسكت بالحصول على أكثر من أربعة دولارات وقلت اننى اذا لم احصل على بغيتى فسأفتح مصرفا ! وكان هذا الزنجى يريد ابعادى عن مثل هذا العمل ، فقال ان الأمر لايتسع لمصرفين ، وقال اننى أستطيع ان أودع دولاراتى الخمسة فى مصرفه ، وانه سيدفع لى خمسة وثلاثين دولارا فى نهاية العام !!

فاعطيته المال ، وانا أعتقد اننى سوف أستثمر الخمسة والثلاثين دولارا بمجرد حصولى عليها ، وأدع الأمور تجرى فى اعنتها .. وكان هناك زنجى اسمه بوب حصل على كوخ خشبى بغير علم من سيده ، فاشتريته منه على ان يحصل على الدولارات الخمسة والثلاثين فى نهاية العام ، ولكن شخصا ما سرق الكوخ الخشبى

أثناء الليل . وفى اليوم التالى قال لى الزنجى الأعرج ان المصرف قد أفلس ، وهكذا لم يحصل أحد منا على نقوده ! !

وكان الحزن باديا على « جيم » فقلت له :

ـ لا تحزن يا « جيم » . . فسوف تصبح ثريا فى أحد الأيام .

فقال « جيم » :

ـ صدقت . . والحق أننى ثرى . . فأنا سيد نفسى الآن . . بل اننى أساوى ثمانمائة دولار كانت الآنسة واطسون تستطيع أن تبيعنى بها !. . وانه لمبلغ كبير لا تهفو نفسى الى أكثر منه ! !

الفصل التاسع

الكهف – المنزل العائم – غنيمة كبيرة .

أعربت لجيم عن رغبتى فى رؤية مكان معين فى منتصف الجزيرة تقريبا ، كنت قد عثرت عليه أثناء قيامى بعملية الاستكشاف . ومن ثم فقد مضينا اليه وسرعان ما بلغناه ، لأن طول الجزيرة لم يكن يتجاوز ثلاثة أميال،كما أنعرضها لم يكن يتجاوز ربع ميل .

وكان ذلك المكان عبارة عن تل عميق شديد الانحدار أوأخدود يبلغ ارتفاعه حوالى أربعين قدما ، ولقد لاقينا عناء شديدا حتى تمكنا من الوصول الى القمة لشدة انحدار جوانب التل وكثافة الأعشاب النامية فوقه . وأخذنا نرتاد التل مستكشفين . ولم نلبث أن عثرنا على كهف كبير بين الصخور عند قمة التل تقريبا من ناحية « الينوى » . وكانت مساحة هذا الكهف تعادل مساحة غرفتين أو ثلاث غرف فسيحة ، وكان فى استطاعة « جيم » أن يقف فيه منتصبا . أما الطقس بداخله فكان رطبا ، وكان من رأى جيم أنه يحسن بنا أن ننقل أمتعتنا الى الكهف بدون ابطاء ، ولكنى قلت ان الصعود الى التل والهبوط منه يستغرقان وقتا طويلا .

وقال « جيم » اننا اذا استطعنا اخفاء القارب فى مكان آخر واحتفظنا بأمتعتنا فى الكهف ، فاننا نستطيع الرحيل بسرعة اذا جاء أحد الى الجزيرة ، وان أحدا لن يستطيع العثور علينا الا اذا

استعان بالكلاب . ثم قال أن الطيور حين حلقت فوق رأسنا كانت تنذرنا بأن السماء ستمطر .. وعلى ذلك يحسن بنا أن نختفى فى الكهف حتى لا تبتل أمتعتنا .

وهكذا عدنا أدراجنا الى القارب ورحنا نجدف حتى بلغنا نقطة محاذية للكهف ثم نقلنا جميع أمتعتنا اليه ، وبحثنا عن مكان قريب لنخفى القارب فيه بين أشجار الصفصاف المتشابكة . وبعد أن اصطدنا بعض السمك أعدنا وضع « السنانير » فى الماء وبدأنا نتأهب لاعداد الطعام .

وكان باب الكهف واسعا الى درجة تكفى لدحرجة برميل كبير من خلاله ، وعلى احد جانبى الباب ، كانت أرض الكهف بارزة قليلا ومسطحة بحيث تصلح لانشاء موقد عليها ، وقد انشأناه فعلا وطهونا الطعام .

وبسطنا البطاطين على الأرض ــ كما لو كانت سجادة ــ وتناولنا طعامنا فوقها ، ثم وضعنا جميع أمتعتنا فى مؤخرة الكهف حتى تكون فى متناول أيدينا . وبعد قليل اظلمت الدنيا ، وبدأ الرعد يهزم والبرق يومض ، فبادرت الطيور بالفرار ، ثم أخذ المطر ينهمر بغزارة شديدة ، وراحت الريح تقصف بعنف لم يسبق لى أن شاهدت مثله .. كانت عاصفة من عواصف الصيف الدورية ، وكان الفضاء خارج الكهف شديد الظلام ، أما الأشجار فكانت تبدو ــ والامطار تكتسحها اكتساحا ــ مثل نسيج العنكبوت ، وكانت الريح لا تلبث أن تشتد ، فتمايلت الأشجار وتساقطت أوراقها وتشابكت أغصانها . وكلما اشتد الظلام حلكة ، أومض البرق وتألقت الدنيا نورا . ثم لا يلبث الدنيا أن تغرق فى الظلام الحالك ، ثم يفرقع البرق محدثا انفجارا يصم الآذان ويدوى بطول السماء وعرضها .

***

واستمر الفيضان فترة تتراوح بين عشرة ايام واثنى عشر يوما حتى فاض ماء النهر على الشاطئين ، فبلغ عمق الماء ثلاث أقدام أو اربعا فى الأماكن المنخفضة من الجزيرة وفى قاع «الينوى» . وكان الشاطىء متسعا عدة اميال على هذا الجانب ، ولكنه كان بعرض الجزيرة من ناحية نهر الميسورى ـ نصف ميل فقط ـ وكان شاطىء الميسورى عبارة عن جدار من الصخور المرتفعة .

وكنا نركب القارب فى النهار وندور حول الجزيرة ، وكنا نرتاد الغاب فنسير بين الأشجار . وكانت الكروم تتشابك فى بعض الأماكن فتسد الطريق ، فنضطر الى العودة من حيث جئنا لنبحث عن طريق آخر . ولكنا كنا نرى فى كل شجرة قديمة محطمة كثيرا من الأرانب والثعابين وما شابهها ، فاذا ما اغرق فيضان النهر الجزيرة يوما أو يومين استأنست هذه الحيوانات بسبب الجوع ، وهكذا يمكنك ان تركب القارب وتجدف نحوها وتمسك بها جميعا الا الثعابين والسلاحف البحرية ـ لأنها تبادر بالانزلاق تحت الماء ! وكانت حافة التل التى يوجد فيها كهفنا مملوءة بهذه الحيوانات ، ومن ثم كان فى استطاعتنا أن نحصل على عدد كبير من الحيوانات الأليفة متى شئنا .

وذات ليلة ، استطعنا أن نعثر على افريز خشبى مصنوع من الواح خشب الصنوبر الجميلة . وكان عرضه اثنتى عشرة قدما وطوله حوالى خمس عشرة او ست عشرة قدما ، وكان سطحه يعلو عن سطح الماء حوالى ست أو سبع بوصات وكأنه قطعة من الأرض الصلبة . وكنا نرى كثيرا من كتل الأخشاب الطافية فوق سطح الماء فى بعض الأحايين ، ولكننا كنا نتركها تمضى فى طريقها . لأننا كنا نحرص على عدم الظهور فى النهار .

وفى ليلة اخرى ، بينما كنا واقفين عند رأس الجزيرة قبل طلوع النهار مباشرة ، رأينا منزلا سائرا (متحركا) مع التيار على

الجانب الغربى من النهر ، وكان المنزل خشبيا مكونا من طابقين ، وكان مائلا بدرجة كبيرة ، فركبنا القارب ولحقنا به ثم تسلقناه ودخلنا فى نافذة علوية ، ولـكن الظلام كان لا يزال حالكا بحيث تستحيل معه الرؤية ، فربطنا القارب الى المنزل العائم وانتظرنا طلوع النهار .

وبدأ النهار فىالطلوع قبل أن نصل الى طرف الجزيرة . وعندئذ تطلعنا من النافذة واستطعنا أن نرى سريرا ومنضدة ومقعدين قديمين وأشياء أخرى كثيرة مبعثرة على الأرض . وكانت هناك ملابس معلقة فوق الجدار ، كما كان هناك شيء ممدد فوق الأرض فى الركن البعيد . وكان هذا الشيء على هيئة رجل ! فصاح به جيم :

ــ يا هذا ...

ولكن الرجل لم يتحرك ، فصحت أناديه ، وعندئذ قال جيم :

ــ ان الرجل ليس نائما ، انه ميت .. الزم الهدوء وسأذهب لأتبين جلية الأمر .

وتقدم من الرجل ، وانحنى فوقه ، وتطلع اليه ثم قال :

ــ انه رجل ميت ، نعم ميت ، وهو عار أيضا ، لقد أطلق الرصاص عليه من الخلف ، وأكبر ظنى أنه مات منذ يومين أو ثلاثة أيام ، تعال يا « هاك » ، ولكن لا تنظر الى وجهه لأن منظره مخيف .

ولم أنظر الى وجهه .. وألقى جيم فوقه بعض الخرق القديمة . ولم أر سببا يدعو الى اخفاء وجه الرجل الميت لأننى لم أكن راغبا فى النظر الى وجهه .. وكانت هناك أكداس من أوراق اللعب القذرة مبعثرة فوق الأرض ، وزجاجات خمر قديمة ، وقناعان مصنوعان من قماش أسود اللون ؛ وفوق الجدران نقشت كلمات غير مفهومة وصور سيئة الرسم مرسومة بالفحم ، وكان هناك

ثوبان قديمان من « الدبلان » ، وقبعة شمس صغيرة ، وبعض ثياب نسائية داخلية معلقة فوق أحد الجدران ، وبعض ثياب الرجال أيضا . ولقد نقلنا جميع هذه الأشياء الى القارب لعلها تنفعنا فى المستقبل . وعثرت على قبعة غلام قديمة من القش المنقوش ملقاة على الأرض فأخذتها ، وكانت هناك أيضا زجاجة بها آثار لبن ، ولها سدادة من القماش ليرضع منها طفل ، وكدنا نهم بأخذ هذه الزجاجة لولا أننا وجدناها « مكسورة » . وكان هناك كذلك صندوق عتيق وحقيبة قديمة محطمة « المفصلات » . وكان الصندوق والحقيبة مفتوحتين ، ولم يكن بهما شيء يستحق الذكر . وعلى أية حال فقد استخلصنا من منظر تلك الأشياء المبعثرة أن سكان المنزل هجروه على عجل ولم يكونوا مستعدين لنقل معظم أمتعتهم ! !

وحصلنا على مصباح عتيق من الصفيح ، وسكين جزار بدون مقبض ، وسكين جديدة تساوى دولارين فى أى حانوت ، وعدد من الشمعدانات الملطخة بالشمع ، وفنجان من الصفيح ، ولحاف قديم كان ملقى على الأرض ، وكيس صغير ، وابر ، وشمع عسل ، وأزرار ، ودبابيس ، وخيط ، وقادوم صغير ، وبعض المسامير ، وسنارة قطرها كقطر اصبعى الخنصر بها شص عجيب المنظر ، وياقةمنشاة ، وحدوةحصان ، وبعضزجاجات منالدواء لا تحمل بطاقات تدل عليها . وبينما كنا نتأهب للانصراف عثرت على فرشاة ، كما عثر « جيم » على ساق خشبية ، كانت سيورها مقطوعة ولكنها كانت ساقا صالحة للاستعمال وان كانت طويلة بالنسبة الى وقصيرة بالنسبة لجيم . غير أننا لم نعثر على الساق الأخرى رغم أننا بحثنا عنها فى كل مكان .

وهكذا نقلنا كل هذه الأشياء الى القارب ، وبذلك ربحنا غنيمة كبيرة . وعند ما كنا على استعداد للرحيل ، تبين لنا أننا ابتعدنا

ميلا عن جنوب الجزيرة وأن ضوء النهار ساطع جدا ، ومن ثم ، فقد جعلت جيم يقبع فى جوف القارب وغطينه باللحـاف لأننى كنت أدرك أنه لو جلس فى القارب لاستطاع الناس أن يميزوا أنه زنجى من بعد كبير .. ووجهت القارب نحو شاطىء « الينوى » . ومضينا حتى بلغنـا منطقة المـاء الهادىء فى أمان وبغير أن نرى أحدا . وهكذا عدنا الى كهفنا سالمين ! !

الفصل العاشر

الثمانيـة دولارات الذهبية ـ « هانك يانكر » العجوز ـ التنكر في زى فتاة .

ما كدنا نفرغ من تنـاول طعام الافطار حتى أبديت رغبتى فى التحدث عن الرجل الميت والتكهن بكيفية قتله ، ولكن جيم رفض قائلا ان ذلك يجلب لنا النحس ، وان حديثنا عن القتيل خليق بأن يجعله يحوم حولنا لأن روح الرجل الذى يموت ولا يدفن تكون أكثر قلقا من روح الرجل الذى يدفن ويستقر فى قبر . وبدا لى قوله معقولا ، فامتنعت عن الـكلام فى هذا الموضوع ، ولـكنى لم أستطع أن أكف عن التفكير فيه ، وأنا أتمنى أن أعرف من الذى أطلق الرصاص عليه والسبب الذى حدا بالقاتل الى قتله !

وأخذنا نتفحص الملابس التى حصلنا عليها ونفتشها ، فعثرنا على ثمانية دولارات ذهبية مخبأة فى بطانة معطف مصنوع من بطانية قديمة ، وقال جيم انه يظن أن سكان المنزل « العائم » الذى عثرنا فيه على هذه الأشياء سرقوا هذا المعطف لأنهم لو كانوا يعرفون أن بداخله نقودا لما تركوها ، فقلت : اننى أعتقد أن جريمة القتل ارتكبت لذلك الغـرض ، ولـكن جيم رفض الحـديث فى هـذا الموضوع ، فقلت :

ـ انك تظن أن مثل هـذا الحديث يجلب النحس ، ولكن هل تذكر ما قلته لى عندما أحضرت جلد الثعبان الذى عثرت عليه عند حافة النهر أول أمس ؟ لقد قلت ان من أسوأ الأمور التى تجلب سوء الحظ أن ألمس جلد ثعبان بيدى . حسنا ... ها هو النحس الذى تحدثت عنه ... لقد حصلنا على كل هذه الغنيمة فضلا عن ثمانية دولارات ... لكم أتمنى لو حاق بنا سوء حظ مماثل كل يوم يا جيم .

ـ لا تشغل بالك يا عزيزى ... لا تكن متسرعا ، فان النحس مقبل لا شك فى ذلك ... وسوف تتذكر كلماتى هذه عند ذاك .

ولقد أقبل النحس فعلا ... دار حديثنا هذا فى يوم الثلاثاء ؛ وفى مساء يوم الجمعة تناولنا طعام العشاء ، ثم تمددنا فوق الحشائش وخطر لى أن أذهب الى الكهف لأحضر شيئا . وهناك وجدت ثعبانا ذا أجراس فقتلته بسهولة ولففته ووضعته عند حافة البطانية التى ينام « جيم » عليها وأنا أتوقع أن يكون ذلك دعابة لطيفة لجيم عند ما يتهيأ للنوم ، وعند ما حان موعد النوم كنت قد نسيت كل شىء عن الثعبان الميت . وعند ما ألقى « جيم » بنفسه فوق البطانية كانت « أليفة » الثعبان هناك ، وبينما كنت أضىء الشمعدان عضت الحية « جيم » .

ووثب « جيم » فى الهواء وهو يصرخ ، وما كاد الضوء يملأ المكان حتى ألفيت الأفعى السامة تتهيأ لوثبة جديدة ، فقتلتها بعصا غليظة ، بينما جذب جيم ابريق أبى المملوء بالشراب وبدأ يجرع ما فيه .

كان « جيم » حافى القدمين ، ولهذا عضته الأفعى فى كعبه ، ولقد حدث ذلك نتيجة لحماقتى وعدم تذكرى أنه أينما يكون الثعبان الميت فان « أليفته » تسعى اليه وتلف نفسها حوله ، وطلب « جيم » منى أن أفصل رأس الحية وأن ألقيها بعيدا ، ثم

أنزع قطعــة من جلد الأفعى وجسـمها وأشويها ، ففعلت ذلك . وعندئذ أخذ القطعة وأكلها وهو يقول ان ذلك يساعد على شفائه. ثم جعلنى أقطع الأجراس وأربطها حول معصــمه قائلا ان ذلك يساعد أيضا على شفائه ، وبعدئذ تسللت من الكهف بهدوء وألقيت بقايا الثعبان والأفعى بعيدا بين الحشائش ، اذ كنت أبغى ألا يعرف جيم اننى المخطىء ، ما دمت أستطيع أن أحول بينه وبين معرفة ذلك بالتخلص من الثعبان !

وراح جيم يجرع ما فى ابريق الشراب رويدا رويدا ، وكاد يفقد اتزانه بين الحين والحين فيتدحرج على الأرض وهو يصرخ صراخا مخيفا ، ولكنه كان لا يلبث أن يتغلب على آلامه ويستأنف احتساء الشراب . ولقد تورمت قدمه ورجله تورما شديدا ، ولكن الشراب أحدث تأثيره ، فأيقنت أن جيم لن يلبث أن تتحســن حاله ، مع اننى كنت أفضل أن يلدغنى ثعبان على أن يستهلك شراب أبى !!

وظل « جيم » طريح الفراش أربعة أيام ، ثم لم يلبث الورم ان اختفى ، واستعاد الزنجى قواه ، وعندئذ قررت ألا ألمس جلد ثعبان مرة أخــرى بعد أن رأيت ما ترتب على ذلك من نتيجــة . أما جيم فقد قال انه يجدر بى أن أصدق ما يقوله لى فى المرة التالية. وأضاف ان للمس جلد الثعبان نتائج وخيمة العاقبة ، وانه يفضل أن يرى القمر ألف مرة من فوق كتفه الأيسر على أن يلمس جلد ثعبان بيده ! ولقد بدأت أومن بهذا الرأى أيضــا رغم اننى كنت أعتقد دائما ان التطلع الى القمــر من فوق الكتف الأيسر من أكثر الأعمال التى يأتيها الانسان دلالة على الاهمال والحماقة . ولقــد فعل « هانك بانكر » العجوز ذلك ذات مرة ، وكان يتفاخر به . وفى أقل من عامين مات على أثر افراطه فى الشراب فدفنوه بين بابى « شونة » جعلوا منهما تابوتا . . . هكذا قالوا ، لأننى لم أر الحادث بنفسى ، وانما سمعت هذه التفاصيل من أبى ، ومهما يكن

من أمر ، فان هذا الحادث كان نتيجة تطلع الرجل الى القمر بهذه الطريقة الحمقاء !

ومرت الأيام ، وانخفض منسوب ماء النهر بين ضفتيه مرة أخرى ، وكان أول شيء فعلناه ، أننا نصبنا فخا اصطدنا به سمكة فى حجم رجل ، طولها ست أقدام وبوصتان وزنتها أكثر من مائتى رطل ، ولم نستطع أن نقترب منها فى بادىء الأمر ، فتركناها تحاول التخلص من الشص الى أن استنزفت قواها واستسلمت. وعثرنا فى جوفها على زرار نحاسى وكرة وكثير من القمامة . وفتحنا الكرة بالقادوم فوجدنا بداخلها « بكرة » ، وقال جيم أنه كان يملك هذه « البكرة » منذ أمد طويل وكان يريد تغليفها ليصنع منها كرة ، أما السمكة فكانت أضخم من أية سمكة اصطدناها من قبل فى نهر المسيسبى . وقال جيم انه لم ير سمكة على هذه الضخامة وانها تساوى مبلغا كبيرا لو عرضت للبيع فى القرية ، فان الصيادين يذهبون بمثل هذه السمكة الى « حلقة » السمك حيث يبيعونها هناك بالرطل ، فيبتاع كل شخص جزءا منها لأن لحمها أبيض كالثلج وطعمها لذيذ عند القلى !

وفى صباح اليوم التالى قلت ان الحياة قد أصبحت بطيئة مملة واننى أريد أن أفعل شيئا مثيرا ، وقلت اننى سأعبر النهر لأعرف ماذا يحدث فى المدينة ، وأعجب جيم بهذه الفكرة ولكنه قال انه يجب على أن أذهب فى الظلام وأن أكون على حذر ، ثم فكر فى الأمر مليا وسألنى اذا كنت أستطيع أن أرتدى بعض الثياب النسائية العتيقة التى عثرنا عليها لأبدو فى شكل فتاة . وأعجبتنى الفكرة بدورى ، فبادرنا بتقصير أحد الثوبين المصنوعين من « الدبلان » ثم ثنيت طرفى بنطلونى الى ما فوق ركبتى وارتديت الثوب ، وأغلقه جيم من الخلف بالمشابك ، فاذا به يلائمنى تماما . ووضعت قبعة الشمس فوق رأسى ، وربطتها أسفل ذقنى فأخفيت معالمه.

وقال جيم ان أحدا لن يعرفني حتى في ضوء النهار . وظللت أتمرن على أداء دوري الجديد طوال النهار ، ولكن جيم قال أنني لا أمشي مشية فتاة وان على ألا أرفع ثوبي كلما أردت وضع يدي في جيب بنطلوني ، وحرصت على تذكر هذه النصيحة ، وبذلك أجدت الدور .

وعند ما أرخى الليل سدوله ركبت القارب ومضيت الى شاطىء « ألينوى » .

وعبرت النهر في طريقي الى المدينة من منطقة الى الجنوب قليلا من مرسى الزوارق ، وساعدني اتجاه التيار على الوصول الى طرف المدينة ، وشددت قاربي الى الشاطىء ، وبدأت رحلتي فرأيت ضوءا ينبعث من كوخ صغير ظل مهجورا أمدا طويلا ، فتساءلت عمن يكون قد اتخذ له من هذا الكوخ مسكنا ، وتسللت الى الكوخ واختلست النظر من النافذة فرأيت امرأة في حوالي الأربعين من عمرها منهمكة في شغل الابرة على ضوء شمعة مثبتة فوق منضدة من خشب الصنوبر . ولم أعرف وجهها ، اذ كانت غريبة على ، فقد كنت أعرف وجوه جميع من في المدينة . وكان ذلك من حسن حظي ، اذ أنني كنت قد بدأت أضعف ، فقدتملكني الخوف من اقدامي على المجيء خشية أن يعرف الناس صوتي ويكشفوا أمري ، أما اذا كانت هذه المرأة قد جاءت الى المدينة الصغيرة منذ يومين ، فان في استطاعتها أن تقول لي كل ما أريد معرفته دون أن تعرفني ... وطرقت الباب ، وحزمت أمري على ألا أنسى أنني فتاة ! !

الفصل الحادي عشر

((هاك)) والسيدة ـ البحث ـ المراوغة ـ الذهاب الى ((جوشـــن)) ـ انهم فى أثرنا

قالت المرأة : ادخل . . . فدخلت

ثم قالت : اجلسى . . . ففعلت

وتطلعت الى بعينيها الصغيرتين المتألقتين ، ثم قالت :

ما اسمك ؟

ــ سارة ويليامز

ــ وأين تقيمين ؟ أفى هذه المنطقة ؟

ــ كلا يا سيدتى . اننى أقيم فى ((هوكرفيل)) التى تبعد سبعة أميال عن هنا ، ولقد قطعت هذه المسافة سيرا على قدمى ، ولذلك فاننى متعبة أشد التعب .

ــ وجائعة أيضا فيما أظن ؟ سأبحث لك عن شىء تأكلينه

ــ كلا يا سيدتى . لست جوعانة ، فقد عرجت على مزرعـــة تبعد ميلين من هنا وأكلت هنـــاك . ولذلك فاننى لم أجع بعد ، وهذا هو السبب فى أنى تأخرت الى هذه الساعة . ان أمى مريضة ، ومفلسـة . ولقد جئت لأقول ذلك لعمى ((آبنى مور)) الذى يقيم فى الجانب الآخر من المدينة كما قالت لى أمى ، ولو أننى لم آت الى هذه المنطقة من قبل ، فهل تعرفينه ؟

ـ لا . . . انني لا أعرف كل انسان هنا لأنني لم آت للاقامة فى هذا المكان الا من حوالى أسبوعين . . . ثم ان المسافة الى الجانب الآخر من المدينة طويلة ، وخير لك أن تقضى الليلة هنا . . . اخلعى قبعتك .

فقلت : كلا . . . سأستريح قليلا ثم أستأنف رحلتى ، فانني لا أخشى الظلام .

فقالت لى : انها لن تدعنى أذهب بمفردى ، وان زوجها لن يلبث أن يعود بعد ساعة أو ساعة ونصف فترسله معى . ثم بدأت تتحدث عن زوجها وعن أقاربها المقيمين على شاطىء النهر عند طرف المدينة الشمالى ، والآخرين المقيمين عند الطرف الآخر ، وعن مدى الثراء الذى كانوا ينعمون به ، وكيف انهم اكتشفوا فيما بعد أنهم أخطأوا حينما قدموا الى هذه المدينة ، وأنه كان يجدر بهم أن يتخلوا عن فكرة الهجرة الى المدينة ، وهلم جرا ، حتى بدأت أخشى أن أكون قد أخطأت بمجيئى اليها طمعا فى معرفة ما يدور فى المدينة . ولكنها لم تلبث أن تحدثت بعد قليل عن أبى وجريمة القتل . وعندئذ قررت أن أجعلها تثرثر كما تشاء . حدثتنى عن عشورى و « توم سوير » على الستة آلاف دولار (ولكنها قالت انها عشرة آلاف !) ، وعن كل ما يتعلق بأبى وكيف أنه رجل صعب المراس وعن صعوبة مراسى أيضا ، ثم تطرقت الى الحديث عن جريمة قتلى . فقلت : من الذى ارتكب الجريمة ؟ . . لقد سمعنا أقوالا كثيرة عن هذه الأحداث فى « هوكرفيل » . . . ولكننا لا نعرف من الذى قتل « هاك فن » .

ـ حسنا ، أعتقد أن أشخاصا كثيرين فى هذه المدينة يتوقون الى معرفة من قتله . ويظن البعض أن أباه « فن » العجوز هو الذى ارتكب الجريمة .

ـ أحقا ؟ . . .

ـ لقد ظن كل شخص تقريبا ذلك فى بادىء الأمر ، وكاد الرجل يروح ضحية هذه الريبة ، ولكن الناس ما لبثوا أن عدلوا عن هذا الاتهام قبل حلول الظلام ، ورجحوا أن القاتل زنجى هارب اسمه جيم .

ـ انه . . .

وأمسكت عن الكلام ، فقد أيقنت أن من الأفضل أن ألوذ بالصمت واستأنفت السيدة الحديث بغير أن تلاحظ أننى قاطعتها .

قالت : لقد هرب الزنجي فى الليلة ذاتها التى قتل فيها « هاكلبرى فن » . ولهذا أعلن عن دفع مكافأة قدرها ثلاثمائة دولار ، لمن يقبض عليه . وهناك مكافأة أيضا لمن يقبض على الأب « فن » قدرها مائتا دولار . فقد جاء الى المدينة فى صباح اليوم التالى لارتكاب الجريمة ، وأفضى بنبأها ، كما رافق الباحثين عن جثة ابنه فى الناقلة النهرية ، ولكنه لم يلبث أن اختفى بعد ذلك . وكان البوليس يريد استجوابه قبل حلول المساء ولكنه كان قد هرب . وفى صباح اليوم التالى اتضح أن الزنجى قد هرب ، وتبين أن أحدا لم يره منذ الساعة الثامنة من الليلة التى ارتكبت الجريمة فيها، فاتهموه بارتكابها ، وبينما كان الجميع يؤمنون بصدق هذا الظن ، عاد فى اليوم التالى وأثار زوبعة عاتية مع القاضى « تاتشر » مطالبا اياه باعطائه نقودا ليستعين بها على مطاردة الزنجى فى جميع أنحاء « ألينوى » . وأعطاه القاضى بعض المال ، وفى تلك الليلة أسرف العجوز فى شرب الخمر وأخذ يتجول فى المدينة الى ما بعد منتصف الليل مصطحبا رجلين غريبين تثير هيئتهما الريبة ثم اختفى معهما، ولم يعد منذ ذلك الحين . ولكنهم لن يبحثوا عنه الا بعد أن تهدأ الزوبعة قليلا ، اذ أن الناس يظنون الآن أنه قتل ابنه بطريقة تجعل الجميع يظنون أن لصوصا هم الذين ارتكبوا الجريمة ، وبعدئذ يمكنه المطالبة بثروة هاك بغير حاجة الى الالتجاء للقضاء واجراءاته

الطويلة . . . ويقول الناس انه غير صالح لأداء هذا العمل . وانى أعتقد أنه شديد المكر ، فاذا لم يعد قبل عام ، فان ذلك سيجعله بمنجاة من الخطر لأن أحدا لن يستطيع اثبات الاتهام عليه بعد أن تكون جميع الأدلة قد تلاشت ، ومن ثم يستطيع الحصول على ثروة « هاك » بكل سهولة .

ــ أعتقد أن الأمر كذلك . فلست أرى مأخذا فى هذا الرأى . . . لكن هل صرف الجميع النظر عن اتهام الزنجى ؟

ــ أوه . كلا . ليس كل شخص يعتقد ذلك ، فان كثيرين ما زالوا يظنون أنه القاتل ، ولكنهم سوف يظفرون به عاجلا ؛ بل لعلهم يستطيعون ادخال الفزع فى قلبه فيضطرونه الى الظهور .

ــ ولكن لماذا يبحثون عنه حتى الآن ؟

ــ حسنا . . . انك فتاة بريئة . . . أليس كذلك ؟ هل تظنين أن الناس تتاح لهم كل يوم فرصة ربح ثلاثمائة دولار ؟ ان بعض الناس يظنون أن الزنجى ليس بعيدا من هنا ، وأنا واحدة منهم ولكنى لم أذع هذا الرأى . ومنذ أيام قليلة كنت أتحدث مع زوجين طاعنين فى السن يقيمان فى كوخ خشبى مجاور ، وقد اتفق أن قالا ان أحدا لا يذهب الى تلك الجزيرة التى يطلقون عليها اسم جزيرة جاكسون ، فسألتهما : « ألا يقيم بها أحد ؟ » . . . فأجابا : « كلا . . . لا أحد » . . . فلم أقل لهما شيئا آخر ولكننى فكرت فى الأمر مليا ، وكنت شبه واثقة من أننى رأيت دخانا يتصاعد من عند رأس الجزيرة قبل ذلك الحديث بيوم أو اثنين ، فتساءلت ألا يجوز أن يكون الزنجى مختبئا فى هذه الجزيرة وأن من الحكمة تفتيشها ؟ ولكنى لم أر دخانا بعد ذلك ، فلعله رحل عن الجزيرة اذا كان هو الذى أشعل النار فى تلك الليلة ، ولكن زوجى سيذهب لاستجلاء حقيقة الأمر ومعه رجل آخر . لقد ذهب الى النهر

ولكنه عاد اليوم فحدثته بما يساورنى من شكوك بمجرد عودته الى هنا منذ ساعتين .

وانتابنى القلق ، ولم أستطع أن ألزم الهدوء . وكان لابد لى من أن أفعل شيئا بيدى ، فالتقطت ابرة من فوق المائدة ، وحاولت أن أدخل الخيط فى ثقبها . ولكن يدى كانتا ترتعشان فلم أوفق فيما حاولته . وعند ما كفت المرأة عن الكلام رفعت عينى اليها فألفيتها تتأملنى باهتمام وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة، فوضعت الابرة والخيط فوق المنضدة وتظاهرت بالاصغاء الى حديثها ، وقلت :

ــ ان ثلاثمائة دولار مبلغ كبير . لكم أود لو تستطيع أمى الحصول عليه ، هل سيذهب زوجك الى الجزيرة الليلة ؟

ــ أوه ... نعم لقد ذهب الى المدينة ومعه الرجل الذى حدثتك عنه للحصول على قارب ، ولمحاولة اقتراض بندقية أخرى ... وسيذهبان الى الجزيرة عند منتصف الليل .

ــ ألا تكون الرؤية أوضح اذا انتظرا حتى مطلع النهار ؟

ــ نعم ، ولكن ألا يستطيع الزنجى أيضا أن يرى فى ضوء النهار أفضل مما يرى فى الليل ؟ ومن الأرجح أنه سيكون مستغرقا فى النوم بعد منتصف الليل ، ومن ثم ستتاح للرجلين فرصة أفضل لرؤية النار التى يشعلها الزنجى فى الظلام ان كان سيشعل نارا .

ــ ان ذلك لم يخطر ببالى .

واستمرت المرأة تتأملنى باهتمام ، فازداد قلقى .. وسرعان ما قالت :

ــ نسيت اسمك .. ما اسمك يا حبيبتى ؟

ــ م ... مارى ويليامز .

وخيل الى أننى لم أقل أن اسمى مارى فى المرة السابقة . ولذلك لم أنظر الى محدثتى ، وبدا لى اننى قلت ان اسمى ساره ،

ولهذا أدركت انني أوقعت نفسي في مازق حرج ، وختسيت أن يفضحني ارتباكي . وتمنيت لو استأنفت المرأة الحديث لأنها كلما استغرقت في الصمت زاد ذلك من قلقي وارتباكي .. وبعد قليل قالت :

ــ لقد ذكرت لي يا حبيبتي أن اسمك سارة عند ما سألتك عنه في المرة السابقة .

ــ أوه ، نعم يا سيدتي .. ان اسمي ساره ماري ويليامز . ان ساره هو اسمي الأول ، والبعض يطلقون على اسم سارة بينما يطلق على البعض الآخر اسم ماري .

ــ أوه ... هذا معقول .

ــ نعم يا سيدتي .

وبدأت أشعر بشيء من الارتياح ، ولكني تمنيت أن أتمكن من الانصراف ، ولم أستطع أن أتطلع الى السيدة خشية افتضاح أمري .

واستأنفت السيدة الحديث ، فأخذت تردد أن الوقت عصيب وأن الناس يعيشون في فقر مدقع ، وأن الفئران تتجول في الكوخ كما لوكانت هي مالكته ، وهلم جرا .. وعندئذ عاودني الارتياح ، فقد كان ما قالته السيدة عن الجرذان صحيحا لأنني رأيت جرذا يبرز أنفه من جحر في ركن الكوخ بين آونة وأخرى . وقالت انها تضطر الى الاحتفاظ ببعض الأشياء لتقذفهم بها عند ما تكون وحدها والا فانهم لن يجعلوها تشعر بسلام . وأمسكت بقضيب من القصدير ملفوف على شكل أنشوطة وقالت انها تجيد الرماية به ولكن ذراعها التوى منذ يومين وانها لم تعد تعرف أن كانت تجيد الرماية الآن أم لا ، وتترقب فرصة للتحقق من ذلك ... وفي اللحظة التالية رفعت المرأة القضيب وقذفت الجرذ به ولكنها أخطأته . وتأوهت لأن المجهود آلم ذراعها كثيرا .. وطلبت مني

أن أجرب اصابة الجرذ فى المرة التـالية ، ولكنى كنت أتلهف على الانصراف قبـل أن يعود زوجها وان كنت لم أصارحها بذلك ، وأمسكت بالقضـيب وما كاد أول جرذ يبرز أنفـه حتى قذفته بالقضيب .. ولو أن الفـأر لزم مكانه لأصيب ولكنه لم يفعل . وقالت المرأة اننى رامية ماهرة وانها تقترح على أن أحاول ذلك مرة أخرى ، ونهضت وأحضرت قضيب القصدير كما أحضرت « كرة » من الخيط وطلبت منى أن أساعدها فى اعدادها لشـغل الابرة ، فبسطت لها يدى فأخذت تلف الخيط حولهما ، ومضت تتحدث عن شئونها وشئون زوجها ، ثم قالت فجأة :

ــ راقبى الجرذان ! يحسن بك أن تضعى قطعة القصـدير فى حجرك !

ووضعت قطعة القصدير فى حجرى ، وضممت فخذى حولها. واستمرت السيدة فى الحديث ، ولـكنها كفت عنه بعد لحظات . ثم حدقت فى وجهى بعد أن انتزعت كرة الخيط ، وقالت بلطف :

ــ والآن اخبرينى ما اسمك الحقيقى ؟

ــ ماذا تقولين يا سيدتى ؟

ــ ما اسـمك الحقيقى ؟ هـل هو « بيـل » أو « توم » أو « بوب » .. أو ماذا ؟

أكبر ظنى اننى انتفضت كريشة فى مهب الريح ، ولم أدر ماذا أفعل ، ولكنى قلت :

ــ أرجوك الا تسخرى من فتاة فقيرة يا سيدتى .. اذا كان وجودى يضايقك فاننى ..

ــ كلا .. كلا .. اجلس والتزم مكانك ، فاننى لن أسيء اليك ، كما اننى لن أفضح أمرك .. فقط اذكر لى سرك وثق بى فاننى سأكتمه ، بل وسأمد لك يد المساعدة ، كما سيساعدك زوجى أيضا اذا أردت مساعدته . انك غلام ضائع هارب .. وليس فى

ذلك موضع للمؤاخذة ؛ فقد أسيئت معاملتك فقررت الفرار .. فليباركك الله أيها الصبى .. اننى لن أشى بك ، فهيا حدثنى بأمرك أيها الغلام الطيب .

وأدركت أن من العبث أن أتمادى فى تمثيل دور الفتاة ، وأن من الخير لى أن أفضى الى محدثتى بالحقيقة كلها على شريطة ألا تتراجع فى وعودها ، فقلت لها اننى يتيم مات أبى وأمى ، وأن القانون ألزمنى بالاقامة مع فلاح كهل وضيع فى الريف على مبعدة ثلاثين ميلا من الناحية الجنوبية للنهر ، وأن الفلاح أساء معاملتى فلم أعد أطيق البقاء فى منزله فانتهزت فرصة غيابه عن المنزل لمدة يومين وسرقت بعض ملابس ابنته القديمة وهربت . وقلت لها اننى قطعت مسافة الثلاثين ميلا فى ثلاث ليال لأننى كنت أسير بالليل وأختبىء وأنام بالنهار، أما الحقيبة المملوءة بالخبز واللحم التىأخذتها معى من المنزل فقد كفتنى طوال الطريق ، وما زال معى طعام كثير . وأضفت أننى اعتقد ان « آبنر مور » سوف يعنى بى .. وهذا هو السبب فى اننى جئت الى مدينة « جوشن » هذه .

ـ « جوشن » !.. هذه ليست « جوشن » يا غلام .. انك فى « سانت بيتر سبورج » .. ان « جوشن » على مسافة عشرة أميال شمال النهر . من قال لك ان هذه هى مدينة « جوشن » ؟

ـ رجل قابلته فجر اليوم عند ما كنت أتهيأ لدخول الغابة لأفوز بقسط من النوم .. لقد قال لى أن أسلك الطريق الأيمن عندما أصل الى المكان الذى يتفرع عنده الطريق الذى كنت أتبعه ، فلن ألبث أن أصل الى مدينة « جوشن » بعد خمسة أميال .

ـ أكبر ظنى أنه كان مخمورا ، فقد كان قوله خاطئا .

ـ حسنا ، لقد كان يتصرف كالمخمور ، ولكن لا بأس . ينبغى أن أنصرف الآن حتى أستطيع أن أصل الى « جوشن » قبل طلوع النهار .

ـ مهلا لحظة ، سأعد لك طعاما خفيفا ، فقد تحتاج اليه .

وأعدت لى الطعام ثم قالت :

ـ أخبرنى .. عنــد ما ترقد البقرة فأى طرف من طرفيها يرتفع أولا ؟ أجب سريعا .. لا تتوقف ريثما تفـكر فى الأمر .. أى الطرفين يرتفع أولا ؟

ـ الطرف الخلفى يا سيدتى .

ـ والجواد ؟

ـ الطرف الأمامى يا سيدتى .

ـ أى الجانبين من الشجرة يكون أكثر عرضة لنمو الطحالب عليـــه ؟

ـ الجانب الأيسر .

ـ اذا كانت خمس عشرة بقرة ترعى الكلأ فوق التل فكم عدد الأبقار التى تأكل ورؤسها فى اتجاه واحد ؟

ـ جميعها يا سيدتى .

ـ حســـنا ، أظن أنك عشت فى الريف .. لقد خطر لى أنك تحاول تضليلى ثانية ، والآن ما اسمك الحقيقى ؟

ـ جورج بيترز يا سيدتى .

ـ حسـنا ، حاول أن تتذكره يا جورج .. اياك أن تنساه .. لا تقل لى انه الكسندر قبل أن تنصرف ، ثم تحاول تغطية خطأك فتقول انه جورج الكسندر عند ما أوقع بك ! وثم لاتحاول خداع السيدات بارتداء هذا الثوب النسائى العتيق ، انك تسىء تمثيل دور الفتيـــات ولـكنك قد تخدع الرجال .. فليباركك الله أيها الغلام .. عنــد ما تحــاول أن « تلضم » الابرة لا تثبت الخيط وتحرك الابرة لتدخله فى الثقب ، وانما ثبت الابرة وحاول ادخال الخيط فى الثقب ، فتلك هى الطريقة التى تتبعهـــا المرأة فى أغلب الأحوال . أما الرجل ، فيعمل العكس . وعند ما تحاول اصابة

جرذ أو أى شىء آخر ، قف على أطراف أصـابعك وأرفع يدك فوق رأسك بارتباك بقدر ما تستطيع ثم اخطىء الهدف بحوالى ست أو سبع أقدام ، واجعل الرمية عنيفة من الكتف كما لو كان هناك محور يجب أن تدور حوله ـ فهذا ما تفعله الفتاة ، وليس من المعصم والمرفق وذراعك الى أحد الجانبين كما يفعل الغلام . . وتذكر أن الفتاة تفتح حجرها حينما تحاول أن تحتفظ بشىء فيه وأنها لا تضم فخذيها كما فعلت عند ما التقطت قطعة القصدير . لقد اكتشفت أمرك ، وعرفت أنك صبى عنـد ما كنت (تلضم) الابرة . ولقد استنتجت الأشياء الأخرى للتأكد . . والآن اذهب الى عملك يا « سـارة مارى ويليامز جورج الكسندر بيترز » ! واذا صادفتك أية متاعب ، ابعث بكلمة الى السـيدة « جوديت لوفتاس» التى هى أنا ، وسأبذل ما فى طاقتى لانقاذك من المتاعب . . اسلك طريق النهر باستمرار ، وعند ما تتجول فى المرة القـادمة ارتد جوربا وحذاء لأن طريق النهر صخرى فسوف تدمى قدماك قبل أن تصل الى « جوشن » .

وسرت فى طريق النهر حوالى خمسين ياردة ، ثم نكصت على عقبى وتسللت الى المكان الذى تركت قاربى فيه بالقرب من كوخ السيدة ووثبت بداخله وأطلقته على عجل ، وسرت مع التيـار مسافة كافية فى اتجاه رأس الجزيرة ، ثم عبرت النهر ، وخلعت القبعة لأننى لم أكن بحاجة الى شىء يعوق قدرتى على الابصار . وعند ما توسطت النهر تقريبا سمعت ساعة تدق ، فتوقفت عن التجديف وأصخت السمع . ومع أن صوت دقات الساعة كان ضعيفا فانه بدا لى واضحا ، فعرفت أن الساعة الحادية عشرة ، وعند ما بلغت رأس الجزيرة ، دفعت القارب الى منطقة معسكرى القديم ، وأشعلت نارا كبيرة فوق مكان مرتفع جاف .

ثم وثبت فى القـارب ومضيت الى المنطقة التى نعسكر فيها

والتى تبعد ميلا ونصف ميـــل الى الجنوب بأسرع ما استطعت ،
ووثبت الى البر ، وركضت متســـلقا التل حتى بلغت الـكهف ،
فألفيت « جيم » مستغرقا فى النوم على الأرض ، فأيقظته وقلت :

ـ انهض سريعا يا جيم ، فليست هناك دقيقة يحسن بنا أن نضيعها ، لأنهم يطاردوننا .

ولم يســـتفسر « جيم » عن معنى قولى ، بل انه لم ينبس ببنت شفة ، الا أن تصرفاته خلال النصف الساعة التالى أفصحت لى عن مدى ذعره ، وفى تلك الأثناء كان كل شيء نملكه قد نقل الى العائمة التى عثرنا عليهـــا ، وكانت العائمة ذاتها معدة للابحار من الفجوة التى أخفيناها فيهـــا . وبادرنا فاطفأنا النار التى كانت مشتعلة فى معسكرنا كما أطفأنا جميع الشموع .

وأخرجت القارب بعيدا عن الشاطىء قليلا ، ثم ألقيت نظرة حولى لأستوثق مما اذا كان هناك قارب آخر ، ولكننى لم أستطع الرؤية لأن ضـــوء النجوم كان باهتا . ثم ركبنا العائمة على عجل ومضينا بهـــا متجهين نحو طرف الجزيرة بغير أن نتبـــادل كلمة واحدة !

الفصل الثانى عشر

الملاحة البطيئة ــ اقتراض أشياء ــ الصعود فوق الحطام ــ المتــآمرون ــ أقوال ليست من الأخلاق فى شيء ــ البحث عن العائمة .

لا ريب أن السـاعة كانت قد بلغت الواحدة عند ما وصلنا فى النهــاية الى طرف الجزيرة ، وقد خيل الى أن العائمة تقطع النهر ببطء . وكنا قد قررنا اذا ما رأينــا قاربا مقبلا نحو الجزيرة أن نبادر بركوب قاربنا ونذهب به الى شاطىء « الينوى » . وكان من حسن الحظ أن قاربا ما لم يأت .. وكنا قد نسينا أن نضع البندقية أوالسنانير أو أى شيء نطعم به فى القارب، لأننا كنا فى عجلة من أمرنا حتى أننا لم نجد متسعا من الوقت للتفكير فى أشياء كثيرة .. حقا ، لقد كان من خطل الرأى أن نضع كل شيء على العائمة ! !

وبدأنا نفكر ...

لو أن رجلين ذهبا الى الجزيرة ، فمما لا جدال فيه انهما عثرا على النار التى أوقدتها .. ومن المؤكد أنهما سيراقبانها طوال الليــل فى انتظار عودة جيم ، وعلى كل حال ، فانهما سيبقيان بعيدا عنا . أما اذا لم تخدعهما النــار التى أشعلتها ، فلن يكون الخطأ خطأى فقد بذلت قصارى جهدى لتضليلهما .

وعند ما بدأت خيوط النهار الأولى تظهر فى السماء ، شددنا

العائمة الى انحناء كبير فى شاطىء « الينوى » وكسرنا بعض فروع حطب القطن بالقادوم وغطينا العائمة بها حتى تبدو ككهف داخلى فى الشاطىء .

وكانت على شاطىء الميسورى جبال ، كما كانت هناك أشجار ضخمة كثيفة من ناحية « الينوى » . وكان مجرى الماء يتصل بنهر الميسورى فى هذه المنطقة ، ومن ثم لم نشعر بأى خوف من مقابلة أحد . وبقينا فى هذا المكان طوال النهار ، ورحنا نراقب العائمات والقوارب البخارية وهى تمخر عباب اليم بجوار شاطىء الميسورى بينما كانت البواخر الكبيرة تصارع اللجج فى قلب النهر ، وحدثت جيم بكل ما دار بينى وبين السيدة ، فقال جيم انها امرأة ذكية لبقة ؛ واذا كانت هى التى ستخرج لتعقبنا فانها لن تجلس لتراقب نار المعسكر .. كلا يا سيدى ، انها ستستعين بكلب .. فقلت : ولماذا لا تطلب من زوجها أن يبحث عن كلب ؟ فقال جيم انه يراهن أنها سوف تفكر فى ذلك عند ما يتأهب الرجلان لرحلتهما ، وانه يعتقد انهما لا ريب قد ذهبا الى المدينة للبحث عن كلب ، ولهذا أنفقا كثيرا من الوقت ، والا لما كنا فى هذا المكان الذى يبعد ستة عشر أو سبعة عشر ميلا عن القرية ، ولكنا الآن فى المدينة القديمة ذاتها ! ! فقلت ، اننى لا أعبأ بالسبب الذى من أجله لم يستطيعا القبض علينا ما داما لم يقبضا علينا ! !

وعند ما بدأ الليل يرخى سدوله ، أخرجنا رأسينا من بين أعواد القطن الكثيفة وتطلعنا أمامنا فلم نر شيئا على مرمى البصر . والتقط جيم بعض الألواح الخشبية من فوق العائمة ، وأنشأ كوخا هنديا مريحا لكى نلوذ به من القيظ والمطر ، ونحتفظ فيه بأمتعتنا جافة ، ولقد صنع جيم « أرضية » للكوخ رفعها قدما أو أكثر فوق سطح العائمة ؛ وهكذا أصبحت البطاطين وجميع الأمتعة بعيدة عن متناول الرشاش المتطاير بسبب مرور البواخر .

ووضعنا طبقة من الطين يتراوح سمكها بين خمس بوصات وست بوصات وجعلنا حولها اطارا يثبتها فى مكانها ، لنشعل فوقها نارا عند ما يكون الطقس باردا . وكان الكوخ كفيلا بحجب هذه النار عن العيون ، وصنعنا مجدافا اضافيا خشية أن يتحطم مجداف من مجدافينا . وأعددنا عصا قصيرة ثبتناها فى الكوخ لنعلق المصباح فوقها ، اذ كان يتعين علينا أن نوقد المصباح كلما رأينا باخرة مقبلة نحونا خشية أن ترتطم بنا ، ولكننا قررنا ألا نضيئه اذا اقتربت منا القوارب العادية اللهم الا اذا كان هناك خطر من اصطدامها بنا .

وفى الليلة الثانية ظللنا نسير زهاء سبع ساعات أو ثمان ساعات فى تيار سرعته أكثر من أربعة أميال فى الساعة وقطعنا الوقت فى صيد السمك والحديث ، كما كنا نستحم بين الحين والحين لنبعد النوم عن جفوننا ، وكانت رحلتنا هذه نوعا من الانسياق السهل مع التيار فوق صفحة ماء النهر الهادىء . ولقد تمددنا فوق ظهورنا وأخذنا نتطلع الى النجوم ولم نشعر بأى رغبة فى الكلام بصوت مرتفع ، كما أننا لم نكثر من الضحك ، وانما كنا نقهقه بصوت منخفض ، وكان الطقس لطيفا بصفة عامة ولم يقع لنا أى حادث فى تلك الليلة أو الليلة التى تلتها أو التى جاءت بعدها .

وكنا نمر بالمدن فى كل ليلة ، وكان بعضها بعيدا فوق جوانب التلال السوداء حيث كانت تبدو كفراش لامع من الأضواء ، ولكننا لم نستطع أن نرى أى منزل من منازل هذه المدن . وفى الليلة الخامسة مررنا بمدينة سانت لويس وكانت أشبه بعالم كامل مضىء . ولقد سمعتهم فى « سانت بيترسبرج » يقولون ان سكان « سانت لويس » يبلغون عددا يتراوح بين عشرين ألف وثلاثين ألف نسمة ، ولكنى لم أصدق ذلك حتى رأيت ذلك الانتشار المدهش للأضواء

فى الساعة الثانية صباحا من تلك الليلة الهادئة . ولم يكن يرتفع من المدينة أى صوت ، لأن جميع من فيها كانوا نياما .

وكنت أتسلل الى الشاطىء حوالى الساعة العاشرة كل ليلة ، فأمضى الى أقرب قرية لأبتاع منها طعاما ولحما أو أية مأكولات أخرى فى حدود عشرة سنتات أو خمسة عشر سنتا ، وكنت أسرق أحيانا دجاجة أصادفها فى طريقى ، فطالما قال لى أبى انه لا بأس من أن أسرق دجاجة كلما أتيحت لى فرصة ، لأننى ان لم أكن بحاجة اليها فان هناك من هو بحاجة اليها ، والصنيع لا يمكن أن ينسى ، ولكننى لم أر أبى فى غير حاجة الى دجاجة مطلقا .. غير أن هذا هو ما كان يقوله على أية حال !! ... ولكننى بعد أن كبرت استنكرت أمر السرقة أيا كان سببها ، ووددت لو كان هناك طريقة أستطيع بها رد ما سرقت الى أصحابه تكفيرا عن ذنبى .. ولكن كيف ؟ ... وا أسفاه .. !!

وفى صباح بعض الأيام ، كنت أتسلل الى حقول القمح و « أقترض » بطيخة أو شمامة أو بعض حبوب القمح أو أشياء من هذا القبيل ! فقد كان أبى يقول ألا ضير على الانسان اذا « اقترض » بعض الأشياء ما دام فى نيته دفع ثمنها فى أحد الأيام ! ولكن الأرملة كانت تقول ان ذلك ليس الا (مظهرا) مخففا لجريمة السرقة ، وهو ما لا يقبل الانسان الشريف الاقدام عليه . ولقد قال جيم انه يعتقد أن الأرملة صادقة الى حد ما وأن أبى صادق الى حد ما أيضا ! ... ولذلك فان أحسن طريقة يمكننا أن نتبعها هى أن نختار شيئين أو ثلاثة أشياء من القائمة ونقول اننا لن نقترضها ! ثم قال انه لا ضير علينا بعد ذلك اذا اقترضنا بقية الأشياء ! وهكذا ، قضينا ليلة كاملة فى مناقشة هذا الموضوع ، والعائمة تنساب بنا فوق صفحة الماء ، ونحن نحاول أن نستقر على رأى فيما اذا كان علينا أن نلقى بالبطيخة أو بالشمامة أو بغيرهما فى

اليم . وعند ما بدأ انبثاق الفجر كنا قد حزمنا أمرنا بشكل يدعو للارتياح ، فقررنا القاء التفاح ولون آخر من الفاكهة فى اليم ، وكنا نشعر بعدم الارتياح قبل أن نتخذ هذا القرار ، ولكن ماأن اتخذناه ونفذناه حتى أحسسنا بالراحة . ولقد سرنى أن الأمر انتهى على هذا النحو لأن التفاح والنوع الآخر من الفاكهة كانا فجين غير مستساغى الطعم ؛ ولأن « السرقة » أمر تعافه النفس الشريفة مهما كان سببها !

وكنا نصطاد دجاجة مائية بين الحين والحين ، كلما وجدنا واحدة استيقظت مبكرة أو تأخرت عن النوم فى الليل . وصفوة القول ، ان حياتنا فى تلك الفترة كانت تبعث على الارتياح .

وفى الليلة الخامسة بعد مرورنا بمدينة « سانت لويس » هبت علينا عاصفة عاتية بعد منتصف الليل صحبها رعد وبرق شديدان ، وانهمر المطر بغزارة ، فلزمنا الكوخ الهندى وتركنا العائمة وشأنها ! ولكن عند ما ومض البرق استطعنا أن نرى نهرا كبيرا مستقيما أمامنا وكتلا صخرية على الجانبين . وبعد قليل قلت « هالو جيم ... انظر هناك ! » كانت هناك باخرة قد تحطمت على الصخور ، وكنا نتقدم حثيثا نحوها ، وقد أظهرها البرق بوضوح شديد . كانت مائلة على جانبها وما زال جزء من سطحها العلوى بارزا فوق الماء بحيث كان يمكن رؤية كل ما فوقه بوضوح .

وكان الظلام دامسا ، كما كانت العاصفة عاتية ، وكل ما يحيط بالباخرة محوطا بالغموض ، فانتابنى ذلك الاحساس الذى يسيطر على غلام مثلى يرى حطام سفينة مائلة على جانبها وحيدة حزينة فى وسط النهر ... وكنت أريد الصعود على ظهرها وارتياده قليلا لأرى ماذا هناك . ولذلك قلت :

ــ دعنا نصعد الى ظهرها يا جيم .

ولكن جيم عارض قولى هذا بشدة فى بادىء الأمر ثم قال :

ـــ انني لا أريد العبث فى سفينة غارقة . دعنا نتبع تعاليم الكتاب المقدس فلا نفعل ما يستوجب المؤاخذة . ثم انه من المحتمل جدا أن يكون هناك حارس فى هذه السفينة الغارقة .

فقلت : لعنة الله على الحارس . ليس هناك مايستحق الحراسة، فهل تظن أن هناك شخصا غبيا يقبل البقاء على ظهر سفينة غارقة فى ليلة كهذه يحتمل أن تهوى الباخرة فيها الى الأعماق فى أية لحظة؟

ولم يستطع جيم الرد على هذا القول ، فاستطردت :

ـــ وعلاوة على ذلك ، فاننا قد « نستعير » شيئا ذا قيمة من حجرة الربان ... أراهنك أننا سنجد به مجموعة من السيجار . . ان كل واحد منها يساوى خمسة سنتات . كما أن ربابنة البواخر يكونون أثرياء دائما ويحصل الواحد منهم على مرتب يقدر بستين دولارا شهريا ، ولهذا فانهم لا يهتمون بسعر أى شىء يريدونه . ضع شمعة فى جيبك يا جيم ، فلن يهدأ لى بال حتى استكشف هذه الباخرة الغارقة . هل تظن أن « توم سوير » كان يدع مثل هذه الفرصة تفلت منه ؟ لست أظن انه يفعل ذلك حتى لو عرضت عليه فطيرة لذيذة ! انه يطلق على هذا العمل اسم مغامرة ، وليس من شك فى انه ماكان ليتردد فى الصعود على ظهر الباخرة الغارقة ولو كان ذلك آخر عمل يؤديه فى حياته ... بل انه يبتكر فى مغامراته هذه . لكم أود لو قدم توم سوير الى هنا .

وتذمر جيم قليلا ، ولكنه استسلم فى النهاية قائلا انه يجدر بنا ألا نتكلم أكثر من القدر اللازم ، وأن يكون كلامنا بصوت منخفض جدا ، ولمع البرق فى تلك اللحظة فكشف لنا عن الباخرة الغارقة مرة أخرى ، وكان ذلك فى الوقت المناسب فقد أنار لنا السبيل الذى يجدر بنا أن نسلكه ، فقصدناه على عجل .

كان سطح الباخرة عاليا ، فأخذنا نزحف هابطين المنحدر نحو يسارها متحسسين طريقنا فى الظلام بأيدينا وأقدامنا لكى لانتعثر

فى السلاسل والحبال فى الظلام . وسرعان ما بلغنا الجانب الأمامى، وعثرنا على فجوة فى سطح السفينة ، فهبطنا منها . وبعد لحظات كنا نقف أمام غرفة الربان . وكان الباب مفتوحا . وشد ما كانت دهشتنا حينما رأينا من خلال باب آخر فى غرفة الربان ، نورا مضيئا فى بهو الباخرة كما سمعنا أصواتا تتصاعد منها .

وهمس جيم قائلا انه يشعر برعب قاتل ، وطلب منى أن نعود أدراجنا من حيث أتينا ، فوافقته على ذلك فى بادىء الأمر ، ولكنى ما لبثت أن سمعت صوتا يولول قائلا :

ــ أولا ، أرجوكم أيها الفتيان ! أقسم لكم أننى لن أبوح بالسر ما حييت .

وعندئذ قال رجل بصوت أكثر ارتفاعا :

ــ هذا كذب يا جيم تيرنر . . لقد مثلت هذا الدور من قبل ، وانك تطالب دائما بأكثر من حصتك من الغنيمة ، وكنت تحصل دائما على ما تريد بمجرد التهديد بأنك ستبوح بالسر . ولكنك تماديت فى ذلك هذه المرة ، انك أدنأ وأسفل كلب فى البلاد .

فى هذا الواقت كان جيم (الزنجى) قد عاد الى العائمة ، أما أنا فكنت أشعر باشد اللهفة ، وقلت لنفسى ان « توم سوير » ما كان ليتراجع فى موقف كهذا ، ومن ثم فلن أتراجع أنا أيضا ، وسأمضى فى مغامرتى لأرى ماذا يحدث هنا ، واسرعت أجثو على ركبتى ويدى فى الممر الضيق ، وزحفت الى الأمام فى الظلام حتى لم يبق بينى وبين الردهة غير غرفة الجلوس . وعندئذ رأيت رجلا ممددا على الأرض وهو مشدود اليدين والقدمين ، بينما وقف أمامه رجلان كان يحمل أحدهما مصباحا ضعيف الضوء بينما كان الثانى يشهر مسدسا . وكان الأخير يسدد فوهة مسدسه نحو رأس الرجل الممدد على الأرض ، ويقول :

ـ بودى أن ألهب رأسك بالرصاص ، بل ان ذلك فرض على أيها الخائن الحقير .

فانكمش الأسير على نفسه وقال : أوه . ارجوك ألا تفعل يا « بيل » ، انني لن أشي بكم اطلاقا .

وكان كلما نطق الأسير بهذه العبارة انفجر حامل المصباح ضاحكا وهو يقول :

ـ ألم تفعل ؟ لم يسبق ان قلت شيئا أصدق من ذلك ...

واستطرد حامل المصباح ؛ أتسمعه يستجدى ؟ لو اننا لم نشدد وثاقه لقتلنا ... فلماذا ؟ لأننا طالبناه بحقوقنا ... هذا هو السبب ، ولكنى أؤكد لك يا جيم تيرنر انك لن تهدد انسانا بعد الآن ... ارفع هذا المسدس يا « بيل » .

فقال بيل : كلا يا جاك باكارد ... اننى افضل قتله . الم يقتل هاتفيلد العجوز بنفس الطريقة ... فهلا يستحق الموت ؟ ...

فقال « جاك باكارد » هذا : ولكنى لا اريد قتله لأن لدى من الأسباب ما يحملنى على ذلك ..

فقال الرجل الممدد على الأرض بصوت يغص بالدموع :

ـ فليباركك الله على هذه الكلمات يا جاك باكارد ، اننى لن أنساها ما حييت .

ولم يلق « باكارد » بالا لهذه الكلمات ، وانما تقدم فى اتجاهى نحو الظلام ثم أشار لبيل أن يلحق به ، فبادرت بالتراجع بأسرع ما فى طاقتى ، وأمكننى الابتعاد نحو ياردتين ، ولكن السفينة تمايلت فى تلك اللحظة فلم أستطع المضى فى التقهقر ، ولكى أتجنب اصطدام الرجل القادم بى وافتضاح أمرى ، اضطررت الى الزحف نحو غرفة الجلوس على الجانب العلوى . وأقبل باكارد سائرا فى الظلام . وعند ما دخل الغرفة التى كنت فيها قال :

ـ هنا ... تعال هنا !

ودخل . ثم دخل « بيل » فى أعقابه ، ولكنى بادرت ، قبـل دخولهما ، بالصعود الى سرير بأعلى الغرفة ، وأنا جد آسف على أننى جئت . ووقف الرجلان بداخل الغرفة وأيديهما على حافة السرير ، وراحا يتكلمان .. ومع اننى لم أستطع رؤيتهما ، فقد كان فى استطاعتى أن أعرف أين كانا يقفان بفضـل رائحة الخمر التى كانت تنبعث من فمهما . ولكم سرنى أننى لا أشرب الخمر ، والا لكان فى استطاعتهما أن يكتشفا أمرى .

قال « بيل » :

ــ لقد هددنا بالوشاية ، ولا شك فى انه سيفعل ذلك . وحتى اذا تنازلنـا له عن حقنا ، فان ذلك لن يغير من الأمر شـيئا بعد المشاجرة التى نتسبت بيننا وبينه والمعاملة التى لقيها على يدينا . وانى أؤكد لك انه سوف ينقلب شاهد ملك ضدنا .. فهل تدرك ما أقول ؟ اننى أفضل اراحته من متاعبه ! !

فقال « باكارد » بهدوء : وكذلك أنا .

عندئذ قال « بيل » :

ــ يا للعنة ، لقد ساورتنى الريبة فى الأمر ، وظننت انك لاتريد التخلص منه .. هذا حسن اذن .. هلم بنا لنضع حدا للموقف .

ــ مهلا لحظة ، فانني لم أفرغ من كلامى بعد .. واصغ الى : ان قتله رميا بالرصاص لا غبار عليه ، الا أن هناك وسائل أكثر هدوءا اذا لم يكن مفر من التخلص منه . أما ما أريد قوله فهو انه ليس من الحكمة أن تقدم على عمل طائش لتحقيق أحد مآربك ما دامت هناك وسيلة أخرى تحقق لك هذا المأرب ولا تعرضك للمجازفة .. ألا توافقنى على هذا الرأى ؟

ــ نعم .. لكن كيف ستحقق غايتك هذه المرة ؟ .

ــ حسبنـا .. اليك رأيى .. أرى أن نبـادر الآن بجمع كل ما نستطيع جمعه من غرف الباخرة ووضعه فى الصندوق الكبير ،

ثم ننقله الى الشاطىء ونخبئه هناك . ثم ننتظر .. فاننى اعتقد أن هذه الباخرة سـوف تتحطم وتهوى الى قاع النهر فى خلال ساعتين على الأكثر . فهل فهمت ؟ سـوف يغرق الرجل ، ولن يلام أحد على ذلك الا هو . وأكبر ظنى أن ذلك أفضل جدا من اقدامنا على قتـله .. اننى لا أوافق على قتل أى رجل ما دام فى الامكان التخلص منه بطريقة أخرى ، لأن ذلك ليس من الحكمة أو الأخلاق فى شىء .. أليس ذلك صحيحا ؟

ـ نعم ، أظن انك على حق .. لـكن لنفرض أن البـاخره لم تتحطم وتغرق ؟

ـ حسنا .. علينا ان ننتظر ساعتين على كل حال وسترى النتيجة بنفسك !

ـ لا بأس .. هلم بنا .

ثم غادر الرجلان الغرفة ، فهبطت من فوق الفراش وأنا غارق فى العرق البارد وزحفت فى الظلام الدامس . ثم همست بصوت مبحوح : جيم .

وعند ما رد على بما يشبه آهة صادرة من جانبه ، قلت له :

ـ اسرع يا جيم ، فليس هناك وقت نضيعه فى التلكؤ والتاوه . فان هنا عصابة من القتلة فاذا لم نستول على قاربها ونبعده عن الباخرة بحيث لا يستطيع القتلة الابتعاد عن حطام الباخرة ، فان شخصا سيموت ، أما اذا عثرنا على قارب القتلة فاننـا نستطيع أن نوقعهم جميعا فى مأزق ، لأن العمدة سوف يقبض عليهم .. أسرع .. أسرع .

ـ سـأمضى الى مقدم السـفينة وامض أنت الى مؤخرها ثم اهبط الى العائمة و ...

ـ أواه ياربى .. أواه .. العائمة .. أين العائمة ؟ .. لقد قطع الحبل الذى يشدها الى الباخرة ، فانطلقت على رسلها ، وها نحن فى موقف خطير .

الفصل الثالث عشر

الهـرب من حطام البـاخرة ـ الحارس ـ الغرق ـ نوم عميق .

شهقت وكدت أفقد وعيى .. فهـا نحن سجينان فى حطام باخرة غارقة مع عصابة مخيفة . وأصبح لزاما علينا أن نعثر على قارب العصابة وأن نستولى عليه لأنفسنا . ومن ثم بدأنا نتقدم نحو حاجز البـاخرة ونحن ننتفض من الخوف . وكان تقـدمنا بطيئا جدا ، حتى لقد خيل الينا أن أسبوعا قد انقضى قبل أن نصل الى الحاجز . ولـكننا لم نجد أثرا للقارب ، وقال جيم انه لا يسـتطيع أن يتقدم أكثر من ذلك وأن الفزع قد شـل قواه وحركته . ولكنى رحت أحثه على التقدم لأننا اذا تركنا فى الباخرة فسنصبح فى مأزق خطير . فاضـطر جيم الى الزحف ثانيـة ، وبلغنا جانب السـطح العلوى ، فأخذنا نهبط منـه الى الجانب الأسفل ، ورحنا نزحف ببطء حتى بلغنا مستوى المـاء ، وشد ما كان سرورى عند ما رأيت القـارب أمامى ، وأدركت أننى لن ألبث أن أثب اليه بعد لحظة ، ولكن فجأة فتح باب فى تلك اللحظة ، وأبرز أحد الرجلين رأسـه منه . ولم تكن المسافة التى تفصله عنى تزيد على قدمين ، فخيل الى اننى من الهالـكين ، ولكنه استدار على عقبه وقال :

ـ اخف هذا المصباح اللعين عن العيون يا « بيل » .

ثم ألقى بحقيبة مملوءة فى القارب وهبط اليه ثم جلس .. كان هذا الرجل هو باكارد . ثم هبط « بيل » الى القارب بدوره ، فقال باكارد بصوت منخفض :

ـ ان كل شىء على ما يرام .. اطلق القارب .

ولم أستطع التعلق بالنافذة لأننى أحسست بضعف شديد ..

ثم قال « بيل » لرفيقه :

ـ انتظر .. هل فتشته ؟

ـ لا ، هل فتشته انت ؟

ـ لا .. اذن ، فهو لا يزال يحتفظ بحصته من النقود .

ـ حسنا .. تعال بنا ، لا جدوى من أن نذهب بالصندوق ونترك النقود معه .

ـ اخبرنى . ألا يثير ذلك ريبته فيما نعتزمه ؟

ـ ربما لا يرتاب .. لكن مهما يكن من أمر ، يجب أن نحصل على النقود فهلم بنا .

وغادر الرجلان القارب وعادا أدراجهما الى الباخرة .

وأغلقا باب الغرفة خلفهما . وفى اللحظة التالية ، كنت فى القارب ، ولحق جيم بى وهو يتعثر ، وأسرعت أخرج مديتى وقطعت الحبل ، فانطلق القارب مبتعدا بنا عن الباخرة .

ولم نلمس المجاديف .. كذلك لم نتكلم أو حتى نتهامس ، بل اننا لم نتنفس .. وانساب القارب فوق صفحة الماء بسرعة وسكون . وبعد لحظة أو اثنتين كان القارب قد ابتعد أكثر من مائة ياردة عن مقدم الباخرة ، وابتلعه الظلام . وهكذا أصبحنا آمنين ..

وعندما أصبحت المسافة التى تفصلنا عن الباخرة حوالى ثلثمائة أو أربعمائة ياردة ، رأينا نور المصباح وكأنه نقطة من

الضوء تبرز من باب غرفة ربان الباخرة ، ولكن هذا الضوء اختفى فجأة ، فأدركنا أن السقيين اكتشفا أن القارب قد اختفى ، وأنهما بدآ يدركان أنهما وقعا فى نفس المأزق الذى وقع فيه «جين تيرنر» !

وعندئذ بدأ جيم يستخدم المجدافين ، وبدأنا نبحث عن عائمتنا . وكانت تلك أول مرة أشعر فيها بالقلق على هؤلاء الرجال .. وأكبر ظنى أن الوقت لم يتسع لى من قبل للأسف عليهم .. بدأت أفكر فى أنه من المؤلم أن يقف انسان مثل هذا الموقف الرهيب حتى لو كان قاتلا . وقلت لنفسى أننى سأصبح قاتلا بدورى اذا تركتهم يغرقون ، فهل تراني ارتضى لنفسى ذلك ؟

وقلت لجيم انه يحسن بنا أن نهبط الى البر على مبعدة مائة ياردة من أول نور تقع أعيننا عليه ، بشرط أن نعثر على مكان يصلح لاختبائنا واخفاء القارب ، ثم أذهب وأحاول حث أحد الأشخاص على انقاذ العصابة من « ورطتها » حتى يمكن شنق أفرادها فى الوقت المناسب !

ولكن هذه الفكرة لم يقدر لها أن تنفذ .. فقد بدأت العاصفة تهب من جديد ، وكانت هذه المرة أعنف من ذى قبل ، بينما انهمر المطر بغزارة شديدة ، ولم أر نورا فى النوافذ ، فأيقنت أن جميع من فى المدن قد آووا الى فراشهم ! ! وانساب القارب بنا فوق صفحة الماء ونحن نبحث عن الضوء ، وعن عائمتنا أيضا . وبعد فترة طويلة توقف المطر ولكن السحب بقيت تظلل صفحة الماء ، وأخذ البرق يلمع ؛ وفى احدى ومضات البرق رأينا شيئا مظلما يسبح أمامنا ، فاتجهنا نحوه .

كان هذا الشيء السابح هو عائمتنا ، فغمرنا الفرح عند ما صعدنا اليها مرة أخرى ، ورأينا نورا فى تلك اللحظة . وكان هذا النور منبعثا من بعيد على الشاطىء فقررت أن أكتشف مصدره . وكان القارب مملوءا الى منتصفه بالمسروقات التى استولت

العصابة عليها ، فطلبت الى جيم أن يوجه العائمة فى اتجاه الضوء ، وأن يوقد مصباح العائمة عند ما يعتقد أننا قطعنا ميلين ، وأن يترك المصباح مضاء حتى أعود . ثم هبطت الى القارب ، والتقطت المجدافين وبدأت أضرب بهما صفحة الماء فى طريقى نحو الضوء . وعند ما اقتربت منه ، ظهرت لى ثلاثة أو أربعة أضواء أخرى على جانب التل . فأدركت أن أمامى قرية . ووجهت القارب الى الشاطىء ، وكففت عن التجديف ، وتركت القارب ينساب مع التيار . وبينما أنا اقترب من الضوء لاحظت انه ينبعث من مصباح معلق فى حامل (معدية) ذات سطحين . واقتربت من القارب لكى يرانى الحارس ، وأنا أتساءل أين ينام . ولم ألبث أن رأيته جاثما عند مقدم المعدية وقد وضع رأسه بين ركبتيه فهززته من كتفه مرتين أو ثلاث مرات وبدأت أصرخ فى وجهه !

وتحرك الرجل بطريقة تنم عن الفزع . وعند ما رآنى تمطى وتناءب ، ثم قال :

— هالو .. ماذا هناك ؟ لا تصرخ يا طفل ؟ ما هى مشكلتك ؟

فأجبت : والدى ، ووالدتى وأختى ، و ...

وتوقفت عن الكلام ، فقال :

— أوه . كفى حزنا يا فتى ، فان لنا جميعا متاعبنا ، ولسوف ينتهى كل شىء على ما يرام .. ماذا حدث لهم ؟

— انهم .. انهم .. هل أنت حارس المعدية ؟

فقال بلهجة تشف عن الارتياح : نعم .. اننى ربانها وصاحبها وضابطها ومرشدها وحارسها وكبير بحارتها ، وأحيانا أكون الحمولة والركاب !.. اننى لست ثريا مثل جيم هوربناك ، كما اننى لا أستطيع أن أكون كريما وطيبا مثله مع توم وديك وهارى وأن أبعثر النقود حيثما اتفق كما يفعل ، ومع ذلك قلت له مرات كثيرة اننى لا أقبل أن أبادله مركزه لأننى أعتقد أن حياة البحار

هى الحياة التى تصلح لى أنا ، لأننى لا أطيق حياة المدنية و . . .
فقاطعته قائلا : انهم فى موقف خطير و . . .
ــ من هم ؟
ــ أبى وأمى وأختى والآنسة هوكر ، فاذا ذهبت بالمعدية الى هناك . . .
ــ الى أين ؟ أين هم ؟
ــ فى الباخرة الغارقة .
ــ أية باخرة غارقة ؟
ــ ماذا تعنى ؟ هناك باخرة واحدة . . ألا تعرفها ؟
ــ ماذا تقول ؟ لا أظنك تعنى باخرة والتر سكوت ؟
ــ نعم . . . انها هى .
ــ يا الهى ، وماذا يفعلون هناك بحق السماء ؟
ــ حسنا ، انهم لا يفعلون شيئا !
ــ يا الهى . . اعتقد انه ، لن تكون أمامهم فرصة للحياة الا اذا أنقذهم أحد . . لكن كيف اتفق أن ذهبوا الى هذا الحطام ؟.
ــ هذا أمر سهل . . كانت الآنسة هوكر تزورهم فى المدينة و . . .
ــ نعم . . وذهبت الى مرسى بوث . . ثم ماذا ؟ استمر !
ــ كانت فى زيارة بالقرب من مرسى بوث . وعند ما بدأ الظلام يرخى سدوله ركبت ومعها خادمتها الزنجية معدية لتقضى ليلتها فى منزل صديقتها الآنسة التى لا أتذكر اسمها الآن ، ولكنهم فقدوا المجداف الذى كانوا يستعينون به فى تحديد اتجاه المعدية ، فدارت المعدية حول نفسها واندفعت مع التيار بمؤخرها الى أن قطعت حوالى ميلين وارتطمت بحطام السفينة ، فغرق بحار المعدية والخادمة الزنجية ، أما الآنسة هوكر فقد جاهدت باصرار حتى استطاعت الصعود الى حطام الباخرة ، وبعد ساعة من حلول الظلام جئنا بنقالتنا البخارية . وكان الظلام حالكا ، فلم نر حطام

السفينة الغارقة الا عند ما أصبحنا أمامه مباشرة ، ثم ارتطمنا به ولكننا نجونا جميعا عدا بيل هوبيل... أوه . لقد كان أحسن ملاح .. لكم كنت أود أن أغرق أنا وأن ينجو هو !

ـ ياالهى ، ان هذا أسوأ نبأ سمعته.. لكن ماذا فعلتم جميعا ؟

ـ حسنا ، لقد علا صياحنا ، وتشبثنا بالحطام ، ولكن لما كانت الباخرة كبيرة ، فان أحدا لم يسمعنا . فقال أبى انه لا بد من أن يذهب أحدنا الى الشاطىء فى طلب المساعدة ، وكنت أنا الوحيد الذى يستطيع السباحة ، فألقيت بنفسى فى اليم . أما الآنسة هوكر فقالت لى اننى اذا لم أستطع الحصول على النجدة سريعا فان على أن آتى الى هنا للبحث عن عمها ، فهو الكفيل بوضع الأمور فى نصابها ! ولقد وصلت الى الشاطىء على مسافة ميل من هنا ، وحاولت أن أحث الناس على أن يفعلوا شيئا ولكنهم قالوا : « ماذا تريد منا أن نفعل فى مثل هذه الليلة وهذا التيار ؟ ان ذلك غير معقول ، اذهب الى المعدية البخارية .. فاذا ذهبت و ...

ـ يا الهى ، لكم أود أن أفعل ذلك ، لكن من الذى سيدفع لى أجرى ؟ هل تظن أن أباك ..

ـ نعم .. لقدقالت لى الآنسة هوكر ان عمها هو «هوربناك» ..

ـ يا للسماء ! هل هو عمها ؟ اصغ إلى ، امض الى هذا الضوء الذى تراه ، ثم انعطف غربا عند ما تصل اليه ، فهناك حانة على مبعدة ربع ميل تقريبا ، وعند ما تبلغها قل لمن فيها أن يذهبوا بك الى منزل « جيم هوربناك » ، ولكن لا تتسكع بعد ذلك لأن الرجل متلهف ولا شك على معرفة الأنباء ! قل له أننى سأنقذ ابنة أخيه والجميع قبل أن يصل الى المدينة ! اسرع يا فتى .

وانطلقت فى اتجاه الضوء ، ولكننى ما كدت أنثنى فى المنعطف حتى عدت أدراجى الى قاربى وانطلقت به فى الماء الهادىء حوالى

ستمائة ياردة ثم دخلت بقاربى بين مجموعة من القوارب الخشبية لأننى كنت أريد ان اتأكد من أن المعدية تنطلق نحو حطام الباخرة. وعلى أية حال، فقد شعرت بارتياح كبير لأننى تجشمت كل هذا العناء لانقاذ أولئك الرجال، فما كان كثيرون يفعلون ما فعلت. ولكم تمنيت لو عرفت الأرملة، بما فعلت، ورجحت أنهـا كانت ستفخر بى لأننى بسطت يد المعونة لهؤلاء الناس رغم انهم أشرار، فالأشرار هم الذين تهتم الأرملة والأخيار بهم أعظم اهتمام.

ولم يمض وقت طويل، قبل ان أرى حطام الباخرة على شكل كومة مظلمة تنزلق الى أسفل. وأحسست برعشة باردة تسرى فى جسدى !.. كانت الباخرة تغوص بسرعة، فأيقنت أنه ما أن تمضى دقيقة واحدة حتى تفقد جميع من فيها حياتهم، ودرت حول الباخرة الغـارقة وصحت قليلا، ولكنى لم أتلق ردا على صياحى، كان كل شىء هادئا تماما، فشعرت بقلبى يغوص بين جنبى خوفا على ركابها، ولكن خوفى لم يكن طاغيا!

ثم اقبلت المعدية، فمضيت الى منتصف النهر. وعنـد ما قدرت اننى أصبحت بعيدا عن مرمى البصر، تركت مجدافى وتطلعت خلفى فرايت المعدية تدور حول البـاخرة الغارقة بحثا عن بقايا الآنسـة هوكر، التى كان الربان يعتقد أن عمها « هورنباك »، يرغب فى الحصول على هذه البقايا (الجثة)! وبعد قليل تخلت المعدية عن المحاولة وعادت الى الشـاطىء، أما أنا فقد انطلقت فى عرض النهر..

وخيل الى أن وقتـا طويلا قد مضى قبـل أن يشـعل جيم مصباحه، وعند ما ظهر النور خيل الى أنه صادر من على بعد ألف ميل. وعند ما وصلت الى مكان عائمتنا، كان ضوء النهار قد بدا ينبثق من الشرق. فاتجهنا صوب احدى الجزائر وأخفينا العائمة، وأغرقنا القارب، ثم ذهبنا لننام كالموتى!!

الفصل الرابع عشر

وقت طيب بصفة عامة ! ـ الحريم ! ـ اللغة الفرنسية .

عند ما استيقظنا من النوم ، تفحصنا محتويات الصندوق الذى سرقته العصابة من الباخرة الغارقة ، فعثرنا فيه على أحذية وبطاطين وملابس وأشياء أخرى منوعة وكمية من الكتب ونظارة مكبرة وثلاث علب من السيجار الفاخر .. وقضينا النهار كله راقدين فى الغاب ونحن نتحدث حينا ثم انصرف الى قراءة الكتب حينا آخر ، وهكذا قضينا وقتا طيبا بصفة عامة ، وحدثت جيم بما دار داخل الباخرة الغارقة ، وقلت له ان ما فعلته كان من أعمال المغامرات ! فقال انه ليس بحاجة الى مزيد من المغامرات ، وانه عند ما زحفت أنا عائدا الى بهو الباخرة ، وزحف هو عائدا الى العائمة ثم تبين انها اختفت ، كاد يموت خوفا ، لأنه أعتقد أن كل شيء قد انتهى بالنسبة اليه ، فاذا لم ينقذ فانه سيموت غرقا ، واذا أنقذ فان منقذه سوف يعيده الى المدينة ليحصل على المكافأة ، وعندئذ تبيعه الآنسة واطسون لتاجر الرقيق ! ولقد كان جيم على حق فيما قال ، بل انه على حق دائما ، لأنه يتمتع بعقل متزن لا يتمتع به عادة أى زنجى آخر !

وقرأت لجيم كثيرا عن الملوك واللوردات وثيابهم الموشاة

المزركشة ، واسرافهم فى التكلف ، وكيف انهم ينـادون أحدهم الآخـر « يا صاحب الجـلالة » ، و « يا صـاحب السـمو » ، و « يا صاحب السعادة » وهلم جرا بدلا من « يا سيد » فبرزت عينا جيم من محجريهما ، وبدا عليه الاهتمام ، ثم قال :

ــ لم أكن أعلم أن هناك عددا كبيرا كهذا منهم ، لأننى لم أسمع الا عن الملك سليمان ، اللهم الا اذا كنت تعد هؤلاء الملوك مثلما تعد ملوك « الكوتشينة » .. وبالمناسبة ، كم أجر الواحد منهم ؟

فقلت : أجر ؟ انهم يستطيعون الحصول على ألف دولار شهريا اذا شاءوا ، بل انهم يستطيعون الحصول على كل ما يريدون ، فان كل شيء ملك لهم .

ــ أليس ذلك مبعثا للبهجة ؟ وماذا يفعلون يا هاك ؟

ــ انهم لايفعلون شيئا . انك تهرف يا جيم ... فهم لايفعلون شيئا غير الجلوس .

ــ احقـا ؟

ــ بالتأكيد .. انهم لايفعلون شيئا غير الجلوس اللهم الا حينما تدور رحى الحرب ... وحتى هذه لا يشتركون فيها ! فاذا لم تكن هناك أية حرب فانهم يتكاسلون ويتسكعون .. صه .. هل سمعت ضوضاء ؟

وتسللت الى الخارج وتطلعنا حولنا ، وسرعان ما سمعنا صوت تحرك قارب بخارى يدور حـول نفسه فى مكان بعيـد فى النهر ، فعدنا أدراجنا .

واستأنفنا الحديث ... فقلت : نعم . حينما تكون هناك حرب ، فان الملوك يعلو ضجيجهم مع البرلمانات ، والا فانهم يتسكعون حول الحريم معظم الوقت .

ــ حول ماذا ؟

ــ الحريم .

ـ وما هو الحريم ؟

ـ المكان الذى يحتفظون فيه بزوجاتهم ... ألم تسمع عن الحريم ؟ ان للملوك « حريما » يحتفظ فيه الواحد منهم بمليون زوجة !!

ـ أحقا ؟ لقد نسيت ذلك ... ان الحريم عبارة عن (بنسيون) فيما أظن ! ومن المحتمل انهم يقضون وقتا مشحونا بالضجيج والصخب فى هذه البيوت ! وأعتقد أن الزوجات يكثرن من التشاجر مع بعضهن ، مما يزيد الضجيج صخبا .

ثم حدثت جيم عن الملك « لويس السادس عشر » الذى أعدم فى فرنسا منذ أمد بعيد ، وعن ولى عرشه الصغير الذى كان سيصبح ملكا فى أحد الأيام ولكنهم أودعوه السجن حيث مات هناك ، كما يقول بعض الناس .

فقال جيم : مسكين هذا الغلام .

ـ يقول بعض الناس انه هرب وجاء الى أمريكا !

ـ هذا حسن ، ولكن لابد انه كان وحيدا ... هل فى بلادنا ملوك يا هاك ؟

ـ لا ...

ـ اذن لابد انه لم يستطع الحصول على عمل ... فماذا عساه قد فعل ؟

ـ لست أعلم .. ان بعضهم يلتحق بخدمة البوليس ، والبعض الآخر يعلم الناس كيف يتكلمون اللغة الفرنسية .

ـ ألا يتكلم الفرنسيون مثلنا يا هاك ؟

ـ كلا يا جيم ، انك لا تستطيع أن تفهم كلمة واحدة مما يقولونه .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لست أدرى ، ولكن هذا هو الواقع ، لقد أمكننى أن التقط

بعض الكلمات والجمل من أحد الكتب .. لنفرض أن رجلا قال لك
? Parlez vous le Francais (*) فما تظنه يقول ؟

ـ لا أظن شيئا ... أضربه على أم رأسه أن لم يكن رجلا أبيض ، فانني لا أسمح لزنجي أن يشتمني بمثل هذا الكلام !

ـ هذا سخف ، انه ليس اهانة ... انه مجرد سؤال معناه « هل تتكلم الفرنسية » ؟

ـ حسنا ... لماذا اذن لا يقول ذلك كما نقوله نحن ؟

ـ انه يقوله ... فتلك هى الطريقة التى يتحدث بها الرجل الفرنسى .

ـ انها طريقة جد مضحكة ، وأنا لا أريد أن أسمع مزيدا منها لأنها أبعد ما تكون عن العقل !

ـ اصغ الى يا جيم ... هل تتكلم القطة مثلنا ؟

ـ لا ، ان القطة لا تتكلم مثلنا .

ـ حسنا ، فهل تتكلم البقرة مثلنا ؟

ـ لا .. ان البقرة لا تتكلم مثلنا أيضا .

ـ وهل تتكلم القطة كالبقرة ، أو البقرة كالقطة ؟

ـ لا ، أن الواحدة منهما لا تتكلم كما تتكلم الأخرى .

ـ وهل من الطبيعى أن يختلف كلام كل منهما عن الأخرى ؟

ـ بالطبع ... !

ـ اذن ، أليس من الطبيعى أن يختلف كلام البقرة والقطة عن كلامنا ؟

ـ بالتأكيد نعم .

(*) هذه العبارة الفرنسية معناها « هل تتحدث بالفرنسية ؟ » ولكنها كتبت فى الأصل بشكل مختلف ، لأن المؤلف سجلها كما ينطقها زنجى بلهجته الخاصة (المترجم) .

ــ حسنا ... اذن لماذا لايكون طبيعيا أن يتكلم الرجل الفرنسى لغة تختلف عن لغتنا ؟ أجب عن هذا السؤال ؟

ــ هل القطة رجل يا « هاك » ؟

ــ لا ...

ــ حسنا ... اذن ، ليس من العقل فى شىء أن تتكلم القطة كالانسان ... وهل البقرة انسان ؟ ثم هل البقرة قطة ؟

ــ لا ... انهما ليستا مثل الانسان .

ــ اذن فمن غير المعقول أن تتكلم احداهما مثل الأخرى ... وهل الرجل الفرنسى انسان ؟

ــ نعم ....

ــ حسنا ، اذن لماذا لا يتكلم كالانسان ؟ ... أجب عن هذا السؤال ؟

وأيقنت ألا جدوى من اضاعة الوقت هباء ، فانت لا تستطيع أن تعلم زنجيا كيف يجادل . وعندئذ كففت عن الحديث !

الفصل الخامس عشر

« هاك » يفقد العائمة – فى الضباب – الغلام فوق العائمة – « هاك » يعثر على العائمة – قاذورات .

قدرنا أننا سنصل الى « كايرو » – عند طرف « الينوى » – بعد ثلاثة أميال ، فهناك يلتحم نهر « أوهايو » بنهر المسيسبى ، وكان هذا هو المكان الذى نقصده ، فهناك كنا نزمع أن نبيع العائمة ونبتاع قاربا بخاريا ونذهب الى أوهايو ، وهى أحدى الولايات الحرة (*) وبذلك نتخلص من المتاعب ... فقد كان « جيم » يخشى أن تبيعه الآنسة « واطسون » اذا عاد اليها .

وفى الليلة الثانية أخذ الضباب ينتشر ، فقررنا أن نشد العائمة الى الشاطىء ، فقد كان من العبث أن نحاول السير فى الضباب . الا انني حينما تقدمت العائمة مستقلا القارب ومعى الحبل لاربطه فوق الشاطىء لم أجد غير شجيرات صغيرة أستطيع أن ألف الحبل حولها ، فلففت الحبل حول احداها ، وكانت على حافة الشاطىء. غير أن التيار كان قويا فى هذه المنطقة فأقبلت العائمة مندفعة بشدة فانتزعت الشجرة من جذورها وشدتها والحبل معها . ثم رأيت

(*) الولاية الحرة فى ذلك الوقت ، هى الولاية التى أخذت بتحريم الرق واقتناء العبيد ... (المترجم) .

الضباب يلفها فى جوفه ، فأحسست بالألم والخوف معا ولم أستطع حراكا . وبعد دقيقة ، كانت العائمة قد اختفت عن ناظرى ، ولم أستطيع أن أرى لأبعد من عشرين ياردة أمامى . وعلى الفور وثبت فى القارب ، وركضت الى المؤخرة واختطفت المجداف وأعملته فى الماء ، ولكن القارب لم يتحرك لأن لهفتى أنستنى فك الحبل الذى يشد القارب الى الشاطىء فنهضت واقفا وحاولت حل الحبل ، ولكننى كنت شديد الارتباك ، فقد كانت يداى ترتعشان بشدة .

وعند ما فككت الحبل أخيرا انطلقت بالقارب فى أثر العائمة ، وكنت أجدف بكل قواى ، وسرعان ما ابتلعنى الضباب الأبيض ، فلم أدر فى أى اتجاه كنت منطلقا .

قلت لنفسى ألا جدوى من التجديف ، لأننى كنت لا ادرى مصيرى ... هل أرتطم بالشاطىء ؟ أو اصطدم بجبل أوسلسلة ؟ وآثرت أن أجلس جامدا تاركا القارب يجرى مع التيار ، رغم اننى كنت أشعر بالأسف . وصحت بأعلى صوتى ، ثم اصخت السمع ، ومن بعيد سمعت صياحا خافتا ، فانتعشت آمالى ومضيت فى اتجاه مصدر الصياح ، وأنا أرهف أذنى لأسمعه ثانية ، ولكن تبين لى ، عند ما تكرر الصياح ، اننى لم أكن ماضيا نحوه ، وانما كنت منطلقا بعيدا عنه الى اليمين ، وفى المرة التالية ، تبين لى اننى منطلق الى اليسار وأننى لم أتقدم كثيرا ، لأن القارب كان يتقدم فى هذا الاتجاه وذاك !!

ولكم تمنيت لو أن جيم الأحمق فكر فى الطرق على وعاء من الصفيح طوال الوقت حتى أسمعه ، ولكنه لم يفعل ، وانما اكتفى بالصياح فى فترات متباعدة ، وبذلك بلبل أفكارى ... ومضيت أجاهد أعنف الجهاد ، وسرعان ما سمعت الصياح صادرا من خلفى مباشرة ، فتملكنى الفرح ... ولكن الصياح كان صياح شخص آخر على ما خيل الى ! .

وتركت المجداف ، وأنصت الى الصـــياح مرة أخرى ، وكان لا يزال يصدر من ورائى ، ولـكن من مكان لم أتبينه ، واستمر الصياح مدة طويلة . . كما استمر مكان صدوره فى التغير !. ولم أكف عن الرد عليه ، الى أن صدر من أمامى مرة أخرى ، فأدركت أن التيار قد دفع مقدم القارب الى المجرى ، وانه لا بأس من أن يكون جيم هو الصائح ، وليس بحار عائمة أخرى ؛ فقد تعذر على تمييز الأصوات فى الضباب ، فما من شيء أو صوت يكون طبيعيا فى الضباب ! !

واستمر الصياح . وبعد حوالى دقيقة ، كنت أندفع بالقارب الصاخب نحو شاطىء فوقه أشباح أشجار كثيرة . ودفعنى التيار الى اليسار ، فاذا بى وسط مجموعة كبيرة من جذوع الأشـــجار التى كان التيار يندفع بينها محدثا هديرا شديدا .

وبعد لحظة أو اثنتين ، بدا كل ما أمامى صلبا أبيض اللون مرة أخرى . لقد كان ذلك الشاطىء الذى اعترضنى جزيرة ! . فجمدت فى مكانى وأصخت السمع الى دقات قلبى العنيفة . . . وأكبر ظنى أننى حبست أنفاسى مترقبا . .

واستسلمت للأمر الواقع بعد أن أدركت الحقيقة . . . لقد كان الشاطىء الذى اعترضنى جزيرة ! ولا ريب أن جيم ذهب الى جانبها الآخر . ولم تكن تلك الجزيرة احدى الجزائر الصغيرة التى يمكنك أن تقطعها طولا فى عشر دقائق ، وانما كانت احدى جزائر الغابات ؛ ومن ثم فمن المحتمل أن يتراوح طولها بين خمســـة أميال وستة وأن يزيد عرضها على نصف ميل .

وبقيت هادئا وأنا أرهف السمع حوالى خمس عشرة دقيقة . واستمر القارب فى تقدمه بسرعة أربعة أو خمسة أميال وان يكن ذلك لم يدر بخلدى . ففى مثل هذه الأحوال يعتقد الانسان أن القارب متوقف تماما عن السير فوق صفحة الماء ! فاذا مر به جذع

شجرة صغير فى الماء ، فانه يفكر فى مدى السرعة التى يسير بها ، ويتبادر الى ذهنه انه يسير بسرعة كبيرة . واذا لم تصدق انك ستشعر بالوحدة والوحشة فى مثل هذا الضباب الكثيف اثناء الليل ، فخير لك أن تجرب ذلك بنفسك !!

وفى خلال نصف الساعة التالى ، رحت أصيح بين الحين والحين . وأخيرا سمعت صياحا يجيبنى من بعيد ، فحاولت ان أمضى فى اتجاهه ، ولكنى أخفقت . وفى التو ، حكمت باننى دخلت فى شبكة ألياف القنب لأننى كنت ألمحها على جانبى . وفى بعض الأحايين كان يجرى وسط هذه الألياف مجرى ضيق ، وأحيانا اخرى لم أكن أستطيع تمييز هذا المجرى رغم اننى كنت أعلم أنه موجود ، فقد كنت أسمع خرير التيار وهو يرتطم بجذوع النباتات على الشاطىء . ولم تغب عنى صيحات الصائح طويلا بين ألياف القنب ، فحاولت أن أتتبعها مدة طويلة أيا كان اتجاهها .. ولا شك عندى انك لم تسمع صوتا مراوغا كهذا طيلة حياتك ، ولا رأيت أماكن سريعة التغير والتبدل كهذه الأماكن ! !

ولقد اضطررت الى الابتعاد عن الشاطىء اربع او خمس مرات لكى أتجنب الاصطدام بالجزائر القائمة فى النهر ، ولهذا قدرت ان العائمة لابد سترتطم بالشاطىء بين آونة وأخرى ، والا لكانت قد قطعت مسافة طويلة ولأصبحت خارج نطاق السمع !

وعلى أية حال ... فقد خيل الى أننى عدت الى النهر المكشوف مرة أخرى ، ولكنى لم أستطع أن أسمع صياحا من اى اتجاه ، فاعتقدت أن « جيم » قد شد عائمته الى جذع شجيرة واستراح . وكان التعب قد نال منى كل منال ، فرقدت فى القارب وقررت الا أزعج نفسى بعد الآن ، ولم أكن راغبا فى النوم بالطبع ، ولكنى لم أستطع مقاومة النوم ، فقلت انه لابأس على اذا أنا نمت نوما متقطعا كنوم القطط !

غير أن نومى لم يكن كنوم القطط ، فما أن استيقظت حتى رأيت النجوم متألقة فى السماء وقد انقشع الضباب تماما ، وألفيت القارب يدور حول منحنى كبير بمؤخرته . ولم أدر أين أنا ، وخيل الى أننى أحلم . وعند ما بدأت أفكارى تنتظم خيل الى أن ما مرّ بى حدث منذ أسبوع مضى .

كان النهر هائلا فى هذه المنطقة .. وكانت تشمخ فوق شاطئيه أشجار ضخمة كثيفة أشبه بجدار صلب . وألقيت نظرة على طول النهر ، فرأيت نقطة سوداء فوق صفحة الماء ؛ فوجهت القارب نحوها ، ولكنى ما كدت أصل اليها حتى تبينت أنها عبارة عن كتلتين من الخشب مربوطتين معا . ثم رأيت نقطة أخرى فتتبعتها ، ثم ثالثة فتوجهت نحوها .. وفى هذه المرة أصبت الحكم . فقد كانت هذه النقطة السوداء هى العائمة ! !

وعند ما صعدت اليها ألفيت « جيم » جالسا ورأسه بين ركبتيه وهو يغط فى نومه ، وقد تدلى ذراعه الأيمن من فوق أحد المجدافين . أما المجداف الآخر فكان محطما ، بينما كانت العائمة مملوءة بأوراق الأشجار والغصون والوحل ، فأدركت أنه مرّ بفترة عصيبة ! !

وتقدمت من «جيم» وبدأت ألوح بقبضتى فى وجهه ، ثم قلت :

ـ هاللو جيم .. هل كنت نائما ؟ لماذا لم توقظنى ؟

ـ يا الهى .. أهذا أنت يا « هاك » ؟ اذن فأنت لم تمت .. لم تغرق .. هل عدت ثانية ؟ اننى لا أكاد أصدق عينى ياعزيزى .. دعنى أتأملك أيها الطفل .. دعنى أتحسسك .. انك لم تمت .. لقد عدت ثانية حيا ترزق سليما معافى مثلما كنت .. الحمد لله ؟

ـ ماذا دهاك يا جيم ؟ هل احتسيت خمرا ؟

ـ خمرا ، وهل أتيحت لى فرصة لاحتساء الخمر ؟

ـ حسنا .. اذن ما الذى يجعلك تهرف بمثل هذا الكلام ؟

ـ وهل أقول كلاما غير معقول ؟

ـ نعم .. ألم تتحدث عن عودتى كما لو كنت قد رحلت عنك ؟

ـ هاك .. هاك فن .. انظر الى عينى .. انظر الى عينى .. ألم ترحل عنى ؟

ـ أرحل ؟ ماذا تعنى بحق السماء؟ اننى لم اغب عنك ، فأين عساى كنت أذهب ؟

ـ اصغ الى .. هنـاك خطأ ما .. هل أنا جيم أو من أكون ؟ هل أنا هنا ؟ أم أين عساى أكون الآن ؟ هذا ما أريد ان أعرفه .

ـ حسنا .. أظن انك هنـا . فهذا واضح تماما ، ولكنى اظن انك أحمق معقد التفكير يا جيم .

ـ هل أنا كذلك ؟ حسنا .. أجبنى ، ألم تنزل الى الشاطىء ومعك الحبل لتشد العائمة الى شجيرة قنب على الشاطىء ؟

ـ لا .. لم أفعـل .. أية شـجيرة قنب تعنى ؟ اننى لم ار أشجارا كهذه .

ـ لم تر أشجار قنب ؟ اصغ الى .. الم يقطع الحبل فاندفعت العائمة الىعرض النهر وبقيت أنت فى القارب ومن حولك الضباب ؟

ـ أى ضباب ؟

ـ الضباب .. الضباب الذى كان منتشرا طوال الليل .. ثم ألم تصـح ، فصحت بدورى ، الى أن اختلط علينـا الأمر بين الجزائر ، ففقد أحـدنا الآخر ، لأن كلا منا لم يكن يعـرف أين صاحبه ؟ ألم أصـطدم بالجزائر مرات عديدة حتى كدت اغرق ؟ ألم يكن الأمر كذلك ؟ أجب عن هذا السؤال ؟

ـ أن ذلك فوق ادراكى يا جيم .. فاننى لم أر ضـبابا ، ولا جزرا ، ولا متاعب .. لم أر شـيئا !.. لقد كنت جالسـا هنا أتحدث اليك طوال الليـل الى أن غلبك النعاس على أمرك منذ حوالى عشر دقائق .. وأعتقد اننى نمت أيضـا .. ولما كان من

المستحيل أن نحتسى الخمر فى مثل هذا الوقت فمن المحقق انك كنت تحلم !

ــ لكن كيف يمكن أن أحلم بذلك كله فى عشر دقائق ؟

ــ مهما يكن من أمر ، فان الأمر كله كان حلما ، لأن شيئا مما قلت لم يحدث على الاطلاق .

ــ لقد كان كل شىء شديد الوضوح أمامى .

ــ ان وضوحه لا يغير من الأمر شيئا .. اننى أعلم أن شيئا مما تقول لم يحدث ، لاننى كنت هنا طوال الوقت .

ولزم « جيم » الصمت حوالى خمس دقائق ، ولكنه استغرق فى تفكير عميق .. وأخيرا قال :

ــ حسنا .. أعتقد اذن اننى كنت أحلم يا هاك .. ولكنه كان أقوى حلم رأيته ، ثم اننى لم يسبق لى أن رأيت حلما أتعبنى كهذا الحلم .

ــ أوه .. لا بأس ، فان الحلم يتعب الجسم أحيانا ككل شىء آخر ، ولقد كان هذا الحلم مؤلما . حدثنى عنه يا جيم !

وراح «جيم» يحدثنى بكل شىء كما وقع ، ولكنه كان يزخرفه كثيرا . ثم قال انه يجب عليه أن يبدأ فى « تفسير » الحلم لأنه انذار ونذير ! قال ان أول شجرة قنب تمثل رجلا سيحاول أن يفعل بنا خيرا ، وان التيار يمثل رجلا آخر يريد ابعادنا عن الخير ، أما الصياح فيمثل التحذيرات التى ستصل الى كل منا بين آونة وأخرى ، فاذا لم نبذل قصارى جهدنا لكى نفهمها فانها ستنتهى بنا الى سوء الحظ بدلا من أن تبعدنا عنه ، أما ألياف القنب الكثيرة فتعنى أننا كنا سنقع فى مشكلات مع قوم مشاكسين أوغاد ، الا أننا اذا أخذنا حذرنا ولم نحاول اثارتهم ، فاننا سوف نخرج سالمين من الضباب الى النهر الكبير الصافى ، حيث الولايات الحرة ، وبعدئذ لن نصادف أى متاعب أخرى .

كانت الدنيا قد أظلمت بعض الشيء بعد صعودى الى العائمة ، ولكن السماء صفت فى تلك الأثناء .

قلت : أوه .. انه تفسير لا بأس به فى حد ذاته يا جيم .. لكن ما معنى كل هذا ؟

وأشرت الى أوراق الأشجار والأغصان وغيرها مما كان يملأ العائمة ، كما أشرت الى المجداف المحطم .

وتطلع «جيم» الى هذه القاذورات ، ثم تطلع الى ، وعاد فتطلع الى القاذورات .. لقد كانت فكرة الحلم قد رسخت تماما فى ذهنه حتى انه لم يعد يستطيع التخلص منها ولكنه لم يلبث أن عرف الحقيقة !!.. فتأملنى مليا وقال فى ألم :

ـ ما معنى هذه الأشياء ؟ سأخبرك بذلك ! عند ما استبد بى التعب من كثرة العمل ، ومن كثرة النداء عليك ، غلبنى النوم على أمرى بعد أن تملكنى حزن شديد على فقدك . ولست أدرى ماذا حل بى وبالعائمة أثناء نومى . وعندما استيقظت ووجدتك أمامى سليما معافى اغرورقت عيناى بالدموع وكدت أجثو فوق ركبتى وأقبل قدميك شكرا ! أما أنت فكنت تفكر فى السخرية منى ، بأكذوبة ضخمة .. ان هذه قاذورات وأوحال ! والأوحال هى التى يضعها الناس فوق رؤوس أصدقائهم اشعارا منهم لهم بالخزى والعار .

ثم نهض ببطء ، وتقدم من الكوخ الهندى ، ودخل بغير أن يضيف الى قوله شيئا .. غير أن ما قاله كان كافيا .. فقد شعرت بالضعة ووددت لو استطعت ان اقبل قدميه مرضاة له .

ومضت خمس عشرة دقيقة قبل أن أتغلب على كبريائى وأذهب للاعتذار لزنجى مثل « جيم » ، ولكنى فعلت ذلك ، ولم آسف عليه فيما بعد ، ولم أحاول أن أسخر منه مرة أخرى ، وما كنت لأقدم على تلك السخرية لو اننى عرفت انها ستؤذى شعوره على هذا النحو ! !

الفصل السادس عشر

الترقب ــ « كايرو » المدينة العزيزة ــ أكذوبة بيضاء ــ تيارات عائمة ــ المرور بمدينة « كايرو » ــ السباحة نحو الشاطىء ..

قضينا معظم النهار فى النوم . ثم استأنفنا رحلتنا ليلا خلف عائمة طويلة ضخمة كانت تسير فيما يشبه الموكب . وكانت لهذه العائمة أربع زحافات طويلة على كل طرف ، فقدرنا أنها تحمل حوالى ثلاثين رجلا ، وكان فوقها أربعة أكواح هندية كبيرة متباعدة عن بعضها البعض ، وصارى علم طويل فى كل طرف .. كانت عائمة يشعر الانسان بالفخر حينما يركبها ! !

ومضينا نتقدم نحو منحنى كبير ، وكانت السماء مغطاة بالسحب والجو حارا فى تلك الليلة ، أما النهر فكان شديد الاتساع . يحف به من جانبيه جداران من الأشجار الضخمة الباسقة الكثيفة التى تحجب كل ما وراءها عن الأنظار .. وتحدثنا عن « كايرو » وتساءلنا ، أترانا سنعرفها عند ما نصل اليها ؟ فقلت اننا لن نعرفها لأننى سمعت أنه لا يوجد على شاطئها أكثر من اثنى عشر منزلا . فاذا لم تكن فى هذه المنازل أنوار موقدة ، فكيف نعرف أننا نمر بها ؟ وقال جيم : اننا اذا وصلنا الى ملتقى النهرين الكبيرين كان هذا دليلا على أننا وصلنا الى مدينة « كايرو » .. ولكنى قلت اننا قد نظن فى هذه الحالة اننا نمر باحدى الجزائر ، واننا

سائرون فى النهر القديم نفسه . وقد أقلق ذلك بال جيم . وتساءلنا ماذا عسانا نفعل ؟ وقلت ان خير حل هو أن أذهب الى الشاطىء عند ظهور أول ضوء وأقول للناس أن أبى مقبل خلفى بحمولته التجارية واننا نريد أن نعرف أين توجد « كايرو » . وقال جيم انها فكرة حسنة !

لم يكن هناك ما نفعله الآن سوى أن نراقب ما يمر بنا حتى نرى المدينة فلا نخطئها .. وقال « جيم » انه من المحقق انه سيراها لأنه سوف يصبح رجلا حرا بمجرد رؤيته لها . أما اذا أخطأ فسيصبح فى بلاد الرقيق مرة أخرى ولن يكون هناك أمل فى تحرره . وكان لايفتأ يثب واقفا بين حين وآخر ويهتف : ها هى .

ولكنه سرعان ما يتبين أنه أخطأ .. وكنا فى كل مرة نعاود الجلوس والمراقبة. وقال جيم انه يشعر برعشة تسرى فى جسده كلما فكر فى اقترابه من الحرية ! ولقد كنت محموما بدورى ، ارتعش كلما سمعته يقول ذلك ، لأننى بدأت أدرك أنه حر تماما فى تلك اللحظة ، وأخذت أتساءل من الملوم على ذلك (*) ؟ انه أنا .. ولم أستطع ابعاد وقر هذه الفكرة عن ضميرى ، بل لقد استبدت بى هذه الفكرة وسببت لى عذابا عظيما . ولم تكن تلك الفكرة قد خطرت ببالى من قبل ، كما اننى لم أكن أفكر فى ذلك الوزر .. أما الآن فقد استيقظ ضميرى ، وظل يعذبنى أكثر فأكثر ، وحاولت دون جدوى أن أتخلص من عذاب الضمير وأن أقول لنفسى اننى لست الملوم لاننى لم أهرب جيم من مالكته الشرعية ، غير أن ضميرى ظل يهتف بى « ولكنك كنت تعلم أنه يسعى الى

(*) كان القانون يدين كل شخص أبيض يتستر على هروب عبد رفيق فى الولايات التى لم تأخذ بتحريم الرق . وهذا هو السبب فى آن « هاكلبرى فن » — وهو أبيض — شعر بأنه خرق القانون وبدأ يخشى العقاب والمسئولية والجزاء !

الحرية ، وكان فى استطاعتك أن تذهب الى الشاطىء وتفضى بالحقيقة الى أول شخص يقابلك » وكان ما يهتف به ضميرى صحيحا ، فلم أجد منه مهربا . وكان هذا هو أكثر ما يعذبنى .. كان الضمير يهتف بى : « ماذا جنت الآنسة واطسون التعسة حتى تدع خادمها الزنجى يهرب تحت بصرك ولا تنطق بكلمة واحدة ؟ ماذا فعلت هذه الآنسة المسكينة لك حتى تعاملها هذه المعاملة الدنيئة ؟ لقد حاولت أن تعلمك العلم والأخلاق ؛ وأن تجعل منك غلاما صالحا ، كما أحسنت اليك بكافة السبل التى تعرفها .. هذا ما فعلته من أجلك » .

وبدأت أشعر بالاثم والتعاسة ، وتمنيت لو اخترمنى الموت . وأخذت أقطع العائمة جيئة وذهابا وأنا أؤنب نفسى ! وكان جيم يروح ويغدو أيضا فى قلق .. فلم يكن أحدنا قادرا على التزام الهدوء ، وفى كل مرة كان جيم يرقص فيها أمامى ويهتف : ها هى « كايرو » ، كنت أشعر كأننى أصبت بطلق نارى ، وكنت أظن أننى سوف أموت من التعاسة اذا كانت تلك المدينة هى « كايرو » حقا !

وكان جيم يتكلم بصوت مرتفع طوال الوقت . أما أنا فكنت أكلم نفسى . كان يقول ان أول ما سيفعله عند ما تطأ قدماه ولاية حرة هو أن يقتصد نقودا ، وألا ينفق سنتا واحدا (*) الى أن يدخر مبلغا يمكنه من شراء زوجته التى كانت رقيقا فى مزرعة مجاورة للمكان الذى تقيم الآنسة واطسون فيه ، وبعدئذ سوف يعمل هو وزوجته ويقتصدان مبلغا من المال يمكنهما من شراء ولديهما ، فاذا رفض مالكهما بيعهما فسوف يستأجران من يسرقهما ! !

(*) السنت عمله امريكية تبلغ قيمتها ٤ مليمات تقريبا .

وغاص قلبى بين جنبى وأنا أسمع هذا الكلام ، فما كان الزنجى ليجرؤ على قول مثل هذا الكلام من قبل ، لكن أنظر الى التغير الذى طرأ عليه فى اللحظة التى ظن فيها انه أوشك على التحرر ! ان المثل القديم ينطبق تماما على هذا الزنجى .. فهذا المثل يقول « اعط الزنجى من الحبل مقدار بوصة ، يأخذ الحبل كله » ولقد كان ذلك نتيجة لعدم تبصرى ، فها هو الزنجى الذى ساعدته على الهرب يواجهنى بتحد ويقول لى بلا مواربة انه سوف يسرق ولديه ــ ولديه اللذين يملكهما رجل لا أعرفه .. رجل لم يسبق له أن أساء الى .

ولقد أسفت حينما سمعت جيم يقول ذلك .. فقد كان مسلكه يكشف عن ضعفه .. واشتد تأنيب ضميرى لى فقلت مخاطبا ضميرى « كف عن تعذيبى فمازال فى الوقت متسع لتصحيح الخطأ .. سوف أذهب الى الشاطىء عند اول ضوء يلوح لى وأبوح بالسر كله » وعندئذ شعرت بالراحة والسعادة ، وانقشعت جميع متاعبى ، ورحت أراقب ظهور أول ضوء وأنا أدندن باحدى الأغنيات . وبعد قليل لاح لنا ضوء فهتف جيم :

ــ اننا آمنان يا هاك .. اننا آمنان ، هيا أسرع بركوب القارب فها هى « كايرو » أخيرا .. اننى واثق من ذلك .

فقلت : سأمضى بالقارب لأتبين حقيقة الأمر يا جيم ، ولكن لا تنس انها قد لا تكون « كايرو » .

وبادر « جيم » فأعد القارب ، ووضع سترته العتيقة فى قاع القارب لكى أجلس فوقها ، وقدم لى المجداف . وبينما كنت ابتعد عنه قال :

ــ عما قريب ، سوف أهتف من شدة الفرح وأقول اننى مدين لهاك بحريتى ، واننى ما كنت لأتحرر يوما لولاه .. لقد كان

«هاك» هوالذى وهبنى الحرية .. ان جيم لن ينساك يا «هاك» .. لقد كنت أحسن صديق لجيم العجوز .

ورحت أجدف مبتعدا والعرق ينسال من جبهتى بغزارة .. فقد كنت أعتزم افشاء سره ! ولكنه ما كاد يقول ذلك حتى انحسر عنى تأنيب الضمير . ومضيت أجدف ببطء ، ولم أكن أدرى هل يسعدنى ما سأفعله أم لا ؟ وعند ما ابتعدت خمسين ياردة عن العائمة قال جيم :

ـ هلم يا هاك المخلص .. انك الرجل الابيض الوحيد الذى حافظ على وعده لجيم العجوز .

وشعرت بقلبى يغوص بين جنبى ، ولكنى قلت لنفسى انه لا مفر لى من افشاء سره لأننى لا أستطيع فرارا من تأنيب ضميرى . وفى تلك اللحظة أقبلت عائمة بها رجلان معهما بندقيتان ، وتوقفا ، فتوقفت .. وقال أحدهما :

ـ ما هذا الذى هناك ؟

فقلت : عائمة .

ـ هل تملكها ؟

ـ نعم يا سيدى .

ـ هل عليها رجال .

ـ رجل واحد يا سيدى .

ـ حسنا .. لقد هرب خمسة زنوج الليلة ومضوا هناك الى أعلى المنحنى ، هل الرجل الذى معك أبيض أم أسود ؟

فلم أجب مباشرة . والواقع اننى حاولت الكلام ولكن ارتج على ، فحاولت أن أستجمع أطراف شجاعتى وأن أفضى الى الرجلين بالحقيقة ، ولكنى أخفقت . ولم ألبث أن تبينت ضعفى فتخليت عن محاولة التظاهر بالرجولة ، وقلت :

ـ انه رجل أبيض .

ـ أظن أنه يحسن بنا أن نذهب ونراه بأنفسنا .

فقلت : لكم أتمنى ذلك يا سيدى لأن أبى هو الموجود فى العائمة ، ولعلكما تساعداننى على شد العائمة الى الشاطىء .. ان أبى مريض ، وكذلك أمى « ومارى آن » أختى !

ـ أوه : يا للشيطان .. اننا فى عجلة من أمرنا أيها الغلام ، ولكن أكبر ظنى أنه يحسن بنا أن نأتى معك ، فهيا امض أمامنا .

فأعملت مجدافى فى الماء ، وبعد قليل قلت :

ـ سوف يدين أبى لكما بالشكر .. فقد كان كل من ناشدته أن يشد القارب الى الشاطىء ينصرف عنى . وأنا عاجز عن تحقيق هذا بمفردى .

ـ هذه نذالة وضعة .. أخبرنى يا فتى مم يشكو أبوك ؟

ـ انه مريض .. مريض .. ولكن مرضه ليس خطيرا !

وتوقف الرجلان عن التجديف . وكان الوصول الى العائمة يتطلب بذل جهد كبير .

وقال أحدهما : هذا كذب يا غلام .. ما هو مرض أبيك ؟ أجب بلا مواربة فان ذلك خير لك .

ـ سأفعل يا سيدى ... سأفعل ، ولكن أرجوكما ألا تتخليا عنا ... انكما سيدان شريفان ، ويكفى أن تساعدانى على شد العائمة الى الشاطىء بغير أن تقتربا منها ان شئتما . أرجوكما .

فقال أحد الرجلين : هيا بنا يا جاك !

وتراجعا قليلا وقال المتكلم : ابتعد يا غلام ... ابتعد ... أخشى أن تكون الريح قد نقلته الينا ... ان أباك مريض بالجدرى، وأنت تعلم ذلك حق العلم . فلماذا لم تقل ذلك بلا مواربة ؟ هل تريد أن ينتشر المرض فى كل مكان ؟

فقلت متلعثما : الحقيقة اننى صارحت كل من قابلنى بالحقيقة، فبادروا بالفرار وتركونا تحت رحمة الأقدار .

ـ مسكين أبوك أيها الشيطان ... اننا جد آسفان من أجلكم ... ولكننا ... يا للعنة اننا لا نريد أن تنتقل الينا عدوى الجدرى ... ولكن اصغ الى فسأقول لك ما يجب عليك أن تفعله ... لا تحاول ارساء العائمة وحدك والا حطمتها ... استمر فى سيرك حوالى عشرين ميلا حتى تصل الى مدينة على الجانب الأيسر للنهر، وسوف تصل الى هناك بعد شروق الشمس بوقت طويل، وعندما تطلب المعونة قل ان أسرتك مصابة بنزلة برد وحمى ، واياك والحماقة مرة أخرى ! لاتدع الناس يتكهنون بحقيقة مرض أبيك . لا جدوى من محاولة النزول الى البر عند هذا الضوء القريب ، فليس هناك غير مستودع خشب ... أكبر ظنى أن أباك فقير ، وانه سيىء الحظ أيضا ، انظر، سأضع قطعة ذهبية من ذات العشرين دولارا فوق هذا اللوح فالتقطها عند ما يمر اللوح بك ... اننى حزين من اجلك ، لكننى لا أستطيع أن أفعل غير ذلك ، لأن من الحماقة الاستخفاف بالجدرى ، فهل فهمت ؟

فقال الرجل الآخر مهلا لحظة يا باركر ... فسأضع عشرين دولارا أخرى على اللوح ... الوداع أيها الغلام ، افعل ما قاله لك مستر باركر وسوف تستقيم الأمور .

ـ نعم يا بنى ... الوداع ... اذا رأيت زنوجا هاربين فاطلب النجدة ولعلك تتمكن من القبض عليهم والحصول على المكافأة .

فقلت : الوداع يا سيدى ... لن أدع الزنوج الهاربين يفلتون منى اذا كان ذلك فى استطاعتى .

وابتعد الرجلان ، فصعدت الى العائمة وأنا أشعر بالضعة والانهيار ، لاننى كنت أعلم اننى ارتكبت خطأ ، وأدركت الا فائدة من أن أتعلم كيف افعل الصواب ، فان الشخص الذى لايتعلم كيف يفعل الصواب وهو صغير لن يتعلم ذلك على الاطلاق ؛ فما أن يتعرض لاحدى التجارب حتى يعوزه المبدأ الذى يشد أزره ويلزمه

باتباع جادة الشرف ، فيستسلم ... ثم فكرت لحظة وقلت لنفسى : واثبت ... لنفرض انك فعلت الصواب وتخليت عن جيم . فهل كنت تشعر بأنك أحسن حالا مما انت عليه الآن ؟ . . وقلت : كلا بالطبع ، كنت سأشعر بتعاسة عظيمة مثلما أشعر الآن . وأضفت : ما الفائدة من أن اتعلم كيف أفعل الصواب عند ما يثير عمل الصواب المتاعب ، بينما لا يثير عمل الخطأ أية متاعب ، والجزاء واحد فى الحالتين ؟ ولم أستطع أن أجد جوابا لهذا السؤال ، فقررت ألا أثقل على نفسى بمثل هذا الحديث ... وأن أفعل ما يكون فى متناول يدى أولا .

ودخلت الكوخ الهندى ، فلم أجد « جيم » هناك ، فتلفت حولى ولكنى لم أجد له أثرا ! !

هتفت : جيم ؟

ـ هائنذا يا « هاك » . . هل غابا عن الأنظار الآن ؟ لا تتكلم بصوت عال ؟

كان جيم غاطسا فى النهر أسفل المجداف الخلفى ، فلم يكن يبرز منه غير أنفه ... فقلت له ان الرجلين قد غابا عن الأنظار ، فصعد الى العائمة وقال :

ـ كنت أصغى لحديثكم ، فنزلت الى النهر وكنت استعد للذهاب الى الشاطىء لو أن الرجلين صعدا الى العائمة ، على ان أعود الى العائمة سابحا بعد انصرافهما ، لكن يالك من غلام بارع . . لقد استطعت تضليلهما بسهولة يا « هاك » ، لقد كانت حيلة مدهشة يا غلام ، وأكبر ظنى انها هى التى أنقذتنى ... ان جيم العجوز لن ينسى لك هذا الصنيع يا عزيزى .

وتحدثنا عن النقود التى أعطاها لى الرجلان ، فقال جيم اننا نستطيع بهذا المبلغ أن نسافر الآن على باخرة ثم ننفق بسخاء فى احدى الولايات الحرة ، وأضاف أن العشرين ميلا التى يجب أن

نقطعها ليست بالمسافة الكبيرة وانه كان يتمنى أن تكون هذه المدينة فى ولاية حرة !

وعند ما انبثق الفجر ، شددنا العائمة الى الشاطىء ، وقد حرص « جيم » كل الحرص على اخفاء العائمة جيدا . ثم قضى النهار كله فى حزم الأمتعة والاستعداد لترك العائمة .

وحوالى الساعة العاشرة من تلك الليلة ، رأينا أنوارا صادرة من مدينة بعيدة عند منحنى فى الجانب الأيسر من النهر .

وركبت القارب ، وقصدت الى هذه المدينة لاستجلاء الحقيقة. وسرعان ما التقيت برجل يركب قاربا ويعد سنارته فتريثت وسألته :

ــ أخبرنى يا سيدى ، هل هذه هى مدينة « كايرو » ؟

ــ « كايرو » !! . . . لا . . . لابد انك أحمق .

ــ اذن ما اسم هذه المدينة أيها السيد ؟

ــ اذا أردت أن تعرفه فاذهب واسأل عنه . أما اذا بقيت هنا نصف دقيقة أخرى وأصررت على ازعاجى ، فسيصيبك ما لا يسرك . . .

وأسرعت عائدا بقاربى الى العائمة . . . وما كدت أخبر « جيم » بما سمعته حتى بدت عليه علامات خيبة الأمل المرة ، ولكنى قلت له الا داعى للأسف لأن « كايرو » هى المدينة التالية فيما أعتقد .

ومررنا بمدينة أخرى قبل طلوع النهار ، وتهيأت للذهاب اليها ، ولكنى لم ألبث ان تبينت انها مشيدة فوق مرتفع من الأرض ، فعدلت عن الذهاب اليها لأن « كايرو » ليست مشيدة على مرتفع ، وشددنا العائمة الى شجرة قنب على الجانب الأيسر من النهر . . . وبدأت أرتاب فى الأمر ، وكذلك جيم . . . فقلت :

ــ لعلنا مررنا بمدينة « كايرو » أثناء الضباب فى تلك الليلة .

فقال : دعنا لا نتحدث فى ذلك يا هاك ، فان الزنوج المساكين

لا يمكن أن يواتيهم الحظ الحسن ... لقد كنت أعرف دائما أن لمس جلد الأفعى ذات الأجراس يجلب النحس .. نعم !

– بودى لو أننى لم أر جلد هذه الأفعى يا جيم ... بودى لو لم تقع عينى عليه .

– ليس الخطأ خطأك يا هاك . فأنت لم تكن تعلم ذلك ، فلا تلم نفسك على ذلك .

وعند ما طلع النهار رأيت مياه نهر « أوهايو » الصافية !

وهكذا ضاع أملنا فى بلوغ مدينة « كايرو » .

وتحدثنا فى الأمر مليا ، وأدركنا أن من العبث الذهاب الى الشاطىء وأننا لن نستطيع الانطلاق بالعائمة مع التيار ، ولذلك لم يكن ثمة مفر من الانتظار حتى يأتى المساء ثم نستقل القارب ونجازف ...

ولقد قضينا النهار كله نائمين فىمزرعة قطنكثيفة ، ريتما يحل الليل ... غير اننا ما كدنا نعود الى العائمة مع الظلام حتى تبين لنا اختفاء القارب .

ولم ينطقأحدنا بكلمة واحدة وقتا طويلا ، فلميكن فىاستطاعتنا أن نقول شيئا ... كنا نعلم حق العلم أن هذا نحس من عملجلد الأفعىذاتالأجراس ! واعتقدنا أن من العبث أن نتحدث فىذلك .. فلو أننا تحدثنا لجلب لنا جلد الأفعى مزيدا من النحس ، ولاستمر النحس فى ملاحقتنا الى أن نتعلم كيف نلزم الصمت ! !

وبعد فترة ، أخذنا نتبادل الرأى فيما يحسن بنا أن نفعله ، وأخيرا أدركنا ألا سبيل أمامنا الا أن نمضى قدما بالعائمة الى أن تتاح لنا فرصة لشراء قاربنعود به . لقد قررنا هذه المرة ألا «نقترض» قاربا لا يكون صاحبه موجودا مثلما كان يفعل أبى ، لأن ذلك خليق بأن يبعث الناس فى أثرنا .

وهكذا انطلقنا بالعائمة عند ما أرخى الليل سدوله .

وكان المكان الذى تباع فيه القوارب بعيدا عن العائمات الراسيات عند الشاطىء ... ولكننا لم نر هذه العائمات ؛ ومن ثم مضينا فى سيرنا زهاء ثلاث ساعات أو أكثر .. ثم بدأ الظلام يرخى سدوله. وهذا أسوأ شىء بعد الضباب ، لأنه لايمكنك من معرفة شكل النهر أو تقدير المسافات . وعند ما تقدم الليل وهدأ ، أقبل قارب بخارى من أمامنا فأوقدنا المصباح وقدرنا أن من فيه سيرون الضوء ، فالقوارب البخارية لا تقترب منا عادة وانما تمر بنا من بعيد وتنطلق فى الماء الهادىء وتمضى فى قلب النهر فى مثل هذه الليالى الحالكة .

وسمعنا صوت محرك القارب وهو مقبل ولكننا لم نره بوضوح الا حينما اقترب منا ، فألفيناه يدنو منا سريعا كأنما ليرتطم بنا . ولقد ألفنا مثل هذه المداعبات ، اذ كان قواد مثل هذه القوارب يدنون منا حتى يخيل الينا انهم سيصطدمون بنا ، ولكنهم لايلبثون أن ينحرفوا فجأة مبتعدين ، بينما يخرج القائد رأسه من النافذة ويضحك وهو يعتقد أنه بارع فى الدعابة ! ولقد ظننا أن هذا هو ماسيفعله قائد هذا القارب . وكان القارب كبيرا بشكل غير مألوف . وفجأة سمعنا شخصا يصيح بنا ، أعقبه رنين جرس لوقف المحركات ، وصفير حاد . وما كاد « جيم » يلقى بنفسه فى اليم من جانب وأنا من الجانب الآخر حتى اندفع القارب وارتطم بالعائمة فى عنف بالغ .

وسبحت الى القاع حتى لا تمزق جسمى عجلة القارب البخارى البالغ قطرها ثلاثون قدما ... ولقد كنت لا أبقى تحت سطح الماء أكثر من دقيقة، ولكنى بقيت هذه المرة أكثر من دقيقة ونصف. ثم بادرت بالصعود الى السطح بعد أن كدت أختنق . وما كدت أصل الى سطح الماء حتى شهقت بقوة وطردت الماء من أنفى ... بالطبع كان التيار عنيفا . ولقد أدار من فى القارب محركاته من جديد

وانطلقوا به دون أن يعبأوا بمصيرنا ... ثم لم يلبث القارب ومن فيه أن اختفى عن الأنظار .

وناديت « جيم » أكثر من عشر مرات ولكنى لم أتلق ردا على ندائى . فأسرعت أتشبث بلوح اصطدمت به وأنا أصارع الماء للوصول الى الشاطىء ، ودفعت اللوح أمامى ولكنى لاحظت أن التيار يتجه نحو الشاطىء الأيسر ، وكان هذا دليلا على أننى أسبح فى تقاطع مائى ، فغيرت اتجاهى ومضيت الى اليسار .

كان تقاطعا طويلا لا يقل طوله عن ميلين ، ومن ثم فقد مر وقت طويل قبل أن أتمكن من بلوغ الشاطىء . ومع أن الرؤية كانت شاقة ، فقد أخذت أتقدم فوق أرض خشنة زهاء ربع ميل أو أكثر حتى بلغت منزلا خشبيا كبيرا مكونا من طابقين ، كدت أمر به بغير أن أنتبه اليه ، لولا أن عددا كبيرا من الكلاب انطلق ينبح بعنف ويتحفز للانقضاض على فأدركت أن من الخير لى ألا أتقدم خطوة أخرى !!

الفصل السابع عشر

زيارة ليلية ـ مزرعة اركانسو ـ الزخارف الداخلية ـ استيفن داولنج بوتس ـ نغمات شعرية ـ معزف (بيـانو) صغير عتيق .

بعد نصف دقيقة تكلم شخص من النافذة بغير أن يبرز رأسه . . . . قال :

ـ اصمتوا أيها الغلمان . . . من هناك ؟

فاجبت : هذا أنا .

ـ ومن أنت ؟

ـ جورج جاكسون يا سيدى .

ـ ماذا تريد ؟

ـ لا أريد شيئا يا سيدى . . . كنت سائرا فى طريقى ولكن الكلاب اعترضتنى .

ـ ولماذا تتسكع هنا فى هذا الوقت من الليل ؟

ـ اننى لا أتسكع يا سيدى . . . لقد سقطت من القارب فى النهر . . .

ـ اوه . . . أحقا ؟ ليوقد أحدكم مصباحا . . . ما اسمك مرة أخرى ؟

ـ جورج جاكسون يا سيدى . . . اننى غلام . . .

ـ اصغ الى . اذا كنت تقول الصدق فلا شيء يدعوك للخوف، فلن يؤذيك أحد ... لكن لاتحاول الهرب ... قف حيث أنت ... هيا أيقظوا « بوب » و « توم » وهاتوا البنادق ... هل معك أحد يا جورج جاكسون ؟

ـ كلا يا سيدى ، لا أحد معى .

وسمعت هرجا ومرجا داخل المنزل، وبدأ من فيه يستيقظون ، كما أضيء مصباح . وقال الرجل يحدث شخصا :

ـ ابعدى المصباح أيتها المغفلة (بتسى) ... أليس فى رأسك ذرة من العقل ؟ ضعيه على الأرض خلف الباب الأمامى ... وأنتما يا بوب وتوم ، اذا كنتما على استعداد فخذا مكانكما .

ـ نحن مستعدان .

ـ والآن يا جورج جاكسون ... هل تعرف آل شبردسون ؟

ـ لا يا سيدى . اننى لم أسمع عنهم !

ـ قد يكون الأمر كذلك ، وقد لا يكون ... والآن ، استعدوا جميعا ... تقدم يا جورج جاكسون ... لكن لا تسرع ... تقدم ببطء شديد ، واذا كان أحد معك فلا تدعه يقترب والا أطلقنا النار عليه ... هيا تقدم ببطء ... افتح الباب بنفسك ... افتحه بما يكفى لدخولك فقط ... هل تسمعنى ؟

ولم أسرع ، فلم يكن ذلك فى مقدورى حتى ولو أردته ، وتقدمت خطوة فخطوة نحو الباب بغير أن أسمع صوتا سوى دقات قلبى . وكانت الكلاب صامتة كأصحابها ، ولكنها تبعتنى على مسافة قصيرة جدا . وعند ما بلغت الدرجات الثلاث الخشبية المؤدية الى الباب سمعت من بالداخل يفتحون الأقفال والمزالج ، فوضعت يدى على الباب ودفعته قليلا قليلا ، الى أن قال شخص من الداخل : « كفى ... أدخل رأسك من الباب » ... ففعلت ، وقد خيل الى أنهم سينتزعونها .

كان المصباح موضوعا على الأرض ، وكان الجميع واقفين وهم يحملقون فى وجهى وأنا أحملق فيهم بدورى ، وظللنا على هـذه الحال حوالى ربع دقيقة ... كان هناك ثلاثة عمالقة يحملون بنادق مصوبة الى ، مما جعلنى أجفل . وكان أكبر هؤلاء الرجال أشيب الشعر فى حوالى الستين من عمره ... أما الاثنان الآخران فكانت سنهما حوالى الثلاثين ؛ وكانوا جميعا حسنى الطلعة متأنقين . وكانت هناك أيضا سيدة جميلة بيضاء الشعر ، وخلفها سيدتان شابتان لم أستطع رؤيتهما جيدا ...

وقال الكهل : أظن أن كل شيء على ما يرام ... أدخل .

وما كدت أدخل ، حتى أغلق الكهل الباب بالأقفال والمزالج ، وطلب من الشابين أن يتقدما ببندقيتيهما ، ومضى الجميع الى قاعة استقبال كبيرة ، غطيت أرضها بسجادة جديدة ، وتجمهروا جميعا فى ركن بعيد عن النوافذ الأمامية للمنزل . وكانوا يحملون المصباح ، فتأملونى مليا على ضوئه ، وقالوا جميعـا : « انه ليس من أسرة شبردسون ... ليست به أية ملامح من هذه الأسرة » ... ثم طلب الى الكهل ألا أغضب اذا فتشنى ليتأكد من أننى لا أحمل سلاحا . وقال انه لا يبغى الاساءة الى أو جرح شعورى . ولكنه لم يضع يده داخل جيوبى وانما اكتفى بتحسسها من الخارج . ثم قال انه مكتف بذلك ، وطلب الى أن أستريح وأن أعتبر نفسى فى منزلى ! ..

ولكن السيدة الكبيرة قالت :

ــ ان ملابس الغلام مبللة يا سول ، ثم ألا تظن انه جائع ؟

ــ أصبت يا راشيل . لقد غاب عنّى ذلك .

وقالت السيدة للخادمة الزنجية بيتسى : اذهبى واحضرى له شيئا من الطعام بأسرع ما تستطيعين ، مسكين هذا الغلام ... ولتذهب احدى الفتاتين لتوقظ « باك » وتخبره بالأمر ... أوه

... ها هو قد جاء ... « باك » ... خذ هذا الغريب الصغير ، ودعه يخلع ثيابه المبتلة وقدم له بعضا من ملابسك الجافة .

كان « باك » فى حوالى سنى ـ فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ـ ولكنه أضخم منى بنيانا . ولم يكن يرتدى غير قميص . أما شعره فكان غير مصفوف . وأقبل الغلام نحوى وهو يتثاءب ويفرك عينيه باحدى يديه ، ويحمل بندقية فى اليد الأخرى ثم قال : ألا يوجد أحد من أسرة شبردسون هنا ؟

فأجابوه بالنفى وبأن ما سمعوه كان كذبا !!

ـ تعال ... لو جاء بعضهم فلا شك فى أننى سأقضى على أحدهم .

فضحكوا جميعا ، وقال بوب : لقد كان من المحتمل أن يفتكوا بنا يا « باك » لأنك تأخرت طويلا !!

ـ مهما يكن من أمر ، فان أحدا لم ينادنى .. وهذا خطأكم .. انكم دائما تتجاهلوننى ..

فقال الكهل : هون عليك يا « باك » . سوف تشاهد المعارك فى حينها ، فلا تقلق بالك من هذه الناحية .. امض الآن وافعل ما قالته لك أمك .

وعندما صعدنا الى غرفة الغلام بالطابق الثانى، أحضر لى قميصا خشنا ، وسروالا من ملابسه فارتديتهما . وبينما أنا أرتدى هذه الثياب سألنى الغلام عن اسمى ولكنه لم يدع لى فرصة للكلام ، فمضى يحدثنى عن الطائر أبو زريق والأرنب اللذين ظفر بهما فى الغاب منذ يومين ، وسألنى أين كان موسى عند ما انطفأت الشمعة ، فأجبته باننى لا أعلم ، لاننى لم أسمع عن شىء من ذلك من قبل .

فقال : حسنا ، اذن تكهن .

فقلت : وكيف أتكهن ، ما دمت لم أسمع أحـدا يحدثنى عن هذا الموضوع ؟

ـ ولكنك تستطيع التخمين . . أليس كذلك ؟ انالأمر سهل . .

فقلت : أية شمعة ؟

فقال : أى شمعة .

فقلت : اننى لا أعلم أين كان موسى . . فأين كان ؟

ـ يا الهى . . كان فى الظلام .

ـ حسنا . . ما دمت تعرف أين كان ، فلماذا تسألنى ؟

ـ انها «فزورة» ألم تفهم ذلك ؟ اخبرنى ، الى متى ستبقى هنا ؟ عليك أن تقيم هنا معنا حتى نقضى معا أوقاتا سعيدة كثيرة . . فان المدرسة مغلقة فى الوقت الحاضر . . هل تملك كلبا ؟ اننى أملك واحـدا ـ وهو قادر على السباحة فى النهر ليجلب لك قطعة البطاطس التى تلقيها فيه . . هل تحب تصفيف شعرك فى أيام الآحاد وما شابه ذلك من الحماقات ؟ صدقنى اننى لا أحبها ، ولكن أمى هى التى تتولى أمر مظهرى . . لعنة الله على السراويل الطويلة ، ولكننى مرغم على ارتدائها رغم اننى لا أحبها . . انها تزعجنى بما تشيعه فىالجسم من دفء . . هل أنت على استعداد ؟ حسنا . . هلم بنا .

ووجدت لحما باردا وزبدا وقشدة فى انتظارى على المائدة ، وهو ما لم أذقه من أمد طويل . ودخن « باك » وأمه والجميع الا الزنجية التى كانت قد انصرفت ، والسيدتين الصغيرتين . . كانوا جميعا يدخنون ويتكلمون . أما أنا فكنت آكل وأتكلم . وكانت السيدتان الصغيرتان تلتفان فيما يشبه السارى ، وقد تدلى شعرهما وراء ظهريهما . وراح الجميع يوجهون الأسئلة الى ، فرويت لهم قصة خيالية مؤداها ان أبى وأنا وجميع الأسرة كنا نقيم فى مزرعة صغيرة عند نهاية « أركانسو » ، وان أختى

« ماری آن » هربت وتزوجت ولم نسمع عنها أى نبأ بعد ذلك ، وكيف أن « بيل » ذهب للبحث عنهـا ولـكنه لم يعد ثانيـة . وكيف مات « توم » و « مورت » ، فلم يبق الا أبى وأنا ، وكيف ان أبى أفلس وكاد يموت جوعا ، وكيف اننى جمعت القليل الذى تبقى ورحلت ، لأن المزرعة لم تكن ملكا لنا ، وكيف أردت عبور النهر على ظهر قارب بخارى ، فسقطت فى الماء ، وهذا هو السبب فى وجودى فى هذه المنطقة ! فقالوا اننى أستطيع أن أقيم معهم اذا رغبت فى ذلك . وكان النهار قد أوشك على الطلوع فى ذلك الحين ، فآوى كل شخص الى فراشه ، وآويت أنا الى الفراش مع « باك » . وعند ما استيقظت فى الصباح كنت قد نسيت اسمى المستعار ، فبقيت راقدا فى الفراش زهاء ساعة وأنا أحاول عبثا أن أتذكره ، ثم استيقظ « باك » فقلت له : هل تستطيع التهجية يا « باك » ؟

فأجاب : نعم .

فقلت : أراهن على أنك لا تستطيع تهجية اسمى ؟

ـ أراهن انك لا تجرؤ على الاقدام على هذا الرهان !

فقلت : حسنا ، دعنى أر اننى مخطىء .

فقال : ج ـ و ـ ر ـ ج .. ج ـ ا ـ ك ـ س ـ و ـ ن .. فما رأيك ؟

فقلت : حسنا ، لقد أثبت جدارتك .

ورحت أكرر الاسم وتهجيته فى رأسى خشـية أن يطلب أحد الى ذلك .

كانت أسرة لطيفة ، وكان المنزل جميلا أيضا . بل انه لم يسبق لى أن رأيت منزلا فى الريف بمثل هذا الجمال والزخرف . لم تكن بباب المنزل (سقاطة) من الحديد أو الخشب مشدودة الى خيط تجذب منه ، وانما كان به مقبض نحاسى يدار كما هى الحال فى

منازل المدن ، وكانت هناك مدفأة كبيرة شيدت قاعدتها بالطوب الأحمر ! وفى بعض الأحايين كان أصحاب المنزل يغسلون هذه القاعدة بماء مذاب فيه طلاء أحمر مثلما يفعلون فى المدن . كذلك رأيت ساعة موضوعة فوق منتصف رف المدفأة ، رسمت فوق النصف الأسفل من واجهتها الزجاجية صورة مدينة ، كما رسمت دائرة فى وسطها تبين الشمس ، وبذلك تستطيع أن ترى البندول وهو يتأرجح خلفها . وكان لصوت الساعة وقع جميل على الأذن . وكان يحدث أحيانا أن يكون أحد اخصائيي الساعات مارا بالمنزل ، فيطلب اليه أصحابه ضبط الساعة فتبدأ فى الدق ولا تتوقف الا بعد أن تدق مائة وخمسين دقة ! ! لذلك كان أصحابها يرفضون بيعها مهما بلغ الثمن الذى يعرض عليهم .

وكان هناك ببغاء كبير على كل جانب من جانبى الساعة .. وكان كل ببغاء مصنوعا من شيء أشبه بالطباشير المطلى بلون زاه . والى جانب أحدهما وضع قط مصنوع من الخزف ، وبجوار الآخر كلب من الخزف أيضا ، فاذا ضغطت على أحدهما أطلق صراخا حادا ، ولكنهما كانا لا يفتحان فمهما ، ولا تتغير نظراتهما أو يبدو عليهما الاهتمام . أما هذا الصراخ فكان يصدر من باطنهما .. وكان ينتشر خلف هذه الأشياء جناح ديك رومى كبير على شكل مروحتين . وعلى منضدة فى منتصف الغرفة وضعت سلة جميلة من الخزف امتلأت بالتفاح والبرتقال والخوخ والعنب ، وكانت الوانها الحمراء والصفراء أجمل من الألوان الطبيعية ، ولكنها لم تكن فاكهة حقيقية ! وكان بوسعى أن أرى الطباشير الأبيض فى بعض مواضعها مما يدل على أنها مصنوعة من « الجبس » ! .

وكان لهذه المنضدة غطاء مصنوع من قماش المشمع الجميل ، له حافة مطبوعة ، كما يحمل صورة نسر منشور الجناحين

باللونين الأحمـر والأزرق . وعلمت أنهم جاءوا بهذا الغطاء من فيلاديلفيا كما قالوا ! وكان هناك أيضا بعض الكتب مرتبا بنظام بديع على جانبى المنضدة ، ميزت من بينها انجيل الأسرة وهو مملوء بالصـور ، ثم كتاب « رحلة الحاج » وهو يعالج موضوع رجل هجر أسرته ، ولكن الكتاب لم يذكر السبب ! ولقد قرات بعض فصول هذا الكتاب ، فقد كانت الحقائق الواردة فيه مثيرة للاهتمام ولـكنها جافة . وثم كتاب آخر هو (هبة الصداقة) وهو زاخر بالعبـارات المنمقة والشعر ، ولـكنى لم أقراه لاننى لا أحب الشعر ! وضمت المجموعة كتاب « خطب هنرى كلاى » وكتاب « طبيب الأسرة » للدكتور جان ، وهو كتاب طبى يخبرك عما يجب أن تفعله عندما يمرض احد افراد الأسرة أو يموت ! هذا بالاضافة الى كتاب تراتيل ومجموعة من الكتب الأخرى ! وكانت بالمنزل مجموعة من المقاعد الوثيرة التى يرتاح الانسان عند الجلوس عليها .

وكانت هناك مجموعة من الصور معلقة على الجدران ، اهمهـا صور واشنجطون ولافاييت وبعض المعارك ، وبعض هذه الصور مرسوما بالفحم . وقد علمت انها من رسم فتاة من فتيات الأسرة ، ماتت وهى فى الخامسة عشرة من عمرها ! وكانت هذه الصـور تختلف عن اية صـور رأيتها من قبل . كان سـوادها اكثر من السواد الشائع ، وكانت احداها تمثل امرأة ترتدى ثوبا اسـود رقيقا وتضع (شالا) كبيرا اسود فوق راسها وقناعا اسود ايضا فوق وجههـا ؛ وكان ثمة شريط اسـود يلتف حـول ركبتيها الرقيقتين . وكانت هذه السيدة تتكىء على شاهد قبر بجانب مرفقها الأيمن تحت شجرة صفصاف وهى تبـكى ، وقد بدت على وجهها علامات التفكير . اما يدها الأخرى فـكانت تحمل منديلا وكيسا صغيرا ، وقد كتب أسفل الصورة « هلا اراك بعد

الآن ؟ واأسفاه » وكانت هناك صورة ثانية لسيدة صغيرة تبكى في منديل ، وهي تحمل عصفورا ميتا ممددا على ظهره فى يدها الأخرى وكتب أسفل هذه الصورة : « لن أسمع تغريدك العذب بعد الآن ، واأسفاه » . وثمة صورة ثالثة لسيدة تطل من نافذة على القمر والدموع تنســاب على خديها وقد أمسكت بخطاب مفتوح فى احدى يديهــا بينما راحت تقضم بفمها قلادة معلقة فى عنقها ، وكتب تحت هذه الصورة « لقد ذهبت .. نعم ذهبت ـ واأسفاه » ، وكانت كلها صورا جميلة فيما أظن ، ولكننى لم أحبها لأنها كانت تثير حزنى دائما . وكان جميــع أفراد الأسرة آسفين لموت الفتاة لأنها كانت قد وضعت تصميم عدد آخر من الصور لم تستكملها . وكانت الفتاة ـ قبل موتها ـ ترسم أعظم صورة رسمتها فى حياتها كما قالوا ! ولقد كانت تبتهل ليل نهار الا تموت قبل أن تفرغ من رسم هذهالصورة ، ولكنالموت اخترمها قبل أن تتحقق أمنيتها .. كانت الصورة التى لم تستكملها تمثل شابة ترتدى ثوبا أبيض ، تقف على حاجز قنطرة وتتأهب للوثوب فى الماء ، وقد استرسل شعرها على ظهرها وهى تتطلع الى القمر والدموع تنحدر فوق وجنتيها ، وقد عقدت ذراعيها على صدرها بينما بسطت ذراعين آخرين أمامها ، ورفعت ذراعين آخرين نحو القمر ! وكانت الفكرة ـ كما قالوا ـ هى معرفة أحســن وضع تكون فيه الذراعان ، ثم تزال بعد ذلك الأذرع الأخرى ! ولـكن الفتــاة ماتت كما قلت قبل أن تبت فى اختيار الوضع المناسب للذراعين ، فاحتفظت الأسرة بالصورة معلقة بأعلى الفراش الذى كانت الفتاة تنام فوقه فى غرفتها . وكلما حان يوم عيد ميلادها احاطوا الصورة بالزهور . أما فى الأيام الأخرى ، فكانوا يغطونها بستار صغير . وكان للفتاة المرسومة فى الصورة وجه لطيف ، الا ان كثرة الأذرع جعلتها تبدو لى كالعنكبوت ! !

وكانت الفتاة المسكينة تحتفظ بكراسة اعتادت أن تسجل فيها المراثى والحوادث وحالات المرضى الذين يتعذبون . وكانت تكتب فيهم أشعارا جيدة ، ومن بين هذه القصائد رثاؤها لغلام اسمه « استيفن داولنج بوتس » سقط فى بئر فغرق !

واذ كانت « اميلين جرانجرفورت » ــ وهذا اسمها ــ قادرة على قرض الشعر وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، فليس هناك أدنى شك فيما كانت تستطيع أن تقرض من قصائد رائعة لو أن القدر مد فى عمرها . وقال « بالك » انها كانت تتكلم بالشعر ! كانت ترتجله .ولا تفكر فيه قبل ان تقوله !.. وقال أنها كانت تكتب شطرا ، فاذا لم تجد شيئا يتفق معه فى القافية والوزن شطبته وكتبت شطرا آخر ، ثم تمضى فى كتابة بقية القصيدة . ولم تكن الفتاة تعالج ناحية معينة ، وانما كانت تكتب عن أى شىء تختاره لها . فكلما مات رجل أو امرأة أو طفل فانها تذهب اليه حاملة معها « هديتها » ــ من الشعر ــ قبل أن يبرد جسده !. وكانت تطلق على هذه القصائد اسم « هدايا » ! وكان الجيران يقولون ان الطبيب يأتى أولا ، ثم « اميلين » ، ثم حفار القبور ؛ ولم يسبق حفار القبور « اميلين » الا فى مناسبة واحدة . وعندئذ كتبت قصيدة ملتهبة ظلت ترددها الأفواه فى رثاء الميت . وكان هذا الميت يدعى هويسلر . وبعد هذه المناسبة ساءت حالة الفتاة الصحية ، ومع انها لم تتألم فانها كانت تذوى باستمرار ولم تعش طويلا . مسكينة هذه الفتاة .. لطالما كنت أصعد الى غرفتها الصغيرة والتقط كراسة مذكراتها واقرأ محتوياتها عند ما تهولنى صورها وتروعنى .. ولقد أحببت جميع افراد الأسرة الموتى منهم والأحياء ، وكنت أعتزم الا أجعل شيئا يقف بيننا .. ولما كانت المسكينة « اميلين » تدبج الشعر عن الموتى وهى على قيد الحياة ، لذلك لم يكن من الصواب الا يرثيها احد بقصيدة

بعد موتها . ومن ثم فقد عصرت ذهنى لأكتب سطرين من النثر . ولكنى أخفقت !

أما غرفة الاستقبال ـ فقد كانت جميلة حقا . . فالستائر الجميلة تغطى نوافذها . وكانت هذه الستائر بيضاء اللون ، محلاة بصور مطبوعة لقلاع تتدلى أشجار الكروم من فوق جدرانها ، بينما تقبل قطعان الماشية لتستقى من جداول الماء ، وكان بالغرفة معزف صغير عتيق (بيانو) ولم يكن هناك ما هو أجمل من أن تستمع الى الآنسات وهن يرددن أغنية «لقد تحطمت آخر حلقة» أو يعزفن أنشودة « معركة براغ » على المعزف !

الفصل الثامن عشر

الكولونيل ((جرانجرفورت)) ـ ارستقراطية ـ ثأر ـ الكتاب المقدس ـ (الثعابين المائية) ـ استعادة العائمة ـ كومة الأخشاب ـ لحم الخنزير والكرنب ـ ((أهذا أنت يا حبيبى ؟))

كان الكولونيل « جرانجر فورت » ـ مضيفى ـ سيدا مهذبا بمعنى الكلمة . وكذلك كانت أسرته كلها مهذبة . . كان من عنصر طيب المولد كما يقول المثل ؛ ولهذا العنصر بالنسبة للانسان اهمية لا تقل عن أهميته بالنسبة للخيل كما قالت لى الأرملة دوجلاس التى لم ينكر أحد انها فى مقدمة الارستقراطيين فى بلادنا !. ولقد قال أبى ذلك أيضا ، مع انه لم يكن من ذوى الأخلاق الفاضلة . .

وكان الكولونيل « جرانجر » رجلا فارع الطول . أما بشرته فكانت سمراء ممتقعة ليس فيها أثر للاحمرار . وكان يحلق وجهه النحيل كل صباح . وكانت شفتاه أرفع شفتين رأيتهما . وكان أنفه طويلا ، كما كان حاجباه كثيفى الشعر . أما عيناه فكانتا سوداوين فاحمتين غائرتين جدا ، حتى لكأنهما تنظران اليك من كهفين . وكانت جبهته عالية ، كما كانت يداه طويلتين رفيعتين . وكان الرجل يرتدى كل يوم قميصا نظيفا وبذلة كاملة من رأسه الى اخمص قدميه ، مصنوعة من كتان ناصع

البياض الى درجة تؤذى عينيك اذا تطلعت اليهـا . أما فى ايام الآحاد ، فكان يرتدى سترة زرقاء ، لها ذيل بأزرار نحاسية ؛ ويحمل عصا من الخشب الفاخر لها رأس من الفضة . ولم يكن منظر الرجل يوحى بأنه مستهتر أو طائش ؛ كما انه لم يكن يرفع صوته أثناء الكلام . وكان شفوقا طيب القلب يوحى لمن يراه بالثقة به . وكان يبتسم أحيانا ، فيبدو منظره لطيفا . ولم يكن الرجل بحاجة الى تنبيه الناس الى اتباع قواعد الأخلاق فى حضرته ، فقد كانوا جميعا يحترمونه ويحبون أن يتحدثوا اليه . بل انه كان أشبه بشروق الشمس !. واقصد بذلك انه كان يجعل الناس يشعرون وكأنهم يستمتعون بدفء حديثه .

وكانت أسرته تحترمه ، فكلما هبط بصحبة السيدة العجوز من الطابق العلوى كل صباح ، هبت الأسرة كلها واقفة لتحييهما تحية الصباح ؛ ولا يجلس أحد حتى يجلس الاثنان .

أما أفراد الأسرة ـ عدا « باك » ـ فكانوا أربعة ... « بوب » أكبر أبناء الأسرة ، ويتلوه « توم » . وكان الاثنان شابين طويلى القامة جميلين ، عريضى المنكبين ، سمراوى الوجه ، شعرهما طويل أسود ، وعيناهما سوداوان . وكانت ثيابهما مصنوعة من الكتان الأبيض كثياب أبيهما . كما كانا يرتديان قبعتين من قبعات «بناما» العريضة .

وتأتى بعدهما الآنسة « شارلوت » . وكانت فى الخامسة والعشرين من عمرها ، طويلة القامة ، تبدو عليها امارات العظمة والكبرياء ، ولكنها كانت طيبةالقلب وهى هادئة ! أما اذا أثيرت فان نظرة تنبعث من عينيها كافية لأن تجعلك تنكمش فى مكانك ! ولكنها كانت ـ رغم ذلك ـ جميلة !

أما اختها الآنسة « صوفيا » ، فقد كانت ذات طابع مختلف .. كانت فى العشرين من عمرها ، رقيقة لطيفة مثل الحمامة .

وكان لكل فرد في الأسرة زنجية أو زنجي يقوم على خدمته ! ولقدكان الزنجي الذي قام على خدمتي مرتاحا الى وجودي ، لأنني لم أبهظ كاهله بالعمل ، ذلك انني لم أعتد الاعتماد على خادم يخدمني ! أما الزنوج الآخرون ، فقد كان العمل يثقل كواهلهم .

تلك كانت حال الأسرة وقتذاك . اما قبل ذلك ، فقد كانت الأسرة أكبر عددا ... اذ قتل ثلاثة أبناء وماتت ابنة كانت تدعى « اميلين » .

وكان الكهل يملك عددا كبيرا من المزارع وأكثر من مائة زنجي . وفي بعض الأحايين ، كانت مجموعة كبيرة من الناس تفد على المنزل على ظهور الجياد من أمكنة تبعد عشرة أميال أو خمسة عشر ميلا ، ويمكثون بضعة أيام يقومون خلالها برحلات كثيرة حول النهر ويقومون برحلات في الغابات أثناء النهار ، كما يقيمون حفلات للرقص بالمنزل ليلا . وكان معظم هؤلاء الزائرين من أصدقاء الأسرة الاخصاء . وكان الرجال منهم يحضرون بنادقهم معهم ... وخلاصة القول كان هؤلاء القادمون على خلق حميد .

وكانت هناك أسر ارستقراطية أخرى تعيش في هذه المنطقة .. خمس أو ست أسر ، يحمل معظمها اسم « شبردسون » وهي أسر عريقة تتمتع بالثراء العظيم والجاه مثل أسرة «جرانجفورد» ، وكانت أسرتا « شبردسون » و « جرانجفورد » تستخدمان مرفا واحدا للقوارب يبعد حوالي ميلين عن المنزل . وكنت أذهب أحيانا مع بعض أفراد الأسرة الى هذا المرفأ ، فأرى هناك أفرادا كثيرين من أسرة « شبردسون » ممتطين صهوات جيادهم الجميلة .

وذات يوم كنت و « باك » نصطاد بعيدا في الغاب ، وسمعنا وقع حوافر جواد مقبل ، وكنا نعبر طريقا فصاح « باك » فجأة :

ـ أسرع ، بادر بالدخول الى الغاب .

واختفينا داخل الغاب على عجل ، ثم أخذنا نختلس النظر من

خلال أوراق الشجر ، وسرعان ما رأينا شابا جميلا مقبلا على الطريق فوق صهوة جواد أصيل . وكان منظر الشاب وسهولة جلسته يجعلانه يبدو كجندى . وكان يثبت بندقيته على كتفه . وكنت قد رأيت هذا الشاب من قبل ... لقد كان « هارفى شبردسون » الصغير ، وسمعت بندقية « باك » تنطلق بجوار أذنى . وفى التو ، طارت قبعة « هارفى » من فوق رأسه . وجذب الشاب بندقيته واندفع الى المكان الذى كنا نختبىء فيه ، ولكننا لم ننتظر ، فقد اندفعنا نركض بكل قوانا داخل الغاب . ولكن الغاب لم يكن كثيفا ، فتطلعت من فوق كتفى لأتحاشى الرصاص ، فقد رأيت « هارفى » يصوب بندقيته الى « باك » مرتين ؛ ولكنه سرعان ما كف عن ملاحقتنا وكر عائدا من حيث اتى ليلتقط قبعته فيما أعتقد ، وان كنت لم أره يفعل ذلك ، ولم نتوقف عن الركض حتى وصلنا المنزل . وهناك قابلنا الكهل ... تألقت عيناه لحظة ، ولم يكن منظره ينبىء عن سرور ، ولكن أسارير وجهه لم تلبث أن انفرجت ، ثم قال بلهجة رفيقة :

— انني لا أحب اطلاق النار من وراء الشجيرات ! لماذا لم تعترض طريقه يا بنى ؟

فقال « باك » :

— ان آل « شبردسون » لا يفعلون ذلك يا أبى !

ورفعت الآنسة « شارلوت » رأسها بكبرياء كما تفعل الملكات ، بينما كان « باك » يسرد قصته . ثم انتفخت أوداجها وتألقت عيناها . أما الشابان ، فقد تجهم وجهاهما وأن لم ينطقا ببنت شفة . وأما « صوفيا » فقد امتقع لونها ، ولكن الدم لم يلبث أن سرى فى وجنتيها عند ما تبينت أن الكهل لم يثر أو يغضب .

وحينما اختليت بالشاب « باك » قلت له :

— هل كنت تريد قتله يا « باك » ؟

ـ نعم .
ـ وماذا فعل لك ؟
ـ هو ؟ . . . انه لم يفعل شيئا .
ـ اذن لماذا كنت تريد قتله ؟
ـ لا لشيء . . . الا للثأر .
ـ أى ثأر ؟
ـ أين نشأت يا هاك ؟ ألا تعرف ما هو الثأر ؟
ـ انني لم أسمع هذه الكلمة من قبل ، فسرها لى .

فقال « باك » : الثأر هو أن يشتبك رجل مع آخر فى عراك فيقتله ؛ وعندئذ يقوم أخو القتيل بقتل القاتل ، فيقوم أخو القتيل بقتل القاتل وهلم جرا ، الى أن ينتهى الاخوة ؛ فيتولى القتل أبناء العم ! وهكذا يموت الجميع على مر الزمن ، فلا يكون هناك ثأر ! ولكن الأمر يسير ببطء ويستغرق وقتا طويلا .

ـ وهل مضى وقت طويل على هذه الحال يا « باك » ؟

ـ أظن ذلك . . . لقد بدأ الخلاف منذ ثلاثين عاما أو أكثر . . . فقد نشأ خلاف على شيء ما ، ثم تحول الخلاف الى دعوى قضائية للبت فى الأمر ، وخسر أحد الخصمين القضية طبعا ، وعندئذ قتل الرجل الذى ربحها !

ـ وماذا كان سبب الخلاف يا « باك » ؟ . . أرض ؟

ـ أظن ذلك ، وان كنت لا أعلم على وجه التحقيق .

ـ ومن الذى بدأ باطلاق النار ؟ أهو أحد أسرة « جرانجفورد » أم أحد أفراد أسرة « شبردسون » ؟

ـ يا الهى . . . انى لا أعرف ؟ لقد حدث ذلك منذ أمد طويل .

ـ ألا يعلم أحد ذلك ؟

ـ أوه . . . بالطبع أبى يعرف . . . كذلك يعرفه بعض الكهول

من أفراد الأسرة الأخرى ... ولكنهم لا يعلمون الآن لماذا نشأ الخلاف أول الأمر .

ــ وهل قتل كثيرون يا « باك » ؟

ــ نعم ... لقد سارت جنازات كثيرة فى تلك الفترة . ولكن كثيرا من الاشتباكات لم تكن تنتهى دائما بالقتل . فقد أصيب أبى عدة مرات ولكنه لا يبالى ، لأنه لا يقيم لمثل لهذه الأمور وزنا ... كذلك أصيب « بوب » و « توم » عدة مرات .

ــ وهل قتل أحد هذا العام يا « باك » ؟

ــ نعم . قتل واحد منا وواحد منهم . فمنذ حوالى ثلاثة شهور ، كان ابن عمى « باد » البالغ من العمر أربعة عشر عاما يمتطى صهوة جواده فى الغاب على الجانب الآخر من النهر ولم يكن معه سلاح ، وهى حماقة لا تغتفر ؛ وعند ما كان يمر ببقعة منعزلة سمع وقع جواد مقبل فى أثره ، ثم رأى « شبردسون » العجوز يجد فى أثره وبندقيته فى يده وشعره الأشيب يتطاير فى الهواء . وبدلا من أن يترجل « باد » ويلوذ بالغاب ، ظن أنه يستطيع أن يسبق الكهل ، فدارت بين الاثنين مطاردة حامية استمرت خمسة أميال أو أكثر . وكان الكهل يقترب رويدا رويدا من « باد » طوال الوقت . وأخيرا أدرك « باد » انه لن يستطيع الهرب ، فتوقف واستدار الى مطارده حتى يواجه الرصاص . وتقدم الكهل منه وأطلق عليه النار فأرداه قتيلا ، ولكن القاتل لم يجد متسعا من الوقت للاستمتاع بنصره ، ففى مدى أسبوع واحد قتلته أسرتنا.

ــ أعتقد أن ذلك الكهل كان جبانا يا « باك » .

ــ أما أنا فأعتقد أنه لم يكن جبانا ، فليس بين أسرة « شبردسون » جبناء ؛ كما أنه ليس بين « آل جوانجفورد » جبناء أيضا . لقد قاتل ذلك الكهل ثلاثة من أسرة « جرانجرفورد » ذات مرة ، واستمر القتال نصف ساعة ، ثم خرج منه ظافرا !..

كانوا جميعا ممتطين صهوات جيادهم ، فأسرع الكهــل بالترجل واحتمى خلف كومة صــغيرة من الخشب ووضع جــواده أمامه ليحميه من الرصاص ، ولكن رجال أسرة « جرانجرفورد » ظلوا فوق جيادهم وراحوا يدورون حول الـكهل ويمطرونه بوابل من رصاصهم وهو يمطرهم برصاصه أيضا . ولقد عاد هو وجواده الى منزله مصابين ، ولكن رجال أسرة « جرانجفورد » لم يستطيعوا العودة ، فقد نقلوا الى المنزل محمولين ، ومات أحدهم فى تلك الليلة، ثم مات آخر فى اليوم التالى ! .. كلا يا سيدى ... اذا أراد أحد الحديث عن الجبناء ، فخير له ألا يتحدث عن أسرة « شبردسون » ، لأن هذه الأسرة لم تنجب جبناء !

* * *

وفى يوم الأحد التالى ، ذهب الجميع الى كنيسة تبعد حوالى ثلاثة أميال عن المنزل . وكان الجميع يمتطون صهوات جيادهم . وأخذ الرجال بنادقهم معهم ، وكذلك فعل « باك » . وكان الواحد منهم يضع بندقيته بين ركبتيه ، أو يسندها الى الجدار حتى تكون فى متناول يده ... وفعل آل « شبردســون » المثل ! وتحدث الواعظ عن الحب الأخوى والتعاطف ، وقال الجميع انها كانت عظة حسنة ، ولم يكفوا عن الحديث عنها عندما عادوا الى المنزل ، كما أسرفوا فى الحديث عن الايمان والأعمال الطيبة وحسن النية وغير ذلك مما لا أعلمه .

وبعد الغداء بساعة ، كان الجميع يأخذون قسطا من الراحة .. فاســتمتع البعض بالراحة وهم جلوس فوق مقــاعدهم ، بينما استمتع البعض الآخر بها فى غرفهم مما جعل المنزل يبدو شديد الكآبة . وكان « باك » وكلبه راقدين فوق الحشائش المشمســة خارج الدار . أما أنا ، فقد صعدت الى غرفتى لأنال قســطا من

النوم بدورى ! والتقيت بالآنسة « صوفيا » الجميلة عند باب غرفتها التى تجاور غرفتنا ، وبعد أن تبادلنا التحية سألتنى أن أؤدى لها خدمة دون أن أخبر بذلك أحدا ... قالت آنها نسيت انجيلها بين كتابين كانا موضوعين على المقعد فى الكنيسة ؛ وطلبت منى أن أتسلل من المنزل بهدوء وأذهب الى الكنيسة وأحضر لها انجيلها دون أن أخبر أحدا بذلك .

وتسللت من المنزل ، وانطلقت فى الطريق ، وذهبت الى الكنيسة . ولم أجد بها أحدا اللهم الا خنزيرا أو اثنين ، لأن باب الكنيسة لم يكن مغلقا بقفل ... والخنازير تحب التمرغ على البلاط أثناء الصيف للاستمتاع ببرودته ! !

وقلت لنفسى ان فى الأمر شيئا ، فليس من الطبيعى أن تبدى احدى الفتيات مثل هذه اللهفة على انجيلها ! وعند ما هززت الانجيل سقطت منه قطعة صغيرة من الورق كتب عليها « الساعة الثانية والنصف » بالقلم الرصاص ... وفتشت الانجيل ولكننى لم أجد شيئا آخر . ولم أستطع أن أفهم معنى هذه العبارة ، فأعدت الورقة الى الكتاب ثانية . وعندما عدت الى المنزل وصعدت الى الطابق العلوى وجدت الآنسة « صوفيا » فى انتظارى عند باب غرفتها . وعندما أخذت الانجيل منى بحثت بين أوراقه حتى عثرت على الورقة . وما أن قرأتها حتى بدا عليها السرور ! وشكرتنى ثم طلبت منى مرة أخرى ألا أخبر أحدا بما فعلت . وكان وجهها شديد التوهج وعيناها لامعتين ، مما جعلها تبدو فاتنة ! ولقد دهشت لذلك أيما دهشة . وما كدت ألتقط أنفاسى اللاهثة حتى سألتها عن تلك الورقة ، فسألتنى ان كنت قد قرأتها ، فأجبت بالنفى ! فسألتنى ان كنت أعرف القراءة فأجبت بالنفى أيضا ! وعندئذ قالت ان قطعة الورق لم تكن أكثر من مجرد علامة لمعرفة المكان الذى توقفت فى القراءة عنده ! ثم صرفتنى لألعب !

غادرت المنزل الى النهر ، وانا افكر فى الأمر . وسرعان ما لاحظت أن خادمى الزنجى يتبعنى من بعد . وعند ما أصبحنا بعيدين عن المنزل تطلع الزنجى خلفه وحوله لحظة ، ثم أقبل راكضا ، وقال :

ـ اذا جئت معى الى المستنقع يا مستر جورج ، فسأريك كمية هائلة من الثعابين المائية !

وعجبت لذلك أشد العجب ، فقد سمعته يقول ذلك بالأمس أيضا . وكان ينبغى أن يدرك هذا الزنجى اننى لا أحب رؤية ثعابين الماء الى الدرجة التى تدفعنى الى البحث عنها ؛ وعندئذ أيقنت أن فى الأمر شيئا !

قلت له : اذن امض أمامى !

وتبعته مسافة نصف ميل . وعندئذ اشرفنا على مستنقع خاضه الزنجى الى أن بلغ الماء ركبتيه وأنا فى أثره . وبعد أن قطعنا نصف ميل آخر أشرفنا على رقعة أرض مسطحة جافة بها أشجار كثيفة وكروم .

وقال الزنجى : ادخل .. ثم تقدم خطوات قليلة يا مستر جورج وستجد الثعابين المائية .. فقد سبق لى أن رأيتها .. ولست أعلم هل ستجدها أم لا !

ثم انثنى وكر عائدا من حيث أتى ؛ وسرعان ما اختفى بين الأشجار ، فرحت أتجول هنا وهناك حتى عثرت على بقعة مكشوفة تحيط بها الكروم من كل جانب . وهناك وجدت رجلا نائما ! وكان هذا الرجل هو صديقى القديم « جيم » ! !

أيقظته .. وكنت أتوقع أن تكون رؤيته لى مفاجأة عظيمة له ، ولكنه لم يدهش ! لقد كان مسرورا ، وكان يوشك أن يبكى من فرط الفرح ! وقال لى انه كان يبحث عنى فى تلك الليلة ، وكان يسمع صياحى كل مرة ، ولكنه لم يرد على لأنه كان يخشى ان

يقبض أحد عليه ويعيده الى حياة العبودية !

ثم قال :

ــ لقد أصبت فى تلك الليلة اصابة خفيفة ولم أستطع السباحة بسرعة ، ولهذا تأخرت عنك طويلا فى النهاية .. ولقد ظننت اننى سأتمكن من اللحاق بك ، ولكننى ما كدت أرى ذلك المنزل حتى ابطأت فى سيرى ، ولم ألبث أن سمعت أصحابه يتحدثون اليك ، ولكنى لم أستطع سماع حديثكما لبعدى ولخوفى من الاقتراب من الكلاب . وعندما هدأ كل شيء أدركت أنك دخلت المنزل ، فمضيت الى الغاب حتى يطلع النهار . وفى ساعة مبكرة من الصباح ، أقبل بعض الزنوج فى طريقهم الى الحقول فأخذونى وأرونى هذا المكان الذى لا تستطيع الكلاب أن تقتفى أثرى فيه بسبب الماء ، وكانوا يجيئوننى بالطعام كل ليلة وينقلون لى أنباءك .

فقلت له :

ــ ولماذا لم تطلب من خادمى « جاك » أن يجيء بى الى هنا قبل ذلك ؟

ــ لم تكن هناك فائدة من ازعاجك يا « هاك » .. وعلى أية حال ، فاننا بخير الآن .. اننى أبتاع الآن الآنية والأوعية والضرورات كلما سنحت لى فرصة ، كما اننى أصلح العائمة فى الليل عند ما ....

ــ أية عائمة يا جيم ؟

ــ عائمتنا القديمة .

ــ هل تعنى ان عائمتنا القديمة لم تتحطم تماما ؟

ــ كلا ، انها لم تتحطم تماما ، وان كان قد أصابها تلف كبير .. ولكننا فقدنا معظم متاعنا ، فلو أننا لم نغطس الى هذا العمق الكبير تحت الماء ولم يكن الظلام دامسا فى تلك الليلة ولم نكن فزعين مذعورين ، لأمكننا انقاذ العائمة بما فيها !

فقلت له :

ــ وكيف استطعت الحصول على العائمة ثانية يا جيم ؟.. هل لحقت بها ؟

ــ كيف يمكن اللحاق بها وأنا فى الغاب ؟.. لقد عثر بعض الزنوج عليها مصطدمة بشجيرة عند المنحنى القريب من هنا فأخفوها فى خليج بين أشجار الصفصاف . وكان الزنوج يكثرون من الحديث عنها وعمن عساه يصبح صاحبها ، فقلت لهم أن أحدا منهم لن يصبح صاحبها لأنها ليست ملكا لأحد منهم وانما هى ملك لك ولى . وحذرتهم من سرقة أى شىء او اخفاء أى شىء يملكه شاب أبيض ! ثم أعطيت كل واحد منهم عشرة سنتات ، ففرحوا بذلك وودوا لو جاءت عدة عائمات أخرى ليصبحوا من الأثرياء !.. ان هؤلاء الزنوج يعاملوننى خير معاملة ، فكلما طلبت منهم أن يفعلوا شيئا من أجلى ، بادروا الى تلبية طلبى بلا ابطاء.. ان جاك زنجى طيب ، فضلا عن انه ذكى !

ــ نعم ، انه لكذلك ، ولكنه لم يقل لى اطلاقا انك هنا ؛ وانما طلب منى أن آتى الى هنا ليرينى كثيرا من الثعابين المائية .. فاذا حدث شىء ، استطاع أن يفلت بجلده من النتائج ويقول ــ بحق ــ انه لم يرنا معا !

* * *

لن أطيل الحديث عن اليوم التالى ، ولعله من الأفضل ان اوجز فى سرد حوادثه .. لقد استيقظت عند الفجر تقريبا ، وهممت بالنوم ثانية عند ما لاحظت أن المنزل كان هادئا بشكل غير مألوف .. لقد خيل الى أنه لايوجد به مخلوق ، ولم يكن ذلك امرا عاديا . ولم ألبث ان لاحظت ان « باك » غير موجود ، فنهضت من الفراش وأنا شديد العجب ، وهبطت الى الطابق الأسفل فلم

اجد أحدا .. كان كل شيء هادئا وكأنما تحول المنزل الى مقبرة . وكان الهدوء مستتبا فى الخارج أيضا ، فأخذت أتساءل عن معنى ذلك . وعندما وصلت الى كومة الأخشاب بالغاب التقيت بخادمى « جاك » فسألته :

ـ ما معنى هذا ؟

فأجاب : ألا تعلم ما حدث يا سيد جورج ؟

ـ كلا .. لا أعلم شيئا .

ـ لقد هربت الآنسة « صوفيا » .. هربت أثناء الليل وان كان أحد لا يعلم متى هربت .. لقد هربت لتتزوج من ذلك الشاب « هارفى شبردسون » .. هكذا سمعتهم يقولون ! وعندما اكتشفت الأسرة الأمر منذ حوالى نصف ساعة وربما ، أكثر قليلا ، لم تضع وقتا .. بادر الجميع بركوب جيادهم والتسلح ببنادقهم بسرعة لم يسبق لى أن رأيت لها مثيلا ، أما النسوة ، فقد ذهبن للاستنجاد بالأقارب ، وأما الكهل « سول » والشبان فقد حملوا بنادقهم وركبوا جيادهم وانطلقوا الى النهر للحاق بالشاب وقتله قبل أن يعبر النهر بالآنسة « صوفيا » .. أكبر ظنى اننا سنشاهد وقتا عصيبا يا سيدى !

ـ لقد انصرف باك بغير أن يوقظنى !

ـ اعتقد ذلك .. لم يريدوا اقحامك فى الأمر .. لقد حشا السيد « باك » بندقيته بالرصاص ، وقال انه اما أن يقتل أحد أفراد أسرة « شبردسون » أو ينفجر غيظا .. وبالنظر الى أن صداما مروعا سيقع بين الأسرتين ، فمن الأرجح أن تتحقق أمنيته ! .

وانطلقت نحو النهر باقصى سرعة مستطاعة ؛ ولم ألبث أن سمعت صوت طلقات نارية بعيدة . وعندما وصلت الى مخزن الكتل الخشبية والمرفأ الخشبى الذى ترسو القوارب التجارية

عنده ، أخذت ازحف بين الأشجار والأعشاب حتى عثرت على مكان ملائم . ثم تسلقت احدى الأشجار العالية ، ورحت أراقب مايحدث ! . . كان هناك أربعة أو خمسة رجال يتواثبون بجيادهم فى المنطقة المكشوفة أمام مخزن الخشب وهم يسبون ويتصايحون ويحاولون الظفر بغلامين يحتميان بالمرفأ الخشبى الذى ترسو القوارب التجارية عنده بغير أن يجرؤوا على الخروج من ورائه . وكان الرجال يطلقون النار على الغلامين كلما حاول أحدهما الخروج من مكمنه . وكان الغلامان يجلسان القرفصاء ظهراً الى ظهر خلف كومة من الخشب حتى يستطيعا رؤية جانبى الطريق !

وبعد قليل ، كف الرجال عن التواثب والصياح ، وانطلقوا نحو مخزن الخشب . . وعندئذ نهض أحد الغلامين ، ورفع بندقيته من فوق حافة المرفأ وأطلقها . وفى التو سقط أحد الرجال من فوق جواده . وعندئذ ترجل زملاؤه وجذبوا المصاب وبدأوا يحملونه الى مخزن الأخشاب . وفى تلك اللحظة بدأ الغلامان يركضان بكل قوتهما حتى وصلا الى منتصف المسافة بين المرفأ والشجرة التى كنت أختبىء فوقها . وعندئذ تنبه الرجال فوثبوا فوق ظهور جيادهم . . وظلت المسافة بين الغلامين وهؤلاء الرجال تضيق ، ولكن الغلامين استطاعا أن يصلا فى النهاية الى كومة الأخشاب وتسللوا خلفها ، وبذلك أصبحا بمأمن من انتقام الرجال ، وكان « باك » أحد هذين الغلامين . أما الغلام الآخر ، فكان شابا نحيف القامة فى حوالى التاسعة عشرة من عمره . .

وتلكأ الرجال قليلا ، ثم لكزوا جيادهم واندفعوا مبتعدين . وما أن غابوا عن الأنظار حتى ناديت على « باك » وأنبأته بذلك . ولم يستطع « باك » أن يدرك صوتى المنطلق من فوق الشجرة فى بادىء الأمر . وبدت عليه أمارات الدهشة ، ثم طلب منى أن أراقب المنطقة جيدا وأن أنبهه اذا عاد الرجال مرة ثانية ، وقال

انهم لا شك يدبرون خطة شيطانية وأن غيبتهم لن تطول .. ولكم تمنيت لو كان فى استطاعتى أن أهبط من فوق الشجرة ولكنى لم أستطع . وبدأ « باك » يبكى ويقول انه وابن عمه جو (وكان هذا هو الشاب الآخر) لم ينتهيا من مهمتهما فى هذا اليوم . وقال ان أباه وأخويه قتلوا كما قتل اثنان أو ثلاثة من الأعداء . وقال ان أفراد أسرة « شبردسون » يتربصون له ! ثم قال « باك » انه كان يجدر بأبيه وأخويه أن ينتظروا وصول أقاربهم ، لأن أسرة شبردسون كانت أقوى منهم كثيراً . وسألته عما آل اليه مصير « هارفى » الصغير والآنسة « صوفيا » ، فأجاب بانهما عبرا النهر وأصبحا آمنين . ولقد سررت لذلك ، رغم أن « باك » كان حزينا وكسيف البال لأنه لم يوفق الى قتل «هارفى» قبل أن يعبر النهر !

وفجأة ، دوى صوت الرصاص المنهمر من كل مكان .. فالرجال قد داروا دورة كبيرة فى الغاب وجاءوا بجيادهم من خلف الغلامين ، ووثب الغلامان واندفعا الى النهر ، فأصيب كل منهما . وبينما كانا يسبحان مع التيار ، ركض الرجال الى الشاطىء وهم يطلقون الرصاص عليهما ويصيحون « اقتلوهما ، اقتلوهما » . وهنا دار رأسى وكدت أسقط من فوق الشجرة . ولكم تمنيت لو أننى لم آت الى الشاطىء فى تلك الليلة لأرى مثل هذا المنظر الرهيب . ان هذا المنظر ما زال يتمثل أمام عينى كثيرا بالنهار ، ويتراءى لى فى أحلامى ..

وبقيت فوق الشجرة الى أن بدأ الليل يرخى سدوله ، فقد تملكنى خوف عظيم . وكنت أسمع صوت طلقات البنادق بعيدا فى الغاب ، كما رأيت جماعات صغيرة من الرجال تمر مرتين أمام مخزن الأخشاب وقد أعدت بنادقها للاستعمال فأدركت أن المشاكل لم تنته بعد . كان قلبى ينفطر حزنا .. وقررت ألا

أقترب من المنزل مرة أخرى ، لأننى اعتبرت نفسى مسئولا الى حد ما عما حدث ؛ فقد رجحت أن المعنى الذى كانت قصاصة الورق تحمله هو أن تقابل الآنسة « صوفيا » صديقها « هارفى » حوالى الساعة الثانية والنصف لتهرب معه . وحكمت بأنه كان من الواجب على أن أبلغ أباها بأمر قصاصة الورق هذه وبما بدا من تصرفات ابنته . ولو أننى فعلت ذلك لكان من المحتمل أن يشدد أبوها الرقابة عليها فلا تهرب ، ولما وقعت هذه المذبحة .

وعندما هبطت من فوق الشجرة لم أحاول العودة الى المنزل ، وانما أخذت أضرب فى الغابة حتى بلغت المستنقع . ولم أجد « جيم » فى جزيرته ، فأسرعت مهرولا الى الخليج ، وأخذت أشق طريقى بين أغصان أشجار الصفصاف وأنا أشد ما أكون لهفة على الوصول الى العائمة والرحيل فورا عن هذه المدينة المخيفة ، ولكنى لم أجد أثرا للعائمة ، وانتابنى فزع شديد ، واستعصى على التنفس دقيقة ، ثم أطلقت صيحة ثاقبة ، وعندئذ سمعت صوتا يبعد عنى حوالى ٢٥ قدما يقول :

— أحسنت يا غلام . . أهذا أنت يا حبيبى ؟ لا تحدث أية ضوضاء .

كان ذلك الصوت صوت جيم ، وشعرت حينذاك بأننى لم أسمع صوتا أجمل ولا أعذب منه من قبل . وأسرعت أركض فوق الشاطىء حتى بلغت مكان العائمة ، فوثبت فوقها ، وعندئذ جذبنى « جيم » واحتضننى اعرابا عن سروره لرؤيتى ثم قال :

— فليباركك الله يا غلام . لقد كدت أعتقد أنك قتلت . . كان « جاك » هنا وقال انه يعتقد أنك قتلت بالرصاص لأنك لم تعد للمنزل ؛ ومن ثم أعددت العائمة للرحيل ، وكنت سأرحل بها بمجرد أن يعود « جاك » ويؤكد لى أنك قتلت . . يا الهى ، كم أنا مسرور بعودتك يا عزيزى .

فقلت : لن يعثروا على يا « جيم » .. وسيعتقدون اننى قتلت وأن جثتى غاصت فى النهر ، فهناك ما سوف يجعلهم يرجحون ذلك ، فلا تضع لحظة من الوقت يا « جيم » .. هيا اطلق العائمة الى عرض النهر بأقصى سرعة تستطيعها .

ولم أشعر بالارتياح الا عندما أصبحت العائمة فى قلب نهر المسيسبى وعلى مبعدة ميل من ميدان المذبحة الرهيبة . وعندئذ أضأنا مصباحنا وعلقناه بعد أن رجحنا أننا أصبحنا أحرارا آمنين . ولم أكن قد تناولت طعاما منذ اليوم السابق ، فأعد لى «جيم» وجبة من الخبز والزبد واللحم والكرنب وبعض الخضروات. ولم يكن فى الدنيا ما هو أشهى من تلك الوجبة فى ذلك الوقت العصيب . وبينما كنت أتناول عشائى ، أخذنا نتحدث وقضينا وقتا طيبا .. كنت أشعر بأعظم السرور لأننى استطعت الافلات من الثار .. كذلك كان جيم سعيدا لفراره .. وأخيرا أدركنا أن « العائمة » خير من جميع المنازل .. فالمنازل كلها ، على ما يبدو ، مقيدة للحرية خانقة لها ، على حين أن العائمة ليست كذلك . ففيها يشعر الانسان بأنه حر ومرتاح !

الفصل التاسع عشر

الرسو أثناء النهار ـ نظرية فلكية ـ « الكلاب قادته » ـ دوق أوف برديد جووتر ـ المتاعب الملكية .

مضى يومان أو ثلاثة ايام .. ومر الوقت بسرعة حتى لكأنه كان يسبح بنا . وكان النهر عريضا جدا ومخيفا فى هذه المنطقة .. كان اتساعه يصل أحيانا الى ميل ونصف ميل .. وكنا نبحر بالليل ونختبىء بالنهار . وكنا كلما انقضى الليل ، نكف عن الملاحة ونرسو .. وكنا نرسو دائما فى الماء الراكد تحت شجرة قنب ، ونقطع أعواد أشجار القطن الصغيرة والصفصاف ونغطى بها العائمة لنخفيها عن الأنظار .. ثم نلقى بالشص فى الماء لصيد السمك .. وكنا نستحم فى النهر حتى ننتعش وتبرد أجسامنا ، ونمضى الى داخل النهر حتى يصل ماؤه الى ما فوق ركبتينا ، ونظل واقفين حتى نرى مطلع الفجر بينما السكون يسود الكون كله ؛ وكأنما الدنيا كلها نائمة اللهم الا تلك الضفادع الكبيرة التى كان نقيقها يعكر صفو السكون من حين لآخر . وكان أول شىء نراه حينما نتطلع عبر النهر ، هو الغابات المنتشرة على الشاطىء المقابل ، ولم نكن نستطيع أن نميز شيئا غير ذلك ؛ وكنا نرى بعد ذلك منطقة مصفرة فى السماء ، يزداد اصفرارها ثم ينتشر ، وبعدئذ

يلمع ماء النهر ، ويزداد لمعانا من بعيد ، فلا يبدو معتما كما كان من قبل ، وانما يتحول الى لون رمادى ؛ وعندئذ كنا نرى نقطا صفراء مظلمة تطفو على سطح الماء من بعيد .. وهى مراكب تجارية أو ما شابهها .. كما كنا نرى خطوطا طويلة سوداء هى العائمات .. وكنا أحيانا نسمع صريرا أو أصواتا مختلطة ، ذلك أن السكون المطبق يوحى للانسان بأنه يسمع أصواتا منطلقة من بعيد .. ثم لا نلبث أن نرى خطا فوق صفحة الماء يجعلنا منتظره نعرف أن هناك شجيرة فى النهر يرتطم بها التيار المندفع ؛ كما كنا نرى الضباب وهو يتجمد صاعدا فوق صفحة الماء ؛ ثم يحمر لون السماء كما يحمر لون ماء النهر من ناحية الشرق ! كذلك كنا نرى كتلا من الأخشاب عند حافة الغابات بعيدا على الشاطىء الثانى للنهر حيث توجد مخازن الأخشاب .. وبعدئذ كان يهب نسيم عليل ينعشنا ويحمل الينا رائحة زكية من الغابات المملوءة بالأزهار ، ولكنه لم يكن يحمل رائحة زكية بعض الأحيان ؛ فبعض الناس يتركون الأسماك الميتة وغيرها من القاذورات فى العراء فتتعفن وينقل النسيم رائحتها الكريهة الى الأنوف .. وبعدئذ تشرق الشمس ويبتسم كل شىء مع شروقها فتمر بنا الطيور وهى تغرد بأعذب الألحان ..

وكنا بعد ذلك نجذب « النص » من الماء ونحمل ما علق به من أسماك ، لنعد وجبة ساخنة ؛ وبعدئذ نجلس فى تكاسل ثم ننام .. وكنا بعد أن نستيقظ ، نتطلع حولنا ، وننفق ساعة من الوقت أو نحوها بغير أن نرى أو نسمع شيئا ! ثم لا نلبث أن نرى عائمة تمر من بعيد وفوقها رجل يقطع الأخشاب ، فالناس كثيرا ما يفعلون ذلك فوق العائمات ؛ فنرى الفأس وهو يلمع الى أعلى ثم يهوى ، فلا نسمع شيئا ، ثم نرى الفأس وهو يلمع عند ارتفاعه ، وعند ما يصل الى ما فوق حامله نسمع قرقعة تحطيم

الأخشاب !.. فصوت تحطم الخشب لا يصل الى الأذن عبر صفحة الماء الا بعد وقت طويل .. وكنا نقضي بقية النهار في كسل وخمول ، نتطلع الى العائمات والسفن الشراعية التى تمر بنا .. وفى ذات مرة مرت بنا عائمة ، وربما كانت مركبا تجاريا ، بالقرب منا .. وكانت قريبة جدا حتى لقد استطعنا أن نسمع صوت ركابها وهم يتكلمون ويضحكون ويسبون .. سمعناهم بوضوح ولكننا لم نستطع أن نرى الركاب انفسهم ، فارتعدنا لأن مرورهم بالقرب منا كان أشبه بمرور « الأرواح » ! فقال « جيم » انه يعتقد أنها أرواح !

وكنا كلما حل المساء ، نندفع بالعائمة فى النهر .. وعندما نبلغ قلب النهر تقريبا ، نكف عن توجيهها وندعها تطفو أينما يدفعها التيار ، ثم ندلى ساقينا فى الماء ونتحدث فى مختلف الموضوعات !

وفى بعض الأحايين كنا نتمتع بالنهر كله وحدنا ، لفترات طويلة من الزمن ... كنا نملك كل شيء ... الشطآن والجزر فى عرض النهر ... وكنا نرى كل شيء ... ضوء الشموع التى تلمع من وراء نافذة أحد الأكواخ ... وشرارة أو اثنتين تنبعثان من عائمة أو سفينة تجارية ... وكنا نسمع كل شيء ... صوت قيثارة أو أغنية تنبعث من احدى العائمات ... والحق ان الحياة فوق العائمة كانت جميلة وحلوة ... فالسماء فوقنا تزركشها النجوم. وكم كنا نستلقى على ظهورنا ونتأملها ونتساءل عما اذا كانت قد صنعت أم وجدت ! قال لى جيم يوما انها صنعت ، ولكنى قلت انها وجدت ، لأننى أعتقد أن صناعة هذا العدد الكبير من النجوم يستغرق وقتا طويلا جدا ، فقال جيم انه فى استطاعة القمر أن يصنعها ... وبدا لى هذا القول معقولا فلم أعارضه ... فقد رأيت ضفدعة تضع ضفادع كثيرة جدا ! ومن ثم بدا لى أنه فى

امكان القمر أن يضع هذا العدد من النجوم ! وكنا نراقب النجوم التى تهوى ونراها وهى تندفع الى الأرض فى شكل خيط من الضوء ، فقال جيم إن هذه النجوم فسدت أثناء « فقسها » فهوت من أعشاشها ! !

وكنا نرى — مرة أو اثنتين أثناء الليل — قاربا بخاريا ينساب فى الظلام ، وكان هذا القارب ينفُث ، بين آن وآخر ، مئات من الشرر من مداخنه ، فتتساقط كالمطر فى النهر فى منظر جميل خلاب ، ثم لا تلبث القوارب أن تطفىء أنوارها وتتوقف محركاتها فيعود الهدوء الى النهر مرة أخرى ؛ ولكن الأمواج لاتلبث أن تصل الينا فتهز العائمة قليلا ؛ وبعدئذ لانسمع شيئا غير نقيق الضفادع !

فاذا ما جاوز الليل منتصفه ، آوى القوم الذين على الشاطىء الى فراشهم ، وساد الظلام الشاطئين لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات ، واختفت الأضواء المنبعثة من قمرات الأكواخ ... وكانت هذه الأضواء هى ساعتنا ! وكان أول ضوء يظهر بعد ذلك ، يعنى أن الصباح فى الطريق ، وعندئذ كنا نبحث عن مكان نرسو فيه ونختبىء بلا ابطاء .

وعند فجر أحد الأيام ، عثرت على قارب ، فعبرت فرعا للنهر لا يزيد عرضه على مائتى ياردة قاصدا الشاطىء الرئيسى ، ومضيت فى النهير زهاء ميل حتى بلغت منطقة غابات أشجار السرو لأرى ان كان فى استطاعتى أن أحصل على كمية من الكريز ؛ وبينما كنت أمر بمكان منعزل ، أقبل رجلان يركضان بأسرع ما يستطيعان ، وخيل الى اننى من الهالكين ؛ فقد كنت أعتقد دائما اننى و « جيم » مطاردان ... وهممت بالابتعاد عنهما سريعا ، ولكنهما كانا شديدى القرب منى ، كما راح أحدهما يتوسل الى أن أنقذ حياتهما ... قال انهما لم يرتكبا اثما وانهما يطاردان بلا

سبب ... ثم قال ان هنـــاك رجالا وكلابا قادمين فى أثرهمـــا ؛ وحاول الوثوب فى القارب ، ولكنى قلت لهما :

ـ لا تفعلا ذلك ... اننى لا أسمع وقع أقدام الكلاب والجياد بعد ، ومن ثم فما زال أمامكما متسع من الوقت لتضليل الكلاب بالدوران حول الغابة والسير فى الممر المنعزل ثم خوض الماء حتى تصلا الى ؛ فان ذلك خليق بتضليل الكلاب واخفاء أثركما عنها .

وفعلا ذلك ، وسرعان ما أصبحا معى فى القارب ، فانطلقت به الى حيث أرسينا العائمة ... وقبل أن تمضى خمس دقائق أو عشر سمعنا الكلاب والرجال وهم يصيحون من بعيد ويتقدمون نحو الممر المنعزل ولكننا لم نستطع رؤيتهم ، وخيل الينا انهم توقفوا وراحوا يبحثون عن الهاربين بعض الوقت ، ولكننـــا لم نلبث أن ابتعدنا كثيرا عن هذه المنطقة حتى بات من العسير علينا أن نسمع شيئا من ناحية الشاطىء ، وكنا قد قطعنا ميلا فى تلك الأثنـــاء ، وخرجنا الى عرض النهر ، فساد الصمت التام ، وعندئذ قصدنا الى أقرب شجرة قنب فشددنا العائمة اليها وغطينـــاها بأحطاب القطن ، وبذلك أصبحنا آمنين .

كان أحد هذين الرجلين فى حوالى السبعين من عمره أو أكثر ، أصلع الرأس ، أشيب السالفين ، وكان يضع قبعة قديمة مهشمة فوق رأسه ، ويرتدى قميصا صوفيا أزرق اللون ملطخا بالقاذورات ، وسروالا ازرق مهلهلا مشدودا الى حمالات مصنوعة فى المنزل ، لا بل كان مشدودا الى حمالة واحدة ، وكان يحمل على ساعده « جاكتة » قديمة زرقاء اللون ذات ذيل وأزرار نحاسية ؛ كما كان يمسك بحقيبة كبيرة منتفخة .

أما الرجل الثانى ، فكان فى حوالى الثلاثين من عمره ...

وبعد أن فرغنا من تناول طعام الافطار تمددنا فوق ظهورنا وبدانا

نتحدث . وكان اول ما أسفر عنه الحديث مع هذين الرجلين هو أن أحدهما لا يعرف الآخر !

سأل الرجل الأصلع الرجل الآخر :

ـ ما الذى أوقعك فى هذه المتاعب ؟

فقال الآخر :

ـ كنت أبيع مستحضرا لازالة « الطرطير » من الأسنان . . . وكان يزيله فعلا ، ولكنه كان يزيل أيضا لون الأسنان الأبيض ! ولقد أطلت بقائى فى هذا المكان ليلة أكثر مما ينبغى ، وكنت أتهيأ للتسلل والفرار عندما التقيت بك فى هذا الجانب من المدينة فاخبرتنى أنهم قادمون فى أثرك وتوسلت الى أن اساعدك على الفرار ، فقلتلك انى أتوقع المتاعب بدورى ، واننى مستعد للفرار معك . . . تلك هى قصتى كلها .

وصمت الشاب تم توجه بالحديث الى الكهل قائلا :

ـ وأنت . . . ما مهنتك أيها الكهل ؟

فقال الكهل :

ـ طابع بطاقات . . . وقد ربحت قليلا من طباعة العقاقير المسجلة ، كما احترفت التمثيل المسرحى ، واشتغلت بالتنويم المغناطيسى وعلم الفراسة ، وتدريس الأغانى المدرسية بقصد التغيير . . . وكنت فى بعض الأحايين ألقى محاضرات . . . أوه اننى ازاول كثيرا من الأعمال ـ كل شيء تقريبا !!

وأنت ماذا كنت تفعل قبل أن تشتغل ببيع مستحضراتك الطبية ؟ . .

فقال الشاب :

ـ كنت واعظا ، ولكم كنت سعيدا بهذا العمل . . . فقد كنت ادخل الراحة فى قلوب المصابين بالسرطان والشلل وغيرهم .

وبالاضافة الى الوعظ فانني عراف أجيد قراءة المستقبل اذا قدم لى الشخص الذى أقرأ مستقبله بعض الحقائق !!

وصمتنا جميعنا قليلا . وأخيرا تنهد الشاب وقال : واأسفاه !

فقال له الكهل الأصلع : علام تتحسر ؟

فأجاب : أتحسر لأننى تدهورت وانحدرت واضطررت الى مصاحبة رفاق كهؤلاء ! !

ثم انخرط فى البكاء وراح يجفف ركنى عينيه بخرقة بالية .

فقال الكهل الأصلع بصفاقة : يا للعنة ، ألا ترى أن هذه الرفقة صالحة لك ؟

— نعم ، انها تلائمنى . . . فى حالتى الراهنة ، اذ من ذا الذى دفعنى الى هذه الوحدة وأنا الحسيب النسيب ؟ لقد فعلت هذا بنفسى ، وأنا الملوم على ذلك . . . اننى لا ألومكم أيها السادة . . . بل اننى أبعد ما أكون عن ذلك . . . كما اننى لا ألوم أحدا على الاطلاق . . . اننى أستحق كل ما حاق بى ، فلتنزل الدنيا بى أسوأ ما عندها ، فان هناك شيئا واحدا مؤكدا ، ذلك هو وجود قدر لى فى مكان ما ، فلتمض الدنيا فى السبيل الذى اعتادت أن تمضى فيه ولتجردنى من كل شىء ؛ ولكنها لن تحرمنى من القبر ، فسيأتى يوم أرقد فيه فى القبر وأنسى كل شىء ، وعندئذ يستريح قلبى المحطم التعس ! !

وراح الرجل يبكى ، فقال له زميله الأصلع :

— لعنة الله على قلبك المحطم التعس . . . لماذا تفضى بذات قلبك المحطم التعس الينا ؟ اننا لم نفعل شيئا لك .

— أعلم أنكم لم تفعلوا شيئا ، ولهذا لا ألومكم أيها السادة . . . أنا الملوم على ما حاق بى من شقاء . . . نعم ، لقد جلبته لنفسى ، ولهذا فمن العدل أن أتعذب ، ولا يحق لى أن أتأوه !

— وما سبب كل هذا الشقاء ؟

ـ آه ، انكم لن تصدقونى ... لن يصدقنى أحد ... ان نكبتى هى مولدى ! !

ـ مولدك ؟ هل تعنى انك ...

فقال الشاب بلهجة جدبة : سأفضى اليكم بسرى أيها السادة ، لأننى أثق بكم ... اننى دوق بحكم القانون !

وبرزت عينا « جيم » من محجريهما حين سمع كلمة « دوق ». وأكبر الظن أن عينى برزتا أيضا ....

وعندئذ قال الأصلع :

ـ أحقا ؟ هل تعنى ما تقول ؟

ـ نعم .. انجدى الأكبر ، وهو أكبر أبناء « دوقبريدجووتر » هرب الى هذه البلاد فى أواخر القرن الماضى ليستنشق عبير الحرية وتزوج هنا تم مات ، وترك ابنا ... ولقد مات هذا الابن تاركا طفلين فى الوقت ذاته تقريبا ... واغتصب الابن الثانى للدوق اللقب والضياع ، متجاهلا بذلك الدوق الحقيقى وهو الطفل ! وانا هو سلالة من ذلك الطفل!... اننى « دوقبريدجوور » الشرعى! وها أنتم تروننى بائسا شريدا ، محروما من ضياعى ، مطاردا ، محتقرا فى هذا العالم ، مهلهل الثياب ، منهوك القوى ، محطم القلب، متدهورا الى درجة تضطرنى الى مرافقة المجرمين الهاربين على عائمة ! ! ..

وشعر « جيم » بمثل ما شعرت به ... شعر بكثير من الشفقة عليه ، وبذلنا قصارى جهدنا لمواساته ، ولكنه قال الا جدوى من ذلك لأننا لن نستطيع أن نواسيه كثيرا ؛ وان اهتمامنا به واعترافنا به ربما كان أفضل من أى شىء آخر ... فوعدناه بذلك ، اذا دلنا على الطريقة الصحيحة . فقال انه يجدر بنا أن ننحنى له حينما نتحدث اليه، وأن نناديه قائلين : « ياصاحب السمو » أو «ياسيدى

اللورد » أو « يا صاحب السعادة » ! وانه يجب على أحدنا أن يقوم على خدمته عند ما يتناول الطعام !

وكان ما طلبه منا أمرا سهلا ، فلبيناه ... فكلما تناولنا طعام الغداء ، قام « جيم » على خدمته وهو يقول له : « هل تريد قليلا من هذا الطعام أو ذاك يا صاحب السمو ؟ » وهلم جرا ... وكان ذلك يدخل السرور في قلب الرجل !

أما الكهل ، فانه كان يلوذ بالصمت ولا يتحدث مع أحد ... وكان يبدو عليه الضيق من تدليلنا للدوق ، حتى لقد خيل الينا أن خاطرا ما يدور في رأسه ... وبعد الظهر قال الكهل للشاب :

ـ اصغ الى يا « بريد جووتر » ... انني شديد الأسف من أجلك ، ولكنك لست الشخص الوحيد الذي يعاني من مثل هذه المتاعب ..

ـ أحقا ؟

ـ نعم ... لست الوحيد ... انك لست الشخص الوحيد الذي حرم من مكانته قسرا .

ـ وا أسفاه ...

ـ أقول انك لست الشخص الوحيد الذي يكتنف مولده سر .

ثم انخرط الكهل بدوره في البكاء .

فقال له « الدوق » :

ـ كفى ، ماذا تعني ؟

فقال الكهل والدموع تكاد تنهمر من عينيه : هل أستطيع أن أثق بك ؟

فأخذ الشاب يد الكهل وضغطها ثم أجاب : تستطيع ان تثق بي حتى الموت ... اكشف عن سرك ؟

فقال الكهل :

ـ انني ولي عهد فرنسا السابق (دوفيني) .

فانتفضنا ، « جيم » وأنا ، وقال « الدوق » :

ــ من ؟

ــ ولى عهد فرنسا السابق ... نعم يا صديقى ... تلك هى الحقيقة التى لا مراء فيها ... ان عينيك تتعاليان الآن على « دوفينى » التعس المختفى ... لويس السابع عشر ، ابن لويس السادس عشر ومارى انطوانيت .

ــ أنت ، وفى هذه السن ؟ لعلك تعنى أنك المرحوم شارلمان ، اذ لا ريب انك فى السنة السبعمائة من عمرك الآن على الأقل !!

ــ ان المتاعب هى التى فعلت بى ذلك ... المتاعب هى التى جعلتنى أشيب ، وجلبت لى الصلع قبل الأوان ... نعم أيها السادة ، انكم ترون أمامكم الآن رجلا تعسا ، منفيا ، معذبا ، هو ملك فرنسا الشرعى ! !

وانفجر الكهل باكيا ، فاضطربت أنا و « جيم » ، ولم نعرف ماذا نصنع ... كنا نشعر بأشد الأسف ، كما كنا نشعر فى الوقت ذاته بأعظم السرور لوجود هذا الكهل معنا . ومن ثم بدأنا نعامله بمثل ما عاملنا « الدوق » ، وحاولنا أن نسرى عنه ولكنه قال انه لا جدوى من ذلك ، فلا شىء يريحه غير الموت ، وان كان يشعر بشىء من الارتياح المؤقت حينما يعامله الناس طبقا لما تقضى به حقوقه الشرعية ... أى حينما يركعون عند ما يخاطبونه ، وينادونه بيا « صاحب الجلالة » ، ويقومون على خدمته أولا عند تناول الطعام ، ولا يجلسون فى حضرته الا اذا أذن لهم بذلك ... ومن ثم بدأنا نعامله كملك ، ونؤدى له هذا العمل أو ذاك ، ونقف الى أن يأذن لنا بالجلوس ... ولقد رفع ذلك من روحه المعنوية فتهلل وشعر بالارتياح ، ولكن ذلك ضايق « الدوق » ، الذى يبدو انه شعر بأن الرياح جرت بما لا تشتهى سفينته ! ولكن الملك ظل يعامله بلطف ، وقال ان جد الدوق الأكبر وجميع دوقات

« بريدجووتر » الآخرين كانوا موضع اهتمام أبيه ، فكان يسمح لهم بالاكثار من المجيء الى القصر ... لكن « ألدوق » ظل صامتا ولم يقل شيئا الا بعد أن قال « الملك » :

ـ يبدو أننا لن نبقى معا فترة طويلة على هذه العائمة يا « بريدجووتر » ... فلماذا تحزن ؟ يحسن بك أن تنسى أحزانك حتى تصبح الحياة سهلة هينة ! لست ملوما لأننى لم أولد دوقا كما أنك لست ملوما لأنك لم تولد ملكا ! فما فائدة القلق ؟ استمتع بكل ما تلقيه الحياة فى طريقك ... هذا هو شعارى... أكبر ظنى ان الأقدار قد أحسنت بالتقائنا هذا ، حيث الحياة سهلة هينة ... هلم اعطنى يدك أيها « الدوق » ودعنا نصبح أصدقاء !

وصافحه « الدوق » ، فسررت أنا و « جيم » أبلغ السرور لذلك ، فقد زال التوتر الذى كان يسود علاقة الرجلين ، اذ كان من أشد بواعث الضيق أن يسود الخصام فريقا من ركاب العائمة، لأن أهم ما يجب أن يتحقق على العائمة هو ارتياح كل شخص والشعور بالعطف على الآخرين وحبهم .

ولم يطل بى الوقت لأقرر أن هذين الكاذبين لم يكونا كما زعما ... ملكا ودوقا ... وانما هما راعيان وضيعان ... ولكنى لم أقل شيئا ، واحتفظت بهذا الرأى لنفسى ، فقد كان ذلك أفضل تصرف، حتى لاأثير الشحناء والمتاعب. فماذا يضيرنى اذا خاطبتهما بألقاب الملوك والدوقات ما داما يريدان ذلك ، وما دام ذلك هو السبيل الوحيد للمحافظة على سلام الأسرة ! كذلك لم تكن هناك أية فائدة ترجى من اطلاع « جيم » على الحقيقة المرة ... ولذلك لم أقل له شيئا . ولئن كان هناك شيء تعلمته من أبى ، فهو أن أفضل طريقة لمسايرة هذا الطراز من الناس ، هو أن أدعهم يمضون فى سبيلهم !! ...

الفصل العشرون

((هاك)) يشرح ــ اعداد حملة ــ عقد اجتماع في المعسكر ــ النورد الخبيث ــ قرصان في اجتماع المعسكر ــ الدوق يشتغل بالطباعة ــ مطلوب القبض على ((جيم)) .

أمطرنا الرجلان بوابل من الأسئلة .. كانا يريدان أن يعرفا لماذا نغطي العائمة بهذه الطريقة ، ولماذا نختفي بالنهار بدلا من الاستمرار في رحلتنا ، وهل كان « جيم » زنجيا هاربا ؟

فقلت : يا الهي ... وهل يذهب زنجي هارب الى الجنوب ؟

فأجابا بأن ذلك مستحيل ... ولما كان من الضروري ، أن أشرح الموقف كله ، فقد قلت :

ــ كانت أسرتي تقيم في مقاطعة « بايك » بولاية « ميسوري » حيث ولدت . وقد مات أفرادها جميعا الا أنا وأبي وأخي «ايك» ... وقرر أبي أن يصفي أعماله ويرحل ليقيم مع عمي « بن » الذي يملك منزلا صغيرا على النهر ، على مبعدة أربعة وأربعين ميلا جنوب « أورليانز » . وكان أبي فقيرا جدا وغارقا في الديون ، ومن ثم فانه حينما صفى موقفه لم يتبق له سوى ستة عشر دولارا وهذا الزنجي « جيم » . ولم يكن هذا القدر من المال كافيا

لسد نفقات رحلة نهرية طولها ألف وأربعمائة ميل . كذلك لم تكن هناك وسيلة أخرى للقيام بهذه الرحلة ... والخلاصة ، أنه عندما فاض النهر ، حالف الحظ الحسن أبى ذات يوم ، فعثر على هذه العائمة . فقررنا أن نستخدمها فى رحلتنا النهرية الى « اورليانز » ... ولكن الحظ الحسن لم يلازم أبى طويلا ، اذ سرعان ما اصطدم قارب بخارى بالعائمة ذات ليلة فسقطنا جميعا فى البحر ورحنا نسبح على غير هدى... واستطعنا أنا و «جيم» أن ننجو سالمين ، ولكن أبى غرق ، كما غرق أخى « ايك » الذى كان فى الرابعة من عمره . وصادفتنا متاعب جمة فى اليومين التاليين ، لأن الناس كانوا يجيئون الينا دائما بقواربهم طمعا فى أخذ « جيم » منى قائلين انهم يعتقدون انه زنجى هارب ... ولذلك فاننا لا نبحر بالنهار الآن ، وانما نبحر بالليل حتى لا يضايقنا أحد .

فقال « الدوق » : دعونى أفكر حتى أعثر على طريقة تمكننا من الابحار نهارا اذا أردنا ذلك ... سأفكر فى الأمر من جميع نواحيه ... سأعثر على طريقة للتغلب على جميع العقبات ... وعلى أية حال ، من الخير لنا ألا نبحر نهارا اليوم ، حتى لا نمر بهذه المدينة التى تلوح لنا أثناء النهار ، فقد لا يكون المرور بها فى صالحنا .

وعند ما اقترب الليل ، وأخذ الظلام ينشر سرادقه على الكون ، بدا أن المطر يتحفز للانهمار ، بينما كان ضوء البرق يلمع حولنا وأخذت أوراق الأشجار تهتز ... ولقد كان من السهل التكهن بذلك ... فلاذ « الدوق » و « الملك » بالكوخ الهندى بحجة فحص الفراش ! وكان فراشى عبارة عن كومة من القش ، ولكنه كان أفضل من فراش « جيم » الذى كان مصنوعا من سيقان القمح الجافة التى تتخذ منها العناكب مأوى لها . تتسلل منه الى النائم فتؤذيه ! وكانت أعواد القمح الجافة تتكسر تحت النائم ، فينطلق منها صوت أشبه بالصوت الذى ينبعث عند ما يسير

المرء فوق أوراق الخريف الجافة المتينة ، وهو صوت يوقظ النائم من نومه . . . وبعد أن فحص « الدوق » الفراش قال انه سينام على سريرى ، ولكن « الملك » لم يوافق على ذلك قائلا :

ـ فى رأيى أن فارق الرتب بيننا لا يجيز أن أنام أنا على فراش من سيقان القمح ، فنم عليه أنت يا صاحب السمو « الدوق » !

وتملكنى الخوف أنا و « جيم » ، خشية أن ينشب الخلاف بينهما مرة أخرى ؛ ولهذا سررنا غاية السرور حينما قال « الدوق » :

ـ ان سوء حظى يلازمنى دائما ويضعنى فى الحضيض تحت تقل وطأة الاضطهاد ! . . لقد حطم سوء الحظ كبريائى ، فاستسلمت، هاأنذا استسلم على « طول الخط » لأن ذلك هو نصيبى . اننى وحيد فى العالم . . . ولست بحاجة الى عزاء لأننى قادر على احتمال العذاب !

وأبحرنا عند ما هدأ الطقس وساد الظلام . . . وطلب « الملك » منا أن نلزم قلب النهر ، بقدر طاقتنا ، وألا نوقد المصباح قبل أن نبتعد كثيرا عن المدينة . . . وبعد قليل ، رأينا مجموعة صغيرة من الأضواء تنبعث من المدينة ، فمررنا بها على بعد ميل ونصف ميل . . . وعند ما ابتعدنا عنها ثلاثة أرباع الميل، أشعلنا مصباحنا وعلقناه فى مكانه . وحوالى الساعة العاشرة بدأ المطر يتساقط ، واشتد الرعد والبرق . . . وعندئذ طلب « الملك » منا أن نظل ساهرين للمراقبة ريثما تتحسن الحالة الجوية . ثم انسل هو و « الدوق » الى الكوخ الهندى ليناما . . . وعلى الرغم من أن نوبة المراقبة حتى منتصف الليل لم تكن من نصيبى ، فاننى لم أنم . . . فقد كانت العاصفة هوجاء . . . كان زفيف الريح مخيفا ، وكان البرق يلمع بين الحين والحين ، فيضىء ذوائب الأشجار فى دائرة قطرها نصف ميل ، بينما كانت الجزر تتراءى لى كالحة بين قطرات المطر المنهمر . . . كذلك كانت الأشجار تتمايل تحت شدة

وطأة الريح ، ثم لا يلبث قصف الرعد أن يدوى بعنف ، ويزداد انهمار المطر ، ثم يلمع البرق مرة أخرى ... وهكذا دواليك ... وكادت الأمواج العاتية تكتسحنى من فوق العائمة ، ولكنى لم أعبأ بذلك .

ثم حلت نوبة المراقبة التالية ... وكانت من نصيبى . ولكننى كنت أشعر بنعاس شديد فى تلك الأثناء ، فقال «جيم» انه سيؤدى نصفها الأول بالنيابة عنى ، فتسللت الى الكوخ ، لأستريح ، ولكننى لم أجد لى مكانا ؛ فقد كان « الملك » و « الدوق » يملآن المكان كله ، فرقدت خارج الكوخ غير عابىء بالمطر ، لأن الطقس كان دافئا ، ولأن الأمواج لم تكن ترتفع فوق مستوى العائمة فى تلك الأثناء ، ولكن الأمواج لم تلبث أن ثارت ثانية حوالى الساعة الثانية ، فحاول « جيم » ايقاظى ، ولكنه لم يلبث أن كف عن المحاولة بعد أن اعتقد أن الأمواج لم تكن من الشدة بحيث تبلغ مكانى ... ولقد كان مخطئا فى ذلك ، اذ سرعان ما ارتفع الموج فجأة وغمر سطح العائمة واكتسحنى من فوقها . وكاد جيم ينفجر من فرط الضحك حينما اكتسحنى الموج ! ... فقد كان « جيم » رجلا مرحا بسيطا !

وتوليت المراقبة بعد ذلك ... ونام « جيم » وراح يغط فى نومه ، ثم لم تلبث العاصفة أن هدأت تماما ... وعند ما ظهر أول شعاع من ضوء النهار ، أيقظت « جيم » وأرسينا العائمة فى أصلح مكان صادفنا ثم لذنا بمخبأ يخفينا عن أعين الرقباء ...

وبعد الافطار ، أخرج « الملك » مجموعة قديمة من ورق اللعب وراح يلعب مع « الدوق » . وحينما انتابهما الاعياء ، وفرغا من اللعب ، أخرج « الدوق » من حقيبته المنتفخة مجموعة من الاعلانات المطبوعة وراح يقرأ محتوياتها بصوت مرتفع ... وكانت هذه الاعلانات تحتوى على مايلى : يلقى الدكتور ارماند الباريسى المشهور

محاضرة فى علم الفراسة فى المكان « الفلانى » فى يوم « كذا » ... وسعر الدخول ثمانية سنتات ... وسيقدم لمن يشاء تقريرا مفصلا عن نفسه مقابل خمسة وعشرين سنتا ... وقال «الدوق» انه هو هذا الدكتور !! ... ثم قرأ اعلانا آخر وصف نفسه فيه بأنه « الممثل الدرامى العالمى جاريك من لندن » ! ثم قرأ اعلانات أخرى أطلق فيها على نفسه أسماء أخرى ، وزعم فيها انه قادر على أن يأتى بالمعجزات !

ثم قال : « ولكن التمثيل المسرحى هو أحب الأعمال الى قلبى .. هل سبق لك أن صعدت الى خشبة المسرح يا صاحب الجلالة ؟ »

فأجاب « الملك » : لا !

ـ اذن ستصعد اليها قبل أن تنقضى ثلاثة أيام أيها العظيم الهاوى ... سوف نستأجر صالة فى أول مدينة كبيرة نصل اليها ونمثل منظر مبارزة بالسيف من مسرحية ريتشارد الثالث ، ومنظر الشرفة من مسرحية روميو وجوليت ... فما رأيك فى ذلك ؟

ـ اننى مستعد لأداء أى شىء يدر على نقودا ، ولكنى لا أعرف شيئا عن التمثيل المسرحى ، ولم اشاهده كثيرا ، فقد كنت صغيرا جدا عند ما كان أبى يقيم الحفلات التمثيلية فى القصر ، فهل تعتقد أنك تستطيع أن تعلمنى التمثيل ؟

ـ ان ذلك سهل ميسور .

ـ حسنا ... اننى شديد اللهفة على تعلم شىء جديد . ان التمثيل عمل غير تجارى !!

ومضى « الدوق » يحدثه عن « روميو » و « جولييت » ، وقال انه اعتاد أن يمثل دور « روميو » ، ومن ثم فعلى « الملك » أن يمثل دور « جولييت » ! ...

فقال الملك : لكن « جولييت » فتاة صغيرة ... وأنا أصلع وسالفاى الأشيبان لا يصلحان لدور فتاة صغيرة !

ـ لا تقلق بالك . . . ان هؤلاء القرويين لن يفطنوا الى ذلك . . وأهم ما فى الأمر أنك سترتدى ثوبا نسائيا وفى هذا ما يكفى ! . . . ستقف « جولييت » فى شرفة لتستمتع بالقمر قبل أن تأوى الى فراشها وهى مرتدية قميص نومها ، وتضع قبعتها الليلية فوق رأسها . . . ها هى ملابس أدوار جميع المسرحيات ! . . .

وأخرج عدة أثواب مصنوعة من القماش الأبيض قال انها « العدة الحربية » التى كان « ريتشارد الثالث » والشاب الآخر يستعملانها فى القرون الوسطى ! ثم أخرج أيضا قميص نوم وقبعة ليلية من القماش ذاته ! وأعرب « الملك » عن ارتياحه ، فأخرج « الدوق » كتابه وقرأ منه الأدوار بطريقة تمثيلية مدهشة وهو يثب ويمثل فى الوقت ذاته ، ليبين كيف يجب أن تؤدى هذه الأدوار . ثم أعطى الكتاب « للملك » وطلب اليه أن يستظهر دوره جيدا .

وكانت هناك مدينة صغيرة على مبعدة ثلاثة أميال من منحنى النهر . وبعد أن تناولنا طعام الغداء قال « الدوق » انه عثر على وسيلة تمكننا من الرحيل نهارا دون أن يتعرض « جيم » للخطر . ثم أضاف أنه سيذهب الى تلك المدينة ويرتب كل شىء ؛ فقال « الملك » انه سيذهب معه ليرى ان كان يستطيع أن يفعل شيئا ! ولما كنا بحاجة الى كمية من البن فقد قال « جيم » انه يحسن بى أن أذهب معهما فى القارب لأشترى بنا .

وعند ما وصلنا الى المدينة ، لم يكن أحد من أهلها قد استيقظ بعد . وكانت الشوارع خالية هادئة تماما ، كما هى الحال عادة فى أيام الآحاد . وعثرنا على زنجى مريد يستمتع بأشعة الشمس الدافئة فى ساحة خلفية . . . وقال هذا الزنجى ان جميع الناس ما عدا العجزة والأطفال والمرضى قد ذهبوا لحضور « اجتماع المعسكر » الذى يعقد فى الغابة الخلفية على بعد ميل من المدينة . فطلب « الملك » من الزنجى أن يرشده الى مكان هذا المعسكر !

أما « الدوق » فقد قال انه يريد البحث عن دار طباعة . وسرعان ما عثرنا على دار طباعة فوق حانوت نجار . وكان الطابعون والنجارون قد ذهبوا جميعا الى الاجتماع بغير أن يغلقوا أبواب حوانيتهم ... وكان دار الطباعة هذا مكانا قذرا تناثرت قصاصات الورق فى أرجائه وتلطخت جدرانه بحبر الطباعة ، وعلقت فوق جدرانه اعلانات تحمل صور جياد وزنوج هاربين !.

وفرح « الدوق » فرحا شديدا بعثوره على دار الطباعة وبقى هناك ! أما أنا و « الملك » ، فقد اتخذنا طريقنا الى « اجتماع المعسكر » !

ووصلنا الى مكان الاجتماع بعد نصف ساعة ، ونحن نسيل عرقا ! فقد كان القيظ شديدا فى ذلك اليوم ، وكان يؤم الاجتماع حوالى ألف نسمة جاءوا من منطقة قطرها عشرون ميلا . وكانت الغابة مملوءة بمئات من المركبات والبقر . وكان البقر يرعى البرسيم الملقى فوق الحشائش ويحرك ذيوله لطرد الذباب . وكانت هناك حظائر مشيدة فوق أعمدة ، ومسقفة بفروع من الأشجار ... وكان الباعة يبيعون عصير الليمون والحلوى والكعك !

وكان الوعاظ منتشرين فى كل مكان بين الناس . أما النسوة فكن يرتدين قبعات شمس . وكان بعضهن يرتدين الفراء ... أما الصغيرات منهن فكن يرتدين أثوابا من القماش الأبيض ، بينما كان بعض الشبان حفاة الأقدام . أما الأطفال فكان بعضهم عراة تقريبا ، لا يرتدون غير قميص من الكتان ! وكانت بعض النسوة الطاعنات فى السن منصرفات الى أشغال الابرة ، بينما كانت الشابات تتفاخرن بجمالهن وشبابهن !

وفى أول حظيرة بلغناها ، كان الواعظ يردد احدى الترانيم ، فقرأ سطرين أنشدهما جميع الحاضرين . وكان الانشاد رائعا ومثيرا . ثم قرأ الواعظ سطرين آخرين رددهما الحاضرون بعده ،

وهلم جـرا . . . وكان الحاضرون يزدادون حماسة كلما قرأوا سطورا جديدة من « الترنيمة » فيرتفع صـوتهم أكثر فأكثر ، حتى لقد بلغ صوت بعضهم مرتبة الصياح فى النهاية . وبعد ذلك بدأ الواعظ يلقى عظته . وكانت نبراته حادة قوية ، وأخذ يتنقل من جانب المنبر الى الجانب الآخر ، ثم لم يلبث أن وقف فى منتصفه ومال الى الأمام وهو يحرك يديه وجسمه ! وكان يرفع الانجيل بين حين وآخر ويفتحه ثم يحركه فى هذا الاتجاه أو ذاك مرددا بعض الآيات . وكان الناس يصيحون « المجد لله : آمين » — وهكذا استمر الوعظ وراح الحاضرون يتأوهون ويصيحون قائلين : آمين . . . آمين ! ثم قرأ الواعظ موعظة الجبل . . . فراح الجميع يبكون ويتأوهون ويرتلون !

وفجأة تقدم « الملك » نحو الواعظ وطلب اليه أن يسمح له بالتحدث الى الجمهور فسمح له ! . . .

قال « الملك » للحاضرين انه كان قرصانا ، وانه احترف القرصنة فى المحيط الهندى لمدة ثلاثين عاما ، وان كثيرا من رجاله ماتوا فى الربيع الماضى عقب اشتراكهم فى معركة حامية ، فعاد الى الوطن ليجمع رجالا جددا ، وأن اللصوص سطوا عليه وسرقوا كل أمواله . . . ! !

ثم قال انه سعيد بذلك ، فالمحنة التى حلت به جعلته يتذوق طعم السعادة لأول مرة فى حياته . ثم قال انه — رغم فقره وافلاسه — سيعود بلا ابطاء الى المحيط الهندى ويقضى ما بقى من حياته فى هداية القراصنة الى الطريق السوى ، وانه رغم ما قد يستغرقه وصوله الى هناك من وقت طويل بسبب افتقاره الى المال ، سوف يصل فى النهاية ليهدى القراصنة ! ثم قال انه كلما استطاع أن يقنع قرصانا بالتوبة سيقول له « لا تشكرنى ، ولا تنسب الى أى فضل ، لأن الفضل كله راجع الى هؤلاء القوم

الأعزاء الذين التقيت بهم فى اجتمـاع المعسكر ببوكفيل ، هؤلاء الاخوة المحسنين للجنس البشرى كله .. ولهذا الواعظ أيضـا الذى يعتبر أصدق صديق ظفر به قرصان » .

ثم انفجر « الملك » باكيا ، فانفجر الجميع باكين أيضا . وعندئذ صاح أحد الحاضرين « اجمعوا له نقودا .. اجمعوا له نقودا .. » وعلى الفور تأهب ستة رجال ليتولوا جمع النقود ، ولكن شخصا صاح « دعوه يمر بقبعته على الجميع » ، فردد الجميع هذا القول كما ردده الواعظ أيضا .

وبدأ « الملك » يسير بين صفوف الحاضرين وهو يحمل قبعته فى احدى يديه ، ويجفف عينيه بيده الأخرى ، والكل يباركونه ويمتدحونه ، ويشـكرونه لمـا يبديه من عطف على القراصـنة المســاكين . وكانت الفتيـات الجميـلات تتقدمن اليه والدموع تنسـال من عيونهن ليطلبن اليه أن يسمح لهن بتقبيـله حتى يتذكرنه ، فكان يسمح لهن بذلك ، بل لقد احتضن بعضهن وقبلهن خمس أو سـت مرات ! ! ودعاه المجتمعـون الى البقـاء معهم أسبوعا . وكان كل واحد منهم يطلب منه أن يقيم بمنزله قائلين ان ذلك يعتبر شرفا عظيما ، ولـكنه اعتذر قائلا انه لما كان هذا آخر يوم فى اجتماع المعسكر فانه لا يستطيع البقاء ، كما أنه أشد ما يكون لهفة على العودة الى المحيط الهندى لهداية القراصنة ! !

وعند ما عدنا الى العـائمة ، وبدأ « الملك » يحصى التبرعات ، تبين له أنه جمع سبعة وثمانين دولارا وخمسة وسبعين سنتا !

وكان « الدوق » يعتقد حتى تلك اللحظة انه حقق عملا عظيما بعثوره على دار الطباعة .. ولكنه لم يلبث أن أدرك أنه لم يحقق شيئا عظيما ، حينما علم بما فعله « الملك » ! كان « الدوق » قد طبع لوحتين صغيرتين باعهما بأربعة دولارات ! كذلك اتفق على نشر اعلانات قيمتها عشرة دولارات حصـل على أربعة دولارات

منها . وكان قد حصل على قيمة ثلاثة اشتراكات فى الصحيفة التى تصدرها دار الطباعة ؛ وجمع فى مقابل ذلك دولارا ونصف دولار ، مع أن قيمة الاشتراك الحقيقية دولاران !! . . وهكذا جمع تسعة دولارات ونصف دولار ، فظن أنه أصاب حظا حسنا فى ذلك اليوم ! . . ولكنه احتقر نفسه حينما علم أن « **الملك** » جمع سبعة وثمانين دولارا وخمسة وسبعين سنتا !!.

ثم أطلعنا « الدوق » على صورة طبعها ! . . وكانت الصورة تمثل زنجيا هاربا وهو يحمل حزمة من الحطب فوق كتفه » وقد كتبت تحتها عبارة تقول « مكافأة . . ٢٠٠ دولار لمن يعثر عليه » . . وكان الوصف المسجل تحتها ينطبق تماما على « جيم » . فقد جاء فى هذا الوصف ان الزنجى هارب من مزارع « سانت جاك » التى تبعد أربعين ميلا جنوب نيوأورليانز ، وأنه هرب خلال الشتاء الماضى ، ومن المحتمل انه ذهب شمالا . . وسيحصل من يستطيع العثور عليه على المكافأة والنفقات ! !

وقال « الدوق » : والآن ، يمكننا أن نبحر نهارا اذا أردنا . . وكلما رأينا أحدا مقبلا نحونا شددنا وثاق « جيم » ووضعناه داخل الكوخ الهندى ، ثم نعرض الاعلان على كل شخص قادم ونقول له اننا قبضنا على « جيم » فى النهر ، ولما كنا فقراء لا نستطيع السفر بقارب بخارى ، فقد اشترينا هذه العائمة بالتقسيط من بعض الأصدقاء ، واننا ذاهبون لتسليم الزنجى الهارب والحصول على المكافأة ! !

وقلنا لأنفسنا ان الدوق نابغة ، وانه لم يعد هناك ما نخشاه من الابحار فى وضح النهار ؛ وقدرنا أننا نستطيع أن نقطع ، فى تلك الليلة ، أميالا تكفى لابعادنا عن الضجة التى سوف تحدث فى المدينة الصغيرة نتيجة لما فعله « الدوق » فى المطبعة ، فنصبح بمنجاة من كل مطاردة ، وبعدئذ يمكننا أن نمضى فى رحلتنا أن شئنا .

ولذنا بالهدوء والسكينة ، ثم تسللنا من مخبأنا فى الساعة العاشرة تقريبا وركبنا العائمة دون ان نشعل المصباح .. وظللنا كذلك الى أن أصبحنا خارج نطاق المدينة .

وعندما نادانى « جيم » الساعة الرابعة صباحا لأتولى المراقبة ، قال :

ـ هل تظن اننا سنلتقى بملوك آخرين أثناء هذه الرحلة يا « هاك » ؟

فقلت : لا ... لا أظن ذلك .

فقال : هذا حسن اذن . اننى لا أبالى بوجود ملك او اثنين معنا .. ولكننى لا أطيق أكثر من ذلك ! !

وحاول « جيم » أن يجعل « الملك » يتكلم بالفرنسية حتى يعرف ما هى ، ولكن « الملك » قال انه قضى وقتا طويلا فى هذه البلاد ونسى اللغة الفرنسية !!..

الفصل الحادى والعشرون

تدريب على المبارزة بالسيف ـ مناجاة « هملت » ـ التنسكع فى المدينة ـ مدينة خاملة ـ « بوجز » العجوز ـ صوت « بوجز » .

كانت الشمس قد أشرقت منذ فترة ، ولكننا مضينا فى رحلتنا بغير أن نرسو .. وبعد قليل خرج « الملك » و « الدوق » من داخل العائمة . وبعد أن فرغنا من تناول الافطار ، اتخذ « الملك » مجلسه فى ركن العائمة وخلع حذاءه ، ولف نهاية سرواله ، ثم وضع قدميه فى الماء لينتعش . وأشعل غليونه ، وبدأ يستذكر دوره فى مسرحية « روميو وجولييت » عن ظهر قلب . وعند ما ألم به الماما كافيا بدأ يؤديه مع « الدوق » ! وكان « الدوق » مضطرا الى تدريب « الملك » على أداء الدور كما ينبغى مرة بعد أخرى . فكان يشرح له كيف ينطق بكل عبارة ، وكيف يتنهد ، ويضع يده فوق قلبه .. وبعد قليل قال « الدوق » ان « الملك » يؤدى دوره بطريقة لا بأس بها ثم قال محدثا « الملك » : يجب أن تتجنب النطق باسم « روميو » بتلك الطريقة التى تشبه خوار الثور .. يجب أن تنطقه بصوت رقيق ، عليل ، واه ، هكذا ـ

ر ـ و ـ م ـ ى ـ و .. فان « جولييت » فتاة صغيرة ساذجة حلوة أقرب ما نكون الى الطفولة ! ولهذا ، فانها لاتخور كالثور » .

وفى اليوم التالى ، أحضر « الدوق » زوجا من السيوف الطويلة كان قد صنعهما من خشب البلوط ! وراح « الدوق » يؤدى دور ريتشارد الثالث . وكم كان منظر الرجلين رائعا وهما يتبارزان فوق العائمة ! ولكن « الملك » تعثر وسقط فى اليم ، فانتشله « الدوق » !

وبعد الفداء ، قال « الدوق » : .. يجب أن نجعل من مسرحياتنا عرضا من الطراز الأول .. ومن ثم اعتقد انه ينبغى لنا أن نضيف الى أدوارنا « رتوشا » نرد بها على النظارة كلما طلبوا الينا أن نعيد أدوارنا ! !

فقال « الملك » : وكيف ؟

فقال « الدوق » : كلما طلب الينا النظارة أن نعيد دورا ، سأرد عليهم بالنفخ فى مزمار « البحارة » ! أما أنت .. دعنى أفكر ... آه ... تستطيع أن تؤدى دور « مناجاة هاملت » !

ـ مناجاة هاملت ؟ ما هى ؟

ـ مناجاة هاملت هى أشهر دور فى مسرحية شكسبير .. آه ، انها مناجاة رائعة تحرك مشاعر النظارة .. انها ليست موجودة فى كتابى هذا ، لأننى لا أملك الا جزءا واحدا من المسرحية .. ولكنى أعتقد اننى أستطيع ان أسترجعها من الذاكرة ! . دعنى أحاول !

ثم راح « الدوق » يقطع العائمة جيئة وذهابا وهو مستغرق فى التفكير حينا ، عاقدا ما بين حاجبيه حينا آخر ؛ ثم يرفع حاجبيه ويضغط جبهته بيده ويترنح الى الوراء ويطلق نوعا من الانين ، ثم يتنهد وتسيل دمعة من عينيه .. لقد كان منظره يدعو للاعجاب . وبعد قليل ، استطاع أن يتذكر المناجاة ، فطلب

الينا أن نصغى اليه ، ثم وقف أنبل وقفة ومد احدى ساقيه الى الأمام وبسط يديه الى أعلى ، وثنى رأسه الى الخلف ثم تطلع الى السماء ، ثم انفجر يعوى طوال القاء المناجاة ! وكان يدور حول نفسه وقد نفخ صدره .. والحق اننى لم أر تمثيلا مثل هذا من قبل !

ولقد أعجب « الملك » بهذه المناجاة ، وسرعان ما أجاد القاءها ، فبدا كأنما كان يعرفها منذ مولده ! وكان ، كلما فرغ من أداء دوره ، يلوح بيديه فى الهواء ، ويبكى ويتراجع الى الوراء بشكل يسترعى الاعجاب !

وعند ما أتيحت لنا أول فرصة ، بادر « الدوق » بطبع بعض الاعلانات ، ثم مضى يومان أو ثلاثة كانت العائمة أثناءها من أكثر أماكن العالم تفجرا بالنشاط ! فقد كان « الدوق » و « الملك » منهمكين فى المبارزة بالسيف والاستعداد للتمثيل ! وذات صباح ، رأينا مدينة صغيرة عند منحنى كبير للنهر ، فرسونا على مبعدة ثلاثة أرباع الميل منها فى مدخل فجوة كانت أشجار السرو تغلفها فتجعلها أشبه بالنفق . وركبنا جميعا ــ ما عدا جيم ــ القارب وذهبنا الى هذه المدينة لنرى ان كنا نستطيع اقامة حفلاتنا المسرحية فيها .

وبلغناها فى فرصة مواتية ! فقد كان القوم يستعدون لاقامة «سيرك» بعد ظهر ذلك اليوم ، وبدأ أهل القرى يتدفقون على المدينة وهم يركبون جميع أنواع المركبات القديمة ويمتطون صهوة جيادهم . وكان «السيرك» قد قرر مغادرة المدينة قبل حلول الظلام ، فانتهز « الدوق » الفرصة واستأجر فناء حوله سياج .. ثم ألصقنا اعلاناتنا على هذا السياج ! وكانت هذه الاعلانات تقول :

« احياء مسرحيات شكسبير »

« عرض مدهش »

((ليــلة واحدة فقط))

((أعظم ممثلى الدراما شهرة فى العالم))

((دافيد جاريك الصغير ، من مسرح درورى لين بلندن))

((و))

((أدموند كين الأكبر من مسرح رويال هايماركت ، هوانيشابيل))

((بادينج لين ، بيكادللى ، لنــدن ، ومســارح أوروبا الملــكية))

((فى مشهد رائع لاحدى مسرحيات شكسبير — عنوانه))

((منظر الشــرفة))

((فى مسرحيــة))

((روميو وجولييت))

((روميو . . . . . . مستر جاريك))

((جولييت . . . . . . مستر كــين))

((تعاونهما مجموعة كاملة من ممثلى الفرقة))

((مبــارزة بالســيف على المسرح))

((من مسرحية ريتشــارد الثالث))

((ريتشارد الثالث . . . مستر جاريك))

((ريتشموند . . . . . مستر كــين))

كذلك

(وباذن خاص تقدم الفرقة)

مناجاة هاملت الخــالدة

يؤديها الممثل المشهور كين

((أداها ٣٠٠ ليــلة متوالية فى باريس))

((تعرض ليــلة واحدة فقط))

((بسبب ارتبــاطات الفــرقة بالعمــل فى أوربا))

((الدخول ٢٥ سنتا ، والأطفال والخدم ١٠ سنتات))

ثم أخذنا نتسكع فى المدينة .. كانت حوانيتها ومنازلها أبنية قديمة لم تتناولها يد الطلاء . وكانت جميعها مرفوعة فوق الأرض ثلاثة أو أربعة أقدام حتى لا يصل اليها ماء النهر عندما يفيض . وكان حول كل منزل حديقة صغيرة لاترى فيها الا الأعشاب السامة وعباد الشمس وأشجار الدردار فضلا عن الأحذية البالية والزجاجات المحطمة ، والخرق والصفائح التى لم تعد ذات نفع . أما « الأسوار » فكانت مصنوعة من أنواع مختلفة من الخشب تثبتها المسامير فى مواضع مختلفة وتميل فى كل جزء منها . ولم يكن للأبواب غير « مفصلة » واحدة مصنوعة من الجلد . وكان بعض هذه « الأسوار » قد عرف الطلاء فى أحد الأيام ، فقد قال « الدوق » انه يعتقد ان هذا الطلاء تم فى عهد « كولمبس » ! وكنا نرى فى معظم هذه الحدائق خنازير كان الناس يسوقونها الى الخارج ...

وكانت جميع الحوانيت مركزة فى شارع واحد ، ولها جميعا مظلات أمامية . وكان القرويون يشدون جيادهم الى أعمدة هذه المظلات ، كما كانت هناك صناديق سلع فارغة تجمع حولها المتسكعون طوال النهار ، يفنشونها حينا ، ويمزقونها بمداهم حينا آخر ، وهم يلوكون الطباق بين أسنانهم ويتثاءبون ويتمطون بكسل ، وقد ارتدى معظمهم قبعات من القش أصفر اللون ! وكانوا ينادون بعضهم البعض بأسماء « الدلع » مثل « بيل » و « ياك » و « هانك » و « جو » و « اندى » ! وكانوا يتحدثون بكسل ويكثرون من ألفاظ السباب فى أحاديثهم ! وكان كثير منهم يستندون الى أعمدة مظلات الحوانيت وقد وضعوا أياديهم فى جيوب سراويلهم . فلا يخرجونها منها الا حينما يريدون وضع مزيد من الطباق فى أفواههم أو حك جلدهم ! أما الحديث الذى كان يدور بينهم طوال الوقت فكان كما يلى :

— اعطنى مضغة من الطباق يا « هانك » .

ـ لا أستطع ، فانني لا أملك الا « مضغة واحدة » ... اطلب من « بيل » .

وربما يعطى « بيل » السائل ما يريد ، وربما يكذب ويقول انه لا يملك شيئا من الطباق ! . ولم يكن بعض هؤلاء المتسكعين يملكون سنا واحدا ولا « مضـغة » طباق واحـدة اللهم الا عن طريق الاقتراض ! فتراهم يقولون لزملائهم بودى لو أعطيتنى مضـغة يا « جاك » ، فقد أعطيت « بن تومسون » آخر مضغة معى ! وفى معظم الأحايين ، يكون هذا القول كاذبا ، ولكنه لا ينطلى الا على الغرباء ! ولكن « جاك » ليس غريبا . ومن ثم تراه يقول :

ـ هل أعطيته مضغة ؟ أعد الى المضغات التى سبق ان اقترضتها منى يا « ليف باكنر » ، وسوف أقرضك طنا أو اثنين من الطباق فيما بعد !

ـ حسنا ، ألم أرد اليك بعضها ؟

ـ نعم ، حوالى ست مضغات ... فقد اقترضت منى طباقا فاخرا ولكنك أعدت لى طباقا رديئا !

ثم يمضى الحديث بينهم على هذا المنوال !

وكانت جميع شوارع المدينة ودروبها مملوءة بوحل أسـود كالقار ، وقد يبلغ عمقه قدما فى بعض الأماكن ، وبوصتين أو ثلاث بوصات فى جميع الأماكن ! وكانت الخنازير تتسكع فى كل مكان ، فكنت ترى « خنزيرة » ومجموعة من الخنازير الصغيرة مقبلة بكسل فى الطريق ثم لا تلبث أن تتمرغ فى الوحل أحيانا ، فيضطر الناس الى الدوران حـولها . وقد تتمطى « الخنزيرة » وتغلق عينيهـا وتحرك اذنيها بينما ترضع الخنازير الصغيرة وقد بدت عليها علامات السعادة كما لو كانت قد حصلت على ثمن عملهـا ! ! ... ثم كنا نسمع متسكعا يصيح قائلا : « هيا ياغلام ، اضرب هذه الخنزيرة » وعندئذ تبادر الخنزيرة بالهرب وهى تطلق صـوتا كئيبا ، بينما

يتواثب كلب أو اثنان على كل أذن من أذنيها ، ويحاول أكثر من عشرين كلبا آخر اللحاق بها . وعندئذ ينهض المتسكعون جميعا لمراقبة هروب الخنزيرة فيضحكون وقد استخفهم الطرب وبدت عليهم علامات الارتياح لهذه الضوضاء ! ثم يعودون الى كسلهم واسترخائهم فى انتظار معركة تنشب بين الكلاب ، فليس هناك ما يمكن أن يوقظ هؤلاء المتسكعين ويجعلهم سعداء دواما مثل معركة تنشب بين الكلاب ! اللهم الا اذا وضع أحدهم سائل « التربنتين » فوق كلب ضال ، فيحترق جسمه ؛ أو حاول لسع ذيله فيركض بجنون . . . أما عند الشاطىء ، فقد كانت بعض المنازل قائمة داخل النهر ذاته ؛ وقد انحنت ومالت وأوشكت على السقوط فيه ، فهجرها الناس ، بينما تآكل الشاطىء تحت بعض هذه البيوت وأصبحت شبه معلقة فى الفضاء ، ومع ذلك ظل الناس مقيمين فيها رغم ما يتهددهم من خطر ! فقد تنهدم هذه المنازل فى أى وقت !

وكلما اقترب وقت الظهيرة ، ازدادت حركة المركبات والجياد فى الشارع ؛ وازداد صخب الناس القادمين من الريف الى المدينة ! فهؤلاء القرويون يأتون الى المدينة حاملين معهم طعاما يأكلونه فى المركبات أو على صهوات الجياد فى الشارع . وكثيراً ما كانت تدور بين الناس معارك ومشاجرات بين الحين والحين ! واننى لأتذكر اننى سمعت فى ذلك اليوم شخصا يصيح :

ــ ها قد أقبل « بوجز » العجوز قادما من الريف . ها هو قد جاء أيها الفتيان ليحصل على جرعته الشهرية من الخمر !

وارتسم السرور على وجوه الشبان المتسكعين جميعا ، فايقنت انهم اعتادوا الاستخفاف ببوجز العجوز .

وقال أحدهم :

ـ شد ما أعجب من الذى سيكون ضحية خمر « بوجز » هذه المرة :

وأقبل « بوجز » يتهادى فوق صهوة جواده وهو يسعل ويصيح قائلا :

ـ أفسحوا الطريق فانني مقبل ، والويل لمن يعترضنى .

كان الرجل ثملا ، وكان يترنح فوق جواده ... كان فى حوالى الخمسين من عمره ، ذا وجه شديد الاحمرار . وراح الجميع يصرخون فى وجهه ويضحكون منه ، ويشتمونه فيشتمهم بدوره مهددا اياهم بانه سينكل بهم بعد أن يفرغ من مهمته ! ... فقد جاء ـ كما قال ـ ليقتل « الكولونيل شربيرن » !

ورآنى « بوجز » ، فأقبل نحوى وقال : من أين جئت يا بنى ؟ هل تهيأت للموت ؟

ثم انصرف عنى وقد ركبنى الفزع ، فقال أحد الرجال :

ـ لا تخف منه ، فانه ليس جادا فى تهديده ... انه يفعل ذلك كلما لعبت الخمر برأسه ... انه أحمق كهل فى المدينة كلها ـ ولكنه لا يؤذى أحدا سواء أكان ثملا أم غير ثمل !

ومر « بوجز » بأكبر حانوت فى المدينة ، فمال برأسه الى الأمام حتى يستطيع الرؤية من أسفل ستار المظلة ثم صاح :

ـ تعال هنا يا « شربيرن » ... تعال وواجه الرجل الذى احتلت عليه ... انك الكلب الذى جئت من أجل قتله ! ... سوف أنكل بك !

ومضى « بوجز » يسب « شربيرن » بكل كلمة بذيئة استطاع تذكرها ، فازدحم الشارع بالناس الذين كانوا يسمعون ويضحكون ثم يمضون لشأنهم . وبعد قليل ، خرج من الحانوت رجل بادى الكبرياء يرتدى أجمل وأفخم ثياب رأيتها فى هذه المدينة ، فتراجع الناس ، وقال الرجل مخاطبا « بوجز » ببطء وبصوت هادىء .

ـ لقد ضقت ذرعا بصخبك ، ولكنى سأحتملك حتى الساعة الواحدة فقط ... فتذكر ذلك ... لأنك اذا أهنتنى بعد هذا الموعد فستندم على ذلك .

ثم دار على عقبيه واختفى داخل الحانوت ، فبدت علامات الجد على وجوه الناس ؛ وانطلق « بوجز » مبتعدا وهو يسب «شربيرن» ويلعنه بأعلى صوته حتى بلغ نهاية الشارع ، ولكنه سرعان ما عاد مرة أخرى ووقف أمام الحانوت وهو يشتم ... وتجمع بعض الناس حوله وحاولوا أن يرغموه على الصمت ولكنه رفض ، فقالوا له ان الساعة ستبلغ الواحدة بعد خمس عشرة دقيقة ، ولهذا يجب عليه أن يعود الى منزله بلا ابطاء . ولكن « بوجز » لم يستمع اليهم ، وراح يسب ويشتم بأعلى صوته ، ثم ألقى بقبعته فى الوحل وترك جواده يطأها بحوافره . وسرعان ما مضى الى نهاية الشارع وهو يرغى ويزبد ، وشعره الأشيب يتطاير فى الهواء . ولقد حاول الناس ارغامه على أن يترجل من فوق جواده ليقودوه الى مكان يبقى فيه ريثما يفيق من الخمر ولكنهم أخفقوا ؛ فقد مضى « بوجز » فى شتائمه . وفى تلك اللحظة ، قال أحد الواقفين :

ـ اذهبوا الى ابنته ... اسرعوا بالذهاب الى ابنته . فهو يستمع اليها أحيانا ... وليس هناك من يستطيع اقناعه غيرها .

وانطلق أحدهم الى منزل الابنة ! وبعد خمس أو عشر دقائق ، عاد « بوجز » مرة أخرى ، ولكنه لم يكن ممتطيا صهوة جواده هذه المرة ... وأخذ يترنح فى الطريق وهو مقبل نحوى عارى الرأس وقد تأبط ذراعيه صديقان وهما يحثانه على المسير . وكان الرجل هادئا بادى القلق ، ولكنه لم يكن يقاوم مرافقيه ، وانما كان يسير معهما . وقال أحد الرجال :

ـ بوجز !

وتطلعت لأرى المتكلم ، فاذا به « الكولونيل شربيرن » .. كان يقف فى عرض الطريق وقد حمل فى يده اليمنى مسدسا موجها نحو السماء . وفى تلك اللحظة ، أقبلت فتاة صغيرة وهى تركض ومعها رجلان . واستدار « بوجز » ومرافقاه ليروا من الذى ناداه . وعند ما رأوا المسدس وثب الرجلان ، فوجه « شربيرن » فوهة المسدس ببطء وثبات نحو « بوجز » ... ورفع بوجز يديه وهو يقول :

« أواه ... يا الهى ... لا تطلق النار » ! ثم انطلقت الرصاصة الأولى فترنح « بوجز » الى الوراء ! وانطلقت رصاصة ثانية ، فسقط « بوجز » الى الوراء فوق الأرض ككتلة من الصخر وقد انتشر ذراعاه . وهنا اطلقت الفتاة الصغيرة صرخة ناقبة ، واندفعت فى جنون ، ثم القت بنفسها على أبيها وهى تبكى وتصيح « أواه ، لقد قتله ، قتله » ، وتجمع الناس ، وقد اشرأبت أعناقهم ، لرؤية هذا المنظر المؤلم !

وألقى الكولونيل « شربيرن » بمسدسه على الأرض ، واستدار على عقبيه ، وسار مبتعدا .

ونقل بعض الحاضرين « بوجز » الى صيدلية صغيرة ، تجمهر الناس حولها . وكان عدد الناس يتضاعف ، حتى لقد خيل لى أن المدينة على بكرة أبيها اجتمعت فى الشارع . ورحت ابحث عن مكان ارى منه ما يحدث ، فتسلقت احدى النوافذ القريبة من الصيدلية فرأيت الناس يمددون « بوجز » على الأرض ، ويضعون انجيلا كبيرا تحت رأسه ، ويفتحون انجيلا آخر وضعوه فوق صدره بعد أن فكوا أزرار قميصه ، فرأيت موضع احدى الرصاصتين ! ... وشهق « بوجز » أكثر من عشر مرات ، فكان صدره يرتفع بالانجيل وهو يشهق ، ثم يهبط وهو يزفر ، ثم

همدت حركته دليلا على موته ، وعندئذ جذب الناس ابنته بعيداً عنه وهى تصرخ وتولول ... كانت فى السادسة عشرة من عمرها تقريبا ، موفورة الجمال ، بادية اللطف ، ولكنها كانت مصفرة الوجه مذعورة .

وبعد قليل . كان أهل المدينة كلهم يتدافعون ويتزاحمون محاولين الوصول الى النافذة التى كنت أجلس فوقها ليلقوا نظرة على « بوجز » ... ولكن الجالسين على قاعدة النافذه لم يمكنوهم من ذلك ، فصاح البعض « لقد شاهدتم ما فيه الكفاية يا هؤلاء ، وليس من الصواب أو العدل أن تبقوا فى أماكنكم بعد ذلك ... دعوا غيركم يشاهد ما يحدث ... ان للآخرين حقوقا مثلكم ! »

وحدث هرج ومرج ، فهبطت من فوق النافذة ، بعد أن توقعت كثيرا من المتاعب ... وكانت الشوارع مزدحمة ، وكان حديث الناس لا ينقطع ... فقد كان لكل واحد منهم رأى فى الحادث ! وكان كل واحد يروى حقيقة ما حدث لمن لم يره . وكانت هناك جماعات ضخمة من الناس تلتف حول الرواه . بينما أخذ رجل نحيف طويل القامة ذو شعر طويل ، ويضع بين شفتيه غليونا ضخما ، يحدد بعصاه المكان الذى كان « بوجز » و « شربير » يقفان فيه . وكان الناس يتبعونه أينما ذهب ويراقبون ما يفعله ويهزون رءوسهم كما لو كانوا يفهمون ما يفعل ، ثم ينحنون الى الأمام ليراقبوه وهو يحدد الأماكن على الأرض بعصاه ، ثم يتطلعون الى المكان الذى وقف « شربيرن » فيه . وقطب الرجل حاجبيه وجذب قبعته الى أسفل فوق عينيه وقال « بوجز » !.. ثم أنزل عصاه حتى أصبحت فى مستوى الأفقى وصاح « پانج » (صوت انطلاق المسدس) وترنح قليلا ، وهتف مرة أخرى « پانج » وأتى بحركة تشير الى سقوط « بوجز » على ظهره .

ولقد قال لى الذين رأوا المأساة ان الرجل أجاد تمثيل الحادث حتى لقد بدا تمثيله صورة طبق الأصل لما حدث ! ثم استبد الانفعال بأحد الناس فقال انه يجب أن يشنق « شربين » . وسرعان ما ردد الجميع قوله ، وبدأوا يتفرقون وهم يصيحون بجنون وينتزعون « حبال الغسيل » التى تصادفهم فى الطريق ليشنقوا « شربين » بها ! . .

الفصل الثاني والعشرون

« شربيرن » – مشاهدة السيرك – سكير في الحلقة – المأساة المثيرة –

أخذ الناس يندفقون كالسيل في طريقهم الى منزل « شربيرن » وهم يصيحون كالمجانين . وكان منظرهم مخيفا .

وتجمهر الدهماء أمام منزل « شربيرن » ، فامتلأت الساحة بهم ... وراحوا يصخبون ويضجون . وكانت الساحة صغيرة لا يزيد طولها على ٢٠ قدما . ثم صاح صائح « حطموا السياج .. حطموا السياج » ، فامتدت مئات الأيدي الى السياج ، فحطمته تحطيما وبدأ الصف الأول من الجمهور يتقدم كالموج .

وفي تلك اللحظة ، ظهر « شربيرن » فوق سطح منزله وتقدم حتى واجه الجمهور الصاخب وهو يحمل بندقية ذات «ماسورتين» في يده . ووقف الرجل هادئا لايتحدث ، فكف الناس عن الصخب والضجيج .

ولم يتكلم « شربيرن » وانما لزم مكانه وراح يحدق في الجماهير . وبدأ السكون يحدث أثره البغيض في النفوس ؛ وراح « شربيرن » ينظر الى الواقفين ، وكلما التقت عيناه بعيني واحد منهم ارتبك الناس ! ثم انفجر « شربيرن » ضاحكا ! ولم تكن ضحكته رقيقة !

ثم قال ببطء وبلهجة ساخرة :

ـ ان فكرة قيامكم بشنق أحد الناس فكرة طريفة حقا ؛ وان مجرد التفكير فى انكم تملكون من الشجاعة ما يدفعكم الى قتل رجل مثلى لأكثر طرافة ! اتحسبون أنفسكم قادرين على ايذائى ؟... يا الهى ... ان أى رجل يسقط فى أيدى ألف رجل منكم ، لابد ان يشعر بانه آمن ما لم تتسللوا اليه من خلف ... أترانى لا أعرفكم ؟ اننى أعرفكم حق المعرفة ، لقد ولدت ونشأت فى الجنوب وعشت فى الشمال ، ولهذا اعلم كل شىء عن أخلاق الناس هنا وهناك .. ان الرجل العادى هنا جبان !.. أما فى الشمال فانهم قوم يتصفون بالجرأة التى لا حد لها ؛ ولذلك فالويل لمن يتحداهم . لقد استطاع رجل من الجنوب أن يتحدى بمفرده مسرحا مملوءا بالناس فى وضح النهار وأن يجردهم من كل ما معهم .. ان صحفكم تقول انكم قوم شجعان حتى توحى اليكم بانكم أشجع من أى قوم آخرين .. والواقع انكم شجعان ، ولكنكم لستم أشجع من الآخرين . لماذا لا يحكم محلفوكم بشنق أى متهم ؟.. لماذا ؟.. لأنهم يخشون أن يغتالهم أصدقاء المتهم فى الظلام ومن الخلف ، وهذا هو مايحدث فعلا .. ولهذا يصدرون أحكامهم بالبراءة دائما . وعند ذلك يجمع رجل واحد مائة رجل جبان ويذهبون وهم مقنعون ليغتالوا ليلا المتهم الذى برىء . وان الغلطة التى ارتكبتموها الآن هى انكم لم تحضروا معكم رجلا ! والغلطة الثانية ، هى انكم لم تجيئوا فى الظلام وأنتم مقنعون ، وانما أحضرتم معكم شبه رجل ، هو « باك هاركنس » ؛ ولو أنه لم يتول قيادتكم ، لما اقدمتم على مواجهتى !.. اننى أعلم أنكم لم تكونوا راغبين فى المجىء ، لأن الرجل العادى لا يحب التعرض للمتاعب والخطر ، وأنتم لا تحبون المتاعب والخطر .. ولكن عندما يصيح «نصف رجل» مثل « باك هاركنس » قائلا : « اشنقوه » .

« اشنقوه » ، فانكم تخشون التخاذل . تخسون أن يكشف عن حقيقتكم ، عن جبنكم وضعفكم .. ولهذا تندفعون فى الصياح وتتعلقون بأذيال « نصف الرجل » هذا ، وتجيئون الى هنا وأنتم تهددون وتقسمون ، بأغلظ الايمان أن تأتوا أمرا جللا .. ان الدهماء تستحق الرثاء فعلا !.. عودوا الى منازلكم وابحثوا عن جحور تختفون فيها !.. واذا كان لابد من شنق أحد ، فدعوا ذلك يحدث فى هدأة الليل كما اعتاد أهل الجنوب !.. ولكن ذلك لن يحدث الا اذا تولى قيادتكم رجل .. هيا ابحثوا عن رجل .. والآن عودوا من حيث أتيتم وخذوا معكم « نصف الرجل » الذى جاء بكم الى هنا !

ثم علق « شربرن » بندقيته على كتفه الأيسر ، فتراجع الجمهور الى الوراء فجأة ، ثم تفرق أيدى سبا ، وانصرف « باك هاركنس » فى أثرهم وهو يشعر بالمذلة .. وكان فى استطاعتى أن أبقى لو شئت ، ولكنى لم أشأ ذلك !!

وذهبت الى « السيرك » ، وتسكعت عند المؤخرة ريثما يبتعد الحارس . ثم تسللت من تحت حافة الخيمة !.. وكانت معى القطعة الذهبية ذات العشرين دولارا وبعض قطع النقود الأخرى التى أعطانى اياها الرجلان اللذان استنجدت بهما ذات يوم فى عرض البحر ! وقررت ألا أنفق هذا المال الذى سأحتاج اليه فيما بعد !.

كان « السيرك » رائعا حقا . وكان أروع منظر رأيته فى حياتى ، هو منظر اللاعبين وهم يدخلون الى الحلقة راكبين جيادا ، زوجا فزوجا ، رجالا ونساء ، جنبا الى جنب والرجال فى سراويلهم وقمصانهم بلا جوارب ولا مهاميز ، وقد وضعوا أياديهم فوق أفخاذهم فى سهولة وراحة . وكان عددهم لا يقل عن عشرين شخصا . أما النساء فكن آية فى الجمال حتى لقد كن أشبه

بمجموعة من الملكات الحقيقيات اللائى يرتدين ثيابا مرصعة بالماس لا تقل قيمتها عن ملايين الدولارات . . كان منظرا خلابا لم أر له مثيلا كما قلت ، ثم لم يلبث كل منهم أن وقف فوق جواده وأخذ يدور به حول الحلقة فى لطف رائع . فالرجال منهم طوال تتدفق الحيوية والنشاط من وجوههم حتى ليخيل اليك وهم منتصبون فوق الجياد بقاماتهم الفارعة أن رءوسهم تكاد تصل الى سقف الخيمة . أما النساء ، فكن أشبه بحوريات الجنة ، كلما تطايرت أذيال ثيابهن الهفهافة الناعمة حول أعجازهن .

وزادت سرعة الجياد أكثر فأكثر ، وبدأ الجميع يرقصون ؛ فكانوا يمدون ساقا واحدة فى الهواء ثم يعيدونها الى مكانها ليمدوا الساق الثانية ، والجياد تتمايل وتتهادى فى منظر رائع . أما بطل الحلقة ، فقد أخذ يدور ويدور فى وسط الحلقة وهو « يقرقع » بسوطه فى الهواء ويصيح « شى شى » ونكات « المهرج » تلاحقه ، وشيئا فشيئا أخذت أيديهم جميعا تترك أعنة الجياد ، ووضعت السيدات أياديهن فوق أعجازهن ، ثم عقد الرجال أذرعهم فوق صدورهم ، بينما انطلقت الجياد بسرعة مخيفة . وبعد قليل ، أخذوا ينزلقون من فوق جيادهم واحدا فى أثر واحد ، وواحدة فى أثر واحدة حتى ملأوا أرجاء الحلقة ، وانحنوا للنظارة فى حركة رشيقة رائعة ، ثم انسحبوا وسط عاصفة من التصفيق والصياح ! !

وتلت ذلك ألعاب مدهشة ، كانت تتخللها نكات « المهرج » حتى كاد النظارة يستلقون على ظهورهم من فرط الضحك . ولم يكن « بطل » الحلقة بقادر على الرد على « المهرج » لأن النكات كانت تنطلق من فم « المهرج » متلاحقة متتابعة . والحق اننى لم أستطيع أن أفهم كيف استطاع هذا «المهرج» أن يعثر على مثل هذه النكات الكثيرة المفاجئة . وفجأة حاول رجل مخمور أن ينزل الى

الحلقة .. قال فى بادىء الأمر انه يريد أن يركب جوادا ، لأنه يجيد الركوب خيرا من أى فارس فى « السيرك » . وحاول الجمهور أن يقنعه بالبقاء خارج الحلقة ولكنه رفض الامتثال للنصيحة . وعلى الفور توقف العرض ، وأخذ الجمهور يصيح بالرجل ساخرا منه ، ولكن ذلك زاده جنونا وعنادا ، فراح يقاوم كل معارضيه ، فأثار ذلك كثيرا من الناس ، فصاح بعضهم : « اضربوه .. اقذفوا به الى الخارج » ، وبدأت امرأة أو اثنتان تصرخان ، وعندئذ تدخل بطل الحلقة قائلا انه كان يأمل ألا تحدث مثل هذه الضجة ، ولكن اذا استطاع هذا الرجل أن يتعهد بألا يثير مزيدا من المتاعب ، فانه سيدعه يركب أحد الجياد ان كان يظن حقا انه يستطيع البقاء فوق صهوته .. وهنا ضج الجميع ضاحكين ! وامتطى الرجل صهوة أحد الجياد ، فراح الجواد يثب أماما ووراء محاولا القاء راكبه من على ظهره ، بينما أمسك اثنان من رجال « السيرك » بعنانه محاولين منعه من التمادى فى جموحه . أما الراكب ، فقد تشبث بعنق الجواد ، وكانت ساقاه تطيران فى الهواء ، كلما وثب الجواد . وكان المنظر مثيرا للضحك حقا ، فضج الحاضرون بالضحك حتى اغرورقت أعينهم بالدموع ، وأخيرا ، ورغم ما بذله رجال « السيرك » من جهود لكبح جماح الجواد ، استطاع الجواد أن يفلت منهم ، وراح ينهب الأرض نهبا حول الحلقة بينما « الفارس » المتطى صهوته نائم فوق عنقه وقد تدلت احدى ساقيه الى الأرض من جانب والأخرى من الجانب الآخر ، فحبس الجميع أنفاسهم . أما أنا ، فقد تملكنى الخوف على الرجل خشية أن تدق عنقه ، ولكن شد ما كانت دهشتنا عندما رأينا الرجل يستوى فوق السرج ثم يثب واقفا ، ويلقى بعنان الجواد من يده ، وينتصب كالمارد ، بينما الجواد منطلق فى الحلقة بسرعة جنونية . وظل الرجل فى موقفه هذا ، وكأنه لا يشعر بأى

خطر يتهدده ، ثم لم يلبث أن بدأ يخلع ثيابه قطعة قطعة ، ملقيا بها فى الهواء ، وقد بلغ عددها سبع عشرة قطعة ، ولم يترك سوى سروال وقميص أنيقين جميلين . ثم أخذ « يفرقع » بالسوط فى الهواء حتى يزيد الجواد من جموحه . وأخيرا وثب من فوق الجواد وانحنى للنظارة ثم انسحب الى غرفة ارتداء الثيـاب ، فدوت عاصفة من التصفيق .

ثم كشف « بطل » الحلقة عن الخدعة . . فقال ان هذا الرجل أحد اللاعبين وانه كان يتظاهر بأنه مخمور حتى يستأثر بمشـاعر المتفرجين . والحق اننى شعرت بالغيظ لأن الرجل خدعنى بمزاحه ! ولو اننى كنت « بطل » الحلقة لما وافقت على مثل هذا المزاح ولو اعطيت الف دولار !..

وعلى أية حال ، فقد أعجبنى « السيرك » أيما اعجاب !..

* * *

وفى تلك الليلة ، أقمنا استعراضنا المسرحى ، ولكن عدد النظارة لم يكن يتجاوز اثنى عشر شخصا ، وبذلك لم نحصل على دخل يفوق النفقات . وكان النظارة يضحكون طوال الوقت ، فأثار ذلك ثائرة « الدوق » . ولقد انصرف النظارة جميعا ما عدا غلاما كان مستغرقا فى النوم ، قبل انتهاء العرض ، وقال «الدوق» ان أهالى مدينة «اركانسو» تلك قوم فارغو العقول لم يرتقوا بعد الى مستوى شيكسبير ، وان كل ما يريدونه هو الكوميديا الرخيصة ــ وربما ماهو أدنى من الكوميديا الرخيصة ! ثم قال انه يستطيع أن يرفه عنهم ويسليهم بالأسلوب الذى يحبونه ، وقرر أن يقدم لهم ما يستولى على مشاعرهم ، وفى اليوم التالى ، وضع « الدوق » فى شتى انحاء المدينة اعلانات تقول :

على مسرح المدينــة
ولمدة ثلاث ليــال فقط
أشهر ممثلى التراجيدى فى العــالم
« دافيد جاريك » الصغير
و
« ادموند كين » الـكبير
من مسارح لندن والقارة الأوربية
فى تراجيديتهما المثيرة
« زرافة الملك »
الدخول ٥٠ ســنتنا
ممنوع دخول السيدات والأطفال

وقال الدوق لنا : اذا لم يجعل الســطر الأخير جميع السكان يأتون الى المسرح ، فانني بذلك أكون أجهــل رجل فى مدينــة « اركانسو » ! !

الفصل الثالث والعشرون

خدعة ـ مقارنات ملكية ـ « جيم »
يصـــاب بالحنـين الى الوطـن ..!

قضى « الدوق » و « الملك » النهار كله وهما يعملان بلا كلل فى اعداد المسرح والستار وصف من الشموع لتكون بمثابة أنوار خلفية للمسرح . ولقد امتلأ المسرح بالرجال فى تلك الليلة ، حتى لم يعد هناك موطىء لقدم . وفى الموعد المحدد ، اعتلى « الدوق » خشبة المسرح ووقف أمام الستار ، وألقى خطابا امتدح فيه هذه التراجيديا فقال : انها أكثر التراجيديات اثارة .. ثم انتقل الى الحديث عن موضوعها ، وعن « ادموند كين الكبير » الذى سيلعب الدور الرئيسى فى التراجيـديا . وعند ما أثار اهتمام الحاضرين جميعا رفع الستار ، وعلى الفور ، ظهر « الملك » على خشـبة المسرح وهو يحبو على أربع وقد تجرد من الثياب وطلى جسمه كله بحلقات متـوازية وخطوط متقاطعة مختلفـة الألوان ! وكان منظره رائعا كقوس قزح . كان مضحكا للغـاية ، وكان النظارة ينفجرون ضحكا بين الحين والحين . وعند ما فرغ « الملك » من أداء دوره المضحك ، صـفق النظارة تصفيقا حادا متواصـلا

وطالبوا بعودة « الملك » ، فاضطر الى العودة وأداء دوره ثانية ، ثم أرغمه النظارة على أداء الدور للمرة الثالثة . ولا عجب ، فقد كان منظر هذا الكهل الغبى خليقا بأن يضحك الحيوان ، ناهيك عن الانسان !

وعندئذ ، أنزل « الدوق » الستار وانحنى للجمهور قائلا ان هذه التراجيديا الكبرى ستمثل ليلتين أخريين فقط لارتباط الفرقة بمواعيد فى لندن حيث بيعت جميع المقاعد سلفا . ثم أضاف انه اذا كان قد نجح فى ادخال السرور فى قلوبهم فسيكون من دواعى سروره أن يذكر الحاضرون ذلك لأصدقائهم ليحثوهم على مشاهدة التراجيديا ! !

وصاح عشرون شخصا :

ـ ماذا تقول ؟ هل انتهى التمثيل ؟ أهذا كل شيء ؟

فأجاب « الدوق » بالايجاب . وعندئذ صاح الجميع « هذا خداع » . واستولى عليهم الجنون وهموا بالانقضاض على المسرح والممثلين لولا أن عملاقا ضخما وثب فوق مقعده وصاح :

ـ مهلا لحظة . . استمعوا الى أيها السادة .

فأنصت الجميع اليه . . .

قال الرجل :

ـ لقد خدعنا حقا . . خدعنا خداعا عظيما ، ولكن يجب ألا نصبح أضحوكة للجميع ، وألا نظل موضع السخرية طيلة حياتنا . . ان ما يجدر بنا أن نعمله هو أن ننصرف من هنا بهدوء ، وأن نمتدح هذا العرض حتى نخدع المواطنين الآخرين الذين لم يشاهدوا هذه المهزلة ، وبذلك نصبح جميعا متساوين . . أليس هذا شيئا معقولا ؟ .

وهنا صاح الجميع : « هذا عظيم . . هذا عظيم » .

فمضى الرجل يقول : اذن . . . فليحذر كل منكم أن يتحدث

عن الخدعة التى تعرضنا لها .. عودوا الى منازلكم وحثوا الجميع على الحضور ومشاهدة هذه التراجيديا .

وفى اليوم التالى ، أصبح حديث « التراجيديا » على كل لسان !.. الجميع يمتدحونها ويسهبون فى الثناء عليها .. وعندما حل موعد العرض ، امتلأ المسرح بالنظارة المساكين الذين خدعوا كما خدع زملاؤهم من قبل . وعند ما عدنا ـ الملك والدوق وأنا ـ الى العائمة ، تناولنا طعام العشاء . وعند منتصف الليل ، طلب « الملك » و « الدوق » من « جيم » أن ينقل العائمة الى مكان يبعد ميلين جنوب القرية وأن يرسو بها فى مخبأ أمين .

وفى الليلة الثالثة ، امتلأ المسرح مرة أخرى . ولم يكن النظاره القادمون جددا هذه المرة ، وانما كانوا أولئك الذين شهدوا العرض فى الليلتين السابقتين . وكنت أقف مع « الدوق » عند الباب ، فلاحظت أن جيوب كل شخص يدخل قاعة المسرح كانت منتفخة وأنه كان يخفى شيئا تحت سترته . ولاحظت أيضا أن روائح غير سارة بدأت تفوح فى المكان كرائحة البيض الفاسد ، والكرنب المتعفن ، فأدركت أن فى الأمر شيئا ، وعند ما امتلأ المسرح ولم يعد هناك مكان لقادم جديد ، أعطى « الدوق » ربع دولار لأحد الاشخاص وطلب اليه مراقبة الباب ، ثم تظاهر بالذهاب الى باب المسرح الخلفى ، وأنا أسير فى اثره . ثم استدار الى منعطف مظلم جانبى وقال لى : انطلق سريعا ورائى الى العائمة متجنبا المنازل .. هيا أسرع كما لو كانت الشياطين تطاردك .

ورحنا نجرى بسرعة . ووصلنا الى العائمة فى وقت واحد ، وفى أقل من ثانيتين كانت العائمة تنزلق فوق صفحة الماء منطلقة الى الجنوب وهى معتمة هادئة . ولقد خيل الى أننا تركنا «الملك» التعس تحت رحمة الجماهير الصاخبة الحانقة ، ولكن شد ما كانت دهشتى حينما رأيته يزحف خارجا من العائمة وهو ويقول :

ـ حسناً ، ما الذى انتهى اليه الموقف هذه المرة أيها «الدوق» ؟
لقد كان « الملك » أذكى منا جميعا .. لم يذهب الى المدينة على الاطلاق فى تلك الليلة !..

ولم نشعل المصباح الا بعد أن أصبحنا على مبعدة عشرة أميال من المدينة.. ثم تناولنا طعام العشاء ، وانفجر «الملك» و «الدوق» يضحكان وهما يتذاكران خدعتهما للجمهور ..

قال الدوق :

ـ يا لهم من أغبياء مغفلين .. كنت أعلم أن نظارة الليلة الأولى سيدعون غيرهم يقعون فى «الفخ» .. وكنت أعرف أيضا ما أعدوه لنا هذه الليلة للثأر منا .. كم أتمنى أن أعرف كيف تلقوا الصدمة !

وهكذا استطاع هذان المحتالان أن يجمعا اربعمائة وستة وخمسين دولارا فى ثلاث ليال.. والحق اننى لم يسبق لى أن شاهدت كومة من النقود كتلك الكومة التى رأيتها أمامهما فى تلك الليلة !..

وبعد قليل ، استسلم الاثنان للنوم ..

فقال جيم :

ـ ألا يدهشك مسلك الملوك يا « هاك » ؟

فقلت : كلا .. ان مسلكهم لا يدهشنى !

ـ لماذا يا « هاك » ؟

ـ لأن تلك هى طبيعتهم بمولدهم . وأكبر ظنى انهم جميعا متشابهون .

ـ لكن هذين الملكين اللذين يقيمان معنا محتالان عريقان فيما أرى .

ـ هذا حق .. ان جميع الملوك محتالون .

ـ أحقا ؟

ـ لو انك قرأت عنهم مرة لعرفت الحقيقة .. انظر الى هنرى الثامن ، وشارل الثانى ، ولويس الرابع عشر ، ولويس الخامس عشر ،

وجيمس الثانى ، وادوار الثانى، وريتشارد الثالث، وأربعين آخرين من الملوك المحدثين عدا ملوك السكسون الذين اعتادوا أن يعيثوا الفساد فى كل مكان فى العهود القديمة . . كان ينبغى لك أن ترى هنرى الثامن وهو فى أوج مجده . لقد اعتاد أن يتزوج زوجة جديدة كل يوم ، ثم يأمر بقطع رأسها فى صباح اليوم التالى . وكان يفعل ذلك ببرود شديد ، كما لو كان يطلب من طاهيه أن يعد له طبقا من البيض . . كان يقول : احضروا لى « مل جوين » فيحضرونها له . وفى صباح اليوم التالى يقول لهم « اقطعوا رأسها » ، فيقطعونه . وعندئذ يقول «احضروا لى جين شور» فيحضرونها ، وفى صباح اليوم التالى يأمرهم بقطع رأسها ! ثم يقول « اصلوا بروزا مان الجميلة » وتجيب روزا مان الجميلة النداء ، وفى صباح اليوم التالى يأمر الملك بقطع رأسها . وكان الملك يطلب من كل واحدة منهن أن تحكى له حكاية فى كل ليلة . واستمر على ذلك المنوال الى أن جمع ألف حكاية بهذه الطريقة ، فسجلها كلها فى كتاب أطلق عليه اسم « كتاب دومسداى » وهو اسم طريف ينم عن موضوعه . . انك لاتعرف الملوك يا « جيم » ، ولكنى أعرفهم . و « ملكنا » هذا الذى يقيم معنا من أنظف الملوك الذين قرأت عنهم فى التاريخ . . حسنا ، لقد خطر ببال الملك هنرى أن يثير مشكلة فى هذه البلاد ، فكيف يثيرها ؟ هل يلجأ الى انذارها ؟ لا . . لقد أمر فجأة باغراق جميع شحنات الشاى الموجودة فى ميناء « بوسطون » فى البحر . كان هذا أسلوبه . . كان لا يدع لأى انسان فرصة . . بل لقد كان يرتاب فى أبيه دوق ولنجتون . . فماذا فعل ؟ ، هل يتحداه ؟ لا . . لقد أغرقه كما يغرق الانسان قطة صغيرة ! . . ولنفرض أن الناس تركوا مالا فى أى مكان وكان هو فى هذا المكان ، فماذا تراه كان يفعل ؟ كان يستولى عليه . . ولنفرض انه ابرم عقدا لأداء عمل من الأعمال ودفعت أنت التزامك

المالى ولم تشرف بنفسك على أدائه للعمل المطلوب ، فماذا تظنه كان يفعل ؟ كان يفعل العكس دائما ، ولنفرض انه فتح فمه ، فماذا يحدث ؟ اذا لم يبادر باغلاقه ، أطلق أكذوبة فى كل مرة .. كان هذا هو هنرى الشبيه بالبقة ، فلو كان يقيم معنا بدلا من ملكينا هذين ، لفعل بهذه المدينة أسوأ مما فعل هذان الملكان. أنا لا أقول ان هذين الملكين على خلق عظيم ، لأنهما ليسا كذلك ؛ ولكنهما فاضلان اذا قورنا بالملك هنرى !!.. الملوك هم الملوك يا «جيم» .. انهم قوم جشعون بنشأتهم .

ــ ولكن هل تبدو رائحة هذا الملك كرائحة أمته يا « هاك » ؟

ــ نعم .. فهم جميعا مصنوعون من عجينة واحدة !.. ونحن لا نستطيع أن نغير رائحة الملوك يا « جيم » !

ــ ان « الدوق » رجل محتمل من بعض النواحى ..

ــ نعم ، قد يختلف الدوق عن الملك ، ولكنه اختلاف غير كبير .. فهذا « الدوق » رجل صعب المراس ، ولهذا لا يستطيع أحد أن يميزه عن « الملك » حينما يكون ثملا ، الا اذا كان بعيد النظر .

ــ والحق يا « هاك » اننى لم أعد راغبا فى رؤية مزيد منهم .. وحسبنا « الدوق » و « الملك »!

ــ وهذا هو شعورى أيضا يا « جيم » ... ولكن ما دام الاثنان معنا فينبغى أن نتذكر من هما ونوفيهما حقهما .. اننى أتمنى أحيانا أن أسمع عن بلد ليس فيه ملوك .

قلت ذلك للكهل «جيم» لأننى لم أر ثمة فائدة فى اخبار «جيم» بأن هذين الرجلين ليسا ملكا ودوقا حقيقيين ، ولأننى لم أجد فارقا بينهما وبين الملوك الحقيقيين !

ثم استغرقت فى النوم ، فلم يوقظنى عند ما حل موعد قيامى بالمراقبة بدلا منه .. وكثيرا ما كان يفعل ذلك . وعند ما استيقظت من نومى مع طلوع النهار ، ألفيته جالسا وقد وضع

رأسه بين ركبتيه وهو يتـأوه ويئن صامتا ، فلم أبال بذلك او اتدخل فى الأمر .. فقد كنت أعرف السـبب .. كان « جيم » يفكر فى زوجته وأطفـاله ، فقد غلبه الحنين اليهم والى وطنه ؛ وخاصة انه لم يبتعد من قبل عن منزله . وانى لأعتقد أنه كان يعنى بأسرته عنـاية عظيمة لا تقـل عن عنـاية الجنس الأبيض بعائلاتهم ! ورغم أن ذلك قد لا يبدو طبيعيا ، فهذا هو الحق !.. لقد كان كثير التأوه والأنين . وكثيرا ما كنت أسمعه يتأوه فى هدأة الليـل .. كم سمعته يقـول : « مسكينة أنت يا اليزابيث .. مسكين أنت يا جونى الصغير ، انها حياة شاقة . أكبر ظنى اننى لن أراكم ثانيـة .. ثانيـة » . ثم يتـأوه ويبكى !.. حقا ، ان « جيم » زنجى كريم !..

وعلى الرغم من أننى كنت أحرص على عدم التدخل فى شئونه العائلية ، فاننى تحدثت اليه هذه المرة عن زوجته وأطفـاله .. فلم يلبث أن قال :

ـ ان ما يجعلنى أشـعر بالحزن هذه المرة ، هو أننى سمعت صوت باب يغلق بعنف منذ قليل ، فذكرنى ذلك بالمعاملة السيئة التى عاملت بها ابنتى اليزابيث الصـغيرة فى أحد الأيام ! لم تكن حينذاك قد بلغت الرابعة من عمرها ، وأصيبت بالحمى القرمزية ، وكانت اصابتها شديدة الوطأة ولكنها شفيت . واتفق ذات يوم ان كانت تقف أمام المنزل فقلت لها :

ـ اغلقى الباب .

ولكنها لم تفعل ، وابتسمت لى فجن جنونى ، فقلت لها مرة أخرى بصوت مرتفع :

ـ ألا تسمعيننى ؟ اغلقى الباب .

فوقفت جامدة فى مكانها ، والابتسامة على شفتيها ، فازددت سخطا وغيظا وصحت :

ـ سأجعلك تطيعين ما أقوله لك .

وهويت بيدى فوق رأسها ، فسقطت على الأرض . ثم تركتها ودخلت المنزل وقضيت هناك عشر دقائق .. وعندما خرجت ، كان الباب لا يزال مفتوحا والطفلة واقفـة وقد خفضت رأسها والدموع تنهمر من عينيها .. وقد زادنى ذلك جنونا ؛ وهممت بالانقضاض عليهـا ، لولا أن الريح هبت فى تلك اللحظة فأغلقت الباب خلف الطفلة .. ولكنها لم تتحرك من مكانها ، فأحسست بأن قلبى يكاد يفلت من بين ضلوعى ، وتقدمت نحوالباب وفتحته بلطف وهدوء وأبرزت رأسى من خلفه ، فاذا بالطفلة لا تزال واقفة فى مكانها ؛ وعندئذ صحت فيها صيحة مدوية مفاجئة ، ولـكنها لم تتحرك .. أواه يا هاك .. لقد انفجرت باكيا ، وحملت الطفلة بين ذراعى وقلت لها : أيتها الطفلة المسكينة ، فليغفر الله العظيم لجيم المسكين ما أتاه من اثم عظيم ، لأن جيم لن يغتفر لنفسه هذا الاثم طالما بقى على قيد الحياة » .. يا الهى يا « هاك » .. لقد كانت الطفلة التعسة بكماء صماء .. ومع ذلك عاملتها بكل خشونة . !

الفصل الرابع والعشرون

((جيم)) فى ثياب ملكية ـ استقلوا باخرة ـ الحصـول على المعـلومات ـ حزن أسرة .

عندما دنا ليل اليوم التالى ، رسونا عند شجرة قنب صغيرة فى منطقة تحف بها قرية على كل جانب من جانبى النهر ، وبدأ « الدوق » و « الملك » يرسمان خطة للعمل فى هاتين القريتين ؛ فقال جيم للدوق انه يأمل ألا يستغرق تنفيذ هذه الخطط أكثر من ساعات قليـلة لأنه بدأ يشعر بالضيق لاضطراره الى البقاء طوال النهار مشدود الوثاق ، فقد كنا مضطرين الى شد وثاقه كلما تركناه وحيدا خشية أن يمر به أحد ويجده طليقا غيرمشدود الوثاق فيظنه زنجيا هاربا . .

لقد كان هذان المحتالان يضعان خطط مغامرة جديدة تدر عليهما مالا كثيرا ، ولكنهما رأيا أن فى ذلك مجازفة كبيرة لاحتمال وصول نبأ مغامرتهما السابقة الى القرية فى هذا الوقت . ولم يستطيعا رسم خطة مناسبة . . وأخيرا قال «الدوق» انه سيفكر ساعة او اثنتين لعله يستطيع أن يرسم خطة للاحتيال على قرية « اركانسو » ، بينما قال « الملك » انه سيذهب الى القرية الثانية بلا خطة معينة تاركا للأقدار تحديد نوع المغامرة التى تعود عليه

بالربح . وأكبر ظنى انه لم يترك هذا الأمر للأقدار ، وانما تركه للشيطان .. وكنا قد ابتعنا كمية كبيرة من ملابس التمثيل من أول مكان صادفنا ، فارتدى « الملك » ثيابه وطلب منى أن أرتدى ثيابى ، ففعلت . وكان ثوب « الملك » أسود اللون ، فأكسبه مهابة ووقارا . والواقع اننى لم أكن أدرك من قبل أن الثياب تستطيع أن تغير من منظر الانسان الى هذا الحد . وقبل أن يرتدى « الملك » هذه الثياب كان يبدو شخصا عاديا ، بل ربما بدا أقل من الشخص العادى ؛ أما الآن ، فانه يبدو مهيب الطلعة عظيما .

وأسرع « جيم » ينظف القارب ؛ وأعددت مجدافى للعمل ؛ وكان ثمة قارب بخارى راسيا عند الشاطىء على مبعدة ثلاثة أميال شمالى المدينة .. وكان هذا القارب قد وصل منذ ثلاث ساعات لشحن حمولة .

قال « الملك » : حيث انى أرتدى هذه الثياب ، أرى انه يحسن بى أن أصل الى القرية من ناحية الجنوب كما لو كنت قادما من « سانت لويس » أو « سنسناتى » أو غيرهما من المدن الكبرى .. انطلق الى القارب التجارى يا « هاكلبرى » .. وسنعود الى القرية فيما بعد .

ولم أتردد فى الامتثال لأمره .. فقد كنت شديد اللهفة على ركوب قارب بخارى .. وبلغت الشاطىء عند نقطة تبعد نصف ميل شمال القرية ثم أخذت أتجول به فى الماء الهادىء ؛ وسرعان ما التقينا بقروى ساذج جالس فوق كتلة من الخشب ، وهو يجفف العرق الذى انسال فوق وجهه .. فقد كان القيظ شديدا فى ذلك اليوم .. وكانت بجوار هذا القروى حقيبتان كبيرتان من القماش .

قال « الملك » : وجه القارب الى الشاطىء .

ففعلت

وعندئذ سأل « الملك » القروى : الى أين انت ذاهب أيها الشاب ؟

ــ الى الباخرة ؛ لانني في طريقي الى « اورليانز » .

فقال « الملك » : اذن تعال معنا وسيساعدك خادمي في نقل الحقيبتين .. هيا يا ادولفوس ، ساعد السيد .. قال ذلك وهو يعنيني بالطبع !

وعاونت الشاب ، واتخذنا مجلسنا في القارب ، وأعرب الشاب للملك عن عميق شكره لما قدمناه له من عون قائلا أن نقل هذه الأمتعة في مثل هذا الطقس يعتبر عملا شاقا .. ثم سأل «الملك» عن المكان الذى سيذهب اليه ، فأجاب « الملك » انه جاء من الجنوب ونزل الى البر عند القرية الأخرى هذا الصباح ، وانه ذاهب الآن شمالا ليزور صديقا قديما يقيم على بعد عدة أميال الى الشمال .. فقال الشاب :

ــ عند ما وقع بصرى عليك قلت لنفسى « من المؤكد أنه مستر ويلكس ، ولكنه وصل بعد فوات الأوان مع الأسف » .. ثم عدت أقول لنفسى « لا .. أظن انه ليس مستر ويلكس والا لما ركب قاربا صغيرا .. لا شك انك لست هو .. أليس كذلك » ؟

ــ لست مستر « ويلكس .. ان اسمى بولدجيت ــ السكندر بولدجيت ــ القس الكسندر بولدجيت من خدم الله الفقراء ، ولكن مهما يكن من أمر ، فانني سأشعر بعظيم الأسف اذا كان تأخر مستر « ويلكس » عن الحضور سيؤدى الى نتائج غير مستحبة ، وهو ما لا أرجوه !

ــ حسنا ، انه لم يخسر شيئا !.. فسيحصل على ما يخصه ما في ذلك ريب .. ولكن فاتته رؤية أخيه «بيتر» وهو على فراش الموت .. مسكين ! ان أخاه كان على استعداد للتنازل عن كل ما يملك في مقابل رؤيته قبل موته ! ولقد قضى الأسابيع الثلاثة

الأخيرة من حيـــاته وهو لا يتحدث الا عن رغبته فى رؤية أخيه الذى لم يره منذ أن كانا غلامين صغيرين .. كذلك لم ير المسكين أخاه وليم الأصم الأبكم على الاطلاق ! ان عمـــر وليم لا يتجاوز الخامسة والثلاثين . ولقد كان « بيتر » و « جورج » الوحيدين اللذين جاءا الى هنا .. وكان « جورج » هو الأخ المتزوج ، ومات هو وزوجته فى العام الماضى .. وبهذا أصبح « هارفى » و « وليم » الوحيدين الباقيين على قيد الحياة .. ولكنهما لم يصلا الى هنا فى الوقت المناسب .

ــ هل بعث أحد فى طلبهما ؟

ــ نعم ... منذ شهر أو اثنين ، أى عند ما سقط « بيتر » مريضا ! لقد كان « بيتر » يشعر بدنو أجله هذه المرة ... كان طاعنا فى السن ، وكانت بنـــات « جورج » صـــغيرات لا يصلحن لرعايته ، اللهم الا « مارى‌جان » ذات الشعر الاحمر ... لهذا شعر « بيتر » بالوحـــدة بعد موت « جورج » و « زوجتـــه » ، ويئس من الحياة ... وكان يتلهف على رؤية « هارفى » و «وليم» أشد اللهفة ... مسكين ، انه لم يكتب وصية ... ولكنه ترك رسالة لهارفى أنبأه فيها بالمكان الذى أخفى فيه نقوده ، وكيف انه يرغب فى أن تقسم بقية أملاكه بحيث تحصل بنات « جورج » على نصيبهن بالكامل ، لأن « جورج » لم يترك لهن شيئا بعد موته .. وكانت هذه‌الرسالة هى كل ما استطاع الجميع أن يقنعوه بكتابته .

ــ لماذا لم يحضر « هارفى » ؟ وأين يقيم ؟

ــ انه يقيم فى انجلترا ــ فى‌شيفلد ــ حيث يعمل واعظا ، ولكنه لم يأت الى هذه البلاد أبدا لأنه لا يملك من الوقت ما يتيح له ذلك ... ومن المحتمل أن تكون الرسالة قد ضلت طريقها اليه !

ــ هذا أمر يؤسف له ... نعم ... انه لمن المؤسف حقا ان

الأخ لم يعش حتى يرى أخويه ... يا له من مسكين ... هل قلت انك ذاهب الى « أورليانز » ؟

ــ نعم ، ولكن ذلك ليس سوى جزء من رحلتى ... فسوف استقل الباخرة يوم الأربعاء القادم فى طريقى الى « ريوديجانيرو » حيث يقيم عمى .

فقال « الملك » : انها رحلة طويلة ولكنها ممتعة ... ليتنى كنت ذاهبا هناك مثلك ... هل « مارى جان » هى كبرى البنات ؟ وما عمر الباقيات ؟

ــ ان « مارى جان » فى التاسعة عشرة ... و « سوزان » فى الخامسة عشرة ... و « جوانا » فى حوالى الرابعة عشرة ... و « جوانا » هى التى تقوم بأعمال المنزل !

ــ يا للمسكينات ... من نكد الدنيا أن يتركن وحيدات فى عالم بارد كهذا .

ــ هذا حق ... ولكن من حسن الحظ ان أصدقاء « بيتر » كثيرون ، وسيعملون بلا شك على حماية الفتيات ورعايتهن ... فهناك « هوبسون » الواعظ ، و « دنكن لوت هوفى » ، و « بن راكر » ، و « ابنر شكلفورد » ، و « ليفى بل » المحامى ، و « الدكتور روبنسون » وزوجاتهم ، والأرملة « باركلى » ... انهم كثيرون . وكان « بيتر » يحبهم ... وكثيرا ما كان يكتب عنهم فى خطاباته التى كان يرسلها الى أخويه ... ولا شك ان « هارفى » يعلم من هم الأصدقاء الذين ينبغى له أن يبحث عنهم عند ما يجىء الى هنا .

ومضى « الملك » يستدرج الشاب حتى عرف كل ماكان يريد أن يعرفه ... كذلك استطاع أن يعرف كل ما يمكن معرفته عن المدينة وعن أسرة « ويلكس » ، وأعمال « بيتر » ، فعرف انه كان

صاحب حديقة ، بينمـــا كان « جورج » نجـــارا ، كما عرف ان « هارفى » كان قسيسا ... وهلم جرا .....

ثم قال : ما الذى يجعلك تقطع كل هذه المسافة لتستقل هذه الباخرة ؟

ــ لأنها باخرة كبيرة داهبة الى أورليانز ... وقد خشيت الا تتوقف هنا ، فعنـــدما يكون منســـوب الماء منخفضـــا لا تتوقف البواخر هنا ... صحيح ان باخرة « سنسناتى » تقف هنـــا ، ولكن الباخرة التى أريد أن استقلها ليست باخرة « سنسناتى » ... انها باخرة « سانت لويس » !

ــ هل كانت حالة « بيترويلكس » المالية حسنة ؟

ــ نعم .. حسنة جدا .. انه يملك منازل ومزارع . واعتقد انه ترك ثلاثة آلاف جنيه مخبأة فى مكان ما .

ــ ومتى مات ؟

ــ ليلة أمس .

ــ اذن ، فالأرجح أن تشيع جنازته غدا .

ــ نعم . حوالى الظهر .

ــ حقا ... ان الأمر محزن للغاية ، ولكن هـــذا مصيرنا جميعا وان تفاوتت المواعيد ... ولهـــذا يجب علينا أن نســـتعد دائما لملاقاة الموت .

ــ نعم يا سيدى ، هذا أفضل شىء ... وكثيرا ما سمعت أمى تقول ذلك .

* * *

وعندما وصلنا الى الباخرة ، كانت تتأهب للرحيل فاستقلها الشاب القروى .. ثم بدأت الباخرة رحلتها الطويلة !.. وعندما

اختفت عن الأنظار ، طلب منى « الملك » ان أمضى بالقارب ميلا آخر ... وأن أرسو فى مكان منعزل ... تم نزل الى الشاطىء، وقال :

— والآن ، أسرع بالعودة لاحضار « الدوق » الى هنا ... ولا تنس أن تحضر الحقائب الجديدة معك ... واذا كان « الدوق » قد نزل الى الشاطىء الثانى ، فاذهب فى أثره وأحضره ، وقل له اننى أريد حضوره بسرعة ... هيا اذهب !

وأدركت ما يعتزم « الملك » أن يفعل ، ولكنى لم أقل شيئا بالطبع ... وعند ما عدت مع « الدوق » ، أخفينا القارب ، ثم جلس الرجلان على كتلة من الخشب ، وراح « الملك » يفضى الى « الدوق » بكل ما عرفه من القروى الساذج بدقة مدهشة ، وبدأ « الملك » يحاول أن يتحدث كما يتحدث الانجليز المهذبون ؛ وأعتقد أنه أجاد تمثيل دوره !

ثم قال للدوق : هل تستطيع أن تدعى الصمم والبكم يا « بريد جووتر » ؟ ...

فقال الدوق ، انه قام بتمثيل كثير من أدوار الصم والبكم حتى أجادها . ثم جلس الاثنان فى انتظار قارب بخارى كبير ! ..

وبعد الظهر ، مر قاربان بخاريان صغيران ، لا ينم منظرهما عن قدومهما من مكان بعيد ... وأخيرا أقبل قارب كبير فاستوقفاه وصعدنا الى ظهره .. كان القارب قادما من « سنسناتى » ... وعند ما علم أصحابه بأن رحلتنا لا تزيد على أربعة أو خمسة أميال جن جنونهم وانهالوا علينا سبا وشتما قائلين انهم لن ينزلونا على البر ، ولكن « الملك » ظل رابط الجأش ... وأخيرا قال :

— اذا كان فى استطاعتنا أن ندفع لكم ريالا عن كل ميل ، فلماذا لا تنقلوننا ؟

وهدأت ثائرة أصحاب القارب البخارى، وقبلوا الوضع . وعندما

نزلنا عند القرية ، أقبل نحونا حوالى عشرين شخصا ، فقال لهم الملك :

ــ هل يستطيع أحدكم أن يخبرنا أين يقيم مستر « بيتر ويلكس » ؟

وتبادل الرجال النظرات ، ثم أومأوا برءوسهم وكأنهم يقولون « ألم نكن نتوقع ذلك ؟ » . ثم قال أحدهم بلهجة رقيقة :

ــ انى آسف يا سيدى ... ان خير ما نستطيع أن نقوله هو ان نخبرك أين كان يقيم حتى مساء أمس ! ..

وتظاهر « الملك » بأنه يوشك أن ينهار، فقد ترنح وسقط فوق محدثه ، ووضع ذقنه فوق ظهره ، ثم انخرط فى البكاء وهو يقول :

ــ انتهى .. ، انتهى .. ، مات أخونا المسكين ... مات ولن نراه بعد اليوم ... أوه ... يا له من أمر محزن ...

ثم استدار على عقبيه وهو يتمتم بكلام غير مفهوم ويأتى باشارات من يديه لأخيه ، فألقى هذا بالحقيبة على الأرض وانخرط فى البكاء ... والحق اننى لم أر محتالين يجيدان تمثيل دورهما كما أجاده هذان المحتالان !

وتجمع الرجال حولهما وهم يبدون أشد العطف عليهما ، ويعربون عن أسفهما ، ثم حطوا حقيبتيهما ... وأخذنا نرتقى التل ، والمحتالان يستند كل منهما على الآخر ، بينما راح الرجال يحدثون « الملك » بكل ما حدث لأخيه فى لحظاته الأخيرة ... وكان « الملك » يترجم كل ما يقولونه للدوق بالاشارات ! وكان الحزن الذى أبداه هذان المحتالان عنيفا أليما مؤثرا ... والحق اننى شعرت بالخجل من الجنس البشرى كله فى تلك اللحظة !

الفصل الخامس والعشرون

هل هما الاخوان؟ ـ انشاد ((ترنيمة)) ـ نستطيع الاستغناء عن النقود ـ عدالة تامة ـ ترانيم جنائزية ـ استغلال سيىء .

انتشرت الأنبــاء فى المدينة كلها بعد دقيقتين ... وسرعان ما تقاطر الناس من كل فج وصوب ... وسرعان ما ألفينــا أنفسنا وسط جمهرة كبيرة ... وكان وقع أقدام الناس أشبه بصوت زحف عسكرى ! وامتلأت نوافذ المنازل وأبوابها بالنساء والفتيات .... وفى كل لحظة ، كان أحد الأشخاص يطل من فوق السياج ويتســاءل :

ـ هل هم هؤلاء ؟

فيجيبه آخر اثناء سيره مع جمــاعة من الرجال ؛ نعم ... انهم هم .

وعند ما وصلنا الى المنزل ، كان الشارع الذى أمامه قد اكتظ بالناس . وكانت الفتيات الثلاث واقفات على « عتبة » الباب ... كانت « مارى جان » ذات شعر أحمر ، ولكن ذلك لم يؤثر فى جمالها الطاغى . وكان وجهها شديد التألق بينما التمعت عيناها ببريق

يدل على سرورها لوصول عميها ، وبسط « الملك » ذراعيه ، فألقت « مارى جان » بنفسها فى أحضانه ، بينما وثبت الفتاة الأخرى نحو « الدوق » ... وهكذا عانق المحتالان الدعيان الفتاتين ... وكان الجميع ، رجالا ونساء ، يبكون من الفرح لاجتماع شمل الأسرة من جديد ! !

ثم انتحى « الملك » بالدوق جانبا ؛ ولقد رأيته وهو يفعل ذلك ... ثم تلفت حوله ليرى التابوت الممدد فوق مقعدين فى ركن الغرفة ، ووضع كل من الرجلين ذراعه فوق كتف الآخر ، بينما وضعا يديهما الأخريين فوق عينيهما ، ثم تقدما ببطء وحزن نحو التابوت ! وتراجع الجميع ليفسحوا لهما الطريق ، وكفوا عن الكلام والضوضاء ، بينما خلع جميع الرجال قبعاتهم وخفضوا رءوسهم ، حتى لقد كنت تستطيع أن تسمع صوت الدبوس اذا سقط على الأرض ! ... وعند ما وصلا الى موضع التابوت ، انحنيا وتطلعا داخله ثم انفجرا باكيين بصوت كان يمكن أن يسمعه سكان « أورليانز » ! ثم وضع كل منهما ذراعه حول عنق الآخر، وذقنه فوق كتف الآخر ، وبقيا على هذه الحال ثلاث دقائق ، وربما أربع . والحق اننى لم أر رجلين أبديا مظاهر الحزن العميق مثلما أبداها هذان المحتالان ... وكان الجميع يشاطرونهما حزنهما العميق . ثم تقدم أحدهما نحو أحد جانبى التابوت ، بينما تقدم الثانى نحو الجانب الآخر ، ثم ركعا وألصقا جبهتيهما فى التابوت ، وهما يتظاهران بالصلاة فى صمت . وما كاد الحاضرون يرون ذلك، حتى انفجروا باكين بصوت مرتفع ... وبكت الفتيات التعسات، فاتجهت نحوهن النساء وأخذن يقبلهن فى عطف ، ثم وضعن أيديهن فوق رءوسهن وتطلعن الى السماء والدموع تنحدر من عيونهن .. والحق اننى لم أر منظرا مثيرا للحنق كهذا المنظر !

وبعد قليل ، نهض « الملك » واقفا ، وتقدم الى الأمام قليلا ،

وراح يتكلم وهو يتظاهر بالحزن قائلا انه لن يكابد واخيه المسكين محنة كمحنة فقد أخيهما ، وخاصة انهما لم يتمكنا من رؤيته حيا بعد أن قطعا رحلة طولها أربعة آلاف ميل ! ثم قال انه لمما يهون من الفجيعة ، ذلك العطف العظيم من المعزين ... ولهذا فانه يشكرهم من قلبه ومن قلب أخيه ، لأنهما لا يستطيعان شكرهم بالفم لأن الكلمات تعجز عن التعبير عما يخالجهما من شعور ... واستمر « الملك » فى هذا الحديث الممل ثم أطلق العنان لدموعه !!.

وما كاد « الملك » يفرغ من حديثه حتى بدأ أحد الحاضرين بانشاد ترنيمة حزينة ، فاشترك الجميع معه فى ابتهال وضراعة ، فكدت أشعر بأننى فى كنيسة ! ... ولا عجب ، فان للترانيم وقعا جميلا فى النفس ... والحق أننى لم يسبق لى أن أحسست براحة كتلك التى شعرت بها فى هذه اللحظة ، فقد كان أداء الترنيمة ينبعث عن شعور واخلاص .

ثم بدأ فك « الملك » يرتعش ثانية ، وقال انه ليسره ويسر بنات أخيه أن يتناول عدد قليل من أصدقاء الأسرة الأخصاء الطعام معهم هذا المساء ، وان يساعدوا فى دفن رفاة الميت . ثم استطرد قائلا انه لو كان فى استطاعة أخيه المسكين المسجى هناك أن يتكلم لما تردد فى أن يذكر أسماء أصدقائه الذين كان يذكرهم دائما فى رسائله ، ومن بينهم : الكاهن « مستر هوبسون » ، والشماس « لوت هوفى » ، ومستر « بن راكر » ، و « ابنر شاكلفورد » ، و « ليفى بيل » المحامى ، والدكتور « روبنسون » ، وزوجاتهم ، والأرملة « بارنلى » ! !

وكان الكاهن « هوبسون » والدكتور « روبنسون » متغيبين فى الطرف الآخر من المدينة . أما المحامى « بيل » ، فقد كان متغيبا فى « لويسفيل » لبعض شأنه ، ولكن الباقين كانوا موجودين ، فتقدموا جميعا وصافحوا « الملك » وشكروه وتحدثوا اليه ثم

صافحوا « الدوق » ولم يقولوا له شيئا ، وان كانوا قد ابتسموا له وهم يحنون رءوسهم اعرابا عن العطف ، بينما راح « الدوق » يشير بيديه ويقول « جو – جو – جو جو – جو – » كما يفعل طفل لا يستطيع النطق !

ومضى « الملك » فى حديثه الصاخب ، واستطاع أن يذكر اسماء معظم سكان المدينة ، بل لقد استطاع أن يذكر بعض الأحداث الصغيرة التى وقعت فى المدينة ، وخاصة ما وقع منها لأسرة « جورج » أولبيتر ... وكان يدعى أن « بيتر » كتب له عن هذه الأحداث ، ولكن ادعاءه هذا كان أكذوبة ضخمة ؛ فهو لم يكن يعرف شيئا عن هذه الأحداث – التى سمع بها لأول مرة – من القروى الساذج الذى نقلناه بقاربنا الى الباخرة ! ! ...

وبادرت « مارى جان » باحضار الرسالة التى تركها أبوها ، فقرأها « الملك » بصوت مرتفع وهو يبكى ! ... وكانت الرسالة توصى باعطاء المنزل والآلاف الثلاثة من الدولارات للفتيات ؛ وباعطاء المدبغة (وكانت ناجحة) وبعض المنازل والأراضى (وقيمتها سبعة آلاف دولار) وثلاثة آلاف دولار لهارفى ووليم ... كذلك ذكر « الميت » فى رسالته أين أخفى الستة الآلاف دولار !.. وبعد فترة قصيرة ، قال « الملك » انه سيذهب لاحضار النقود ووضع الامور فى نصابها على رؤوس الأشهاد احتراما لوصية « بيتر » المسكين ! وطلب منى ان أحضر شمعة ، ثم أغلقنا باب « البدروم » – الذى توجد به النقود – خلفنا ، وعند ما عثر المحتالان على الحقيبة فتحاها ، وألقيا بما تحويه من نقود ذهبية على الأرض ! ولقد رأيت عينى « الملك » تلتمعان ببريق عجيب ... ثم قال للدوق :

– أوه ... انها ليست مزيفة ... أوه ... يا الهى ... ان هذه الصفقة تفوق كل ما عداها ... أليس كذلك ؟

ووافق « الدوق » على هذا الرأى ، وأخذ الاثنان يقلبان النقود

ويتركاتها تتساقط من بين أصابعهما على الأرض ، فتحدث رنينا خلابا ... ثم قال « الملك » .... :

ـ لا فائدة من الكلام ! لا شك فى أن القيام بدور اخوة رجل ميت وممثلى ورثته يلائمنى ويلائمك .. ان ما صادفناه من حظ سعيد مرجعه الى الاعتماد على القدر ؛ فتلك هى خير وسيلة للحياة .. لقد جربت جميع الوسائل الأخرى ، فلم أجد خيرا من الاعتماد على القدر !

يا لهما من محتالين شريرين !.. لقد كان حريا بهما أن يحترما جلال الموقف .. ولكنهما أبيا الا أن يعدا النقود قطعة قطعة ..

ولقد اكتشفا أن هناك عجزا قدره أربعمائة وخمسة عشر دولارا !

قال « الملك » : لعنة الله عليه .. لشد ما أعجب ماذا فعل بهذه الدولارات المفقودة !!

وبدا القلق على الرجلين ، وراحا ينقبان فى مختلف أرجاء الغرفة بحثا عن الدولارات المفقودة ، وأخيرا قال الدوق :

ـ حسنا ، لقد كان الرجل مريضا .. ومن الجائز أنه أخطأ فى ذكر رقم المبلغ !.. أكبر ظنى أن تلك هى الحقيقة ! ولعل خير ما نفعله هو أن ندع الأمور تجرى فى أعنتها ، فاننا نستطيع الاستغناء عن هذا المبلغ .

فقال « الدوق » :

ـ نعم .. نستطيع الاستغناء عنه .. اننى لا أبالى .. ولكن يجب علينا أن ننقل النقود الى الطابق العلوى ونعدها أمام الموجودين جميعا حتى تنتفى كل ريبة ! ولكن ما دام « الميت » قد قال انها ستة آلاف دولار ، فان ...

ثم قال الدوق : مهلا لحظة .. دعنا نكمل المبلغ ..

وأخذ يخرج المبلغ الناقص من جيبه ، فقال الملك :

ـ يا لها من فكرة رائعة أيها « الدوق » .. الحق انك تتمتع بذكاء لا يبارى ..

وأخذ «الملك» يعد النقود ثم حشاها داخل الحقيبة حتى اكتمل المبلغ ستة آلاف دولار ! !

وقال « الدوق » : عنـدى فكرة أخرى .. دعنا نصعد الى الطابق العلوى ونعد هذه النقود ونعطى الفتيات نصيبهن منها ..

ـ فكرة رائعة أيها « الدوق » .. دعنى احتضنك من أجلها.. انها أروع فكرة طافت فى رأس رجل .. الحق انك أذكى رجـل عرفته فى حياتى .. اوه ، تلك هى صفات الزعامة ولا شك ... ان هذا العمل خليق بأن يقضى على كل ريبة .

وعند ماصعدنا الى الطابق العلوى ، التف الجميع حول المنضدة ، وبدأ « الملك » يعد النقود ، حتى اكتمل عددها ستة آلاف دولار ! فراح الجميع يتطلعون اليها بعيون جائعة ، ويلعقون شـفاههم ، ثم لم ألبث أن رأيت « الملك » يتحفز لالقاء خطاب آخر قال فيه :

« أيها الأصدقاء .. لقد أسدى أخى المسكين المسجى هنـاك صنيعا عظيما يدل على السخاء بالنسبة لمن خلفهم يقاسون لوعة الأحزان .. أسدى صنيعا عظيما لهؤلاء الفتيات البريئات اللائى أحبهن وآواهن بعد أن حرمن من عطف الأب والأم .. نعم اننا ، نحن الذين عرفناه جيـدا ، نعرف انه كان يود أن يمتد سخاؤه معهن أكثر من ذلك لولا خوفه من ايلام أخويه العزيزين « وليم » وأنا .. أليس كذلك ؟ اننى لا أرتاب مطلقا فى ذلك .. حسـنا اذن .. هل هناك أخوان يستطيعان الاعتراض على وصية أخيهما فى مثل هذا الوقت ؟ ثم ، هل يمكن لعمين أن يسرقا .. نعم يسرقا مثل هؤلاء الفتيات البريئات اللائى أحبهن عمهن الميت مثل هذا الحب العميق ؟ اننى لأعرف أخى على حقيقته .. ولكن .. يجدر بى أن أسأله على كل حال ..

وتحول « الملك » الى « الدوق » ، وأخذ يشير اليه بيديه ، بينما كان « الدوق » يتأمله بغباء ، ولكنه سرعان ما أتى باشارة تدل على انه فهم مرمى أخيه ، ووثب نحو أخيه وهو يردد « جو — جو — جو » بكل قوة دلالة على فرط سروره ، واحتضنه بقوة زهاء ربع ساعة .. وعندئذ قال الملك : « كنت أعرف ذلك ، وأعتقد أن ما أبداه أخي كفيل باقناع أي شخص بحقيقة شعوره ... هيا يا « ماري جان » ويا « سوزان » ويا « جوانا » .. خذوا هذه النقود .. خذوها كلها فهي هدية من عمكما المسجى هناك .. وأغلب الظن انه يشعر بالسرور الآن رغم انه جثة هامدة » .

واحتضنت « ماري جان » الملك ، بينما احتضنت أختاها « الدوق » ، واستمر منظر العناق والقبل بشكل لم أر له مثيلا ، بينما تجمع الحاضرون حولهم ، والدموع تنحدر من عيونهم ، وراحوا يصافحون المحتالين بحرارة قائلين :

— يا لكما من رجلين طيبي القلب !

ثم بدأ الجميع يتحدثون عن الرجل الميت ، ويعددون مناقبه ، ومدى حزنهم عليه . وقبل أن يمضي وقت طويل ، رأيت عملاقا عريض الوجه يشق طريقه حتى وصل الى الصف الأول ، ووقف يصغي وينظر دون أن يتكلم أو يقول له أحد شيئا ، لأن الملك كان يتكلم ، ولأن الجميع كانوا يصغون اليه .. كان الملك يقول في حديث كان قد بدأ :

« ... انهم أصدقاء الميت المقربون .. ولهذا السبب دعوناهم الليلة لانشاد « الترانيم » .. فاننا نريد من الجميع أن يشتركوا في الجنازة .. الجميع ، لأن الميت كان يحترم الجميع ، ويحب الجميع ، ولهذا يجب أن تكون جنازته عامة » .

واستمر « الملك » في حديثه هذا وكأنما كان يسره أن يستمع

الى نفسه .. وكان لا يفتأ يردد بعض الترانيم الجنائزية ، حتى ضاق « الدوق » ذرعا بذلك ! واخرج « الدوق » ورقة كتب عليها « الطقوس الجنائزية ، أيها الأحمق الكبير » ، وطوى الورقة ، وراح يردد كلمته المألوفة « جو ــ جو » ، ثم ناول الورقة للملك من فوق رؤوس الموجودين . وبعد أن قرأ الملك الورقة وضعها فى جيبه وقال :

ــ مسكين يا وليامز ! ان قوة سمعه حادة رغم عاهته .. انه يطلب منى أن أدعو كل شخص للاشتراك فى الجنازة ، ويريد منى أن أرحب بالجميع .. مسكين ، انه لا يدرى إن هذا هو ما أقوله الآن !...

ومرة أخرى استأنف « الملك » حديثه الذى كانت تتخلله كلمة الترانيم الجنائزية بين الحين والحين ، مثلما كان يفعل من قبل .. وعند ما ردد كلمة « الترانيم » لثالث مرة قال :

ــ اننى أقول : « ترانيم » لا لأنها الكلمة الشائعة ، فهى ليست كذلك ، وانما الكلمة الشائعة هى كلمة « طقوس » .. ولكن « ترانيم » هى الكلمة الصحيحة ، فان كلمة « طقوس » لم تعد تستعمل فى انجلترا الآن .. لقد اختفت .. ونحن فى انجلترا نقول « ترانيم » لأنها أفضل ، فهى كلمة مستمدة من أصل نصفه يونانى ، ونصفه الآخر عبرى .. ومعناها « خارجى أو عام » .. ومعنى ذلك أن الترانيم الجنائزية تستدعى اقامة جنازة ، مكشوفة ... أو عامة !!

وفى تلك اللحظة ، ضحك الرجل ذو الوجه العريض فى وجه الملك .. فصعق الجميع وقال كل واحد منهم :

ــ ما هذا يا دكتور ؟.. ألا تعرفه يا « روبنسون » .. انه « هارفى ويلكس » .

وابتسم « الملك » بلهفة ، وأبعد المنديل عن عينيه وقال :

ـ هل أنت الدكتور الصديق الحميم لأخى المسكين ؟ اننى ...

فقال الدكتور : ابعد يدك عنى .. انك تتحدث كرجل انجلزى .. أليس كذلك ؟ انك تقلد الرجل الانجليزى أسوأ تقليد .. هل انت شقيق بيتر ويلكس ؟ انك دعى محتال !

وصمت الجميع ، وكأن على رؤوسهم الطير ، ثم تجمعوا حول الدكتور ، وحاولوا تهدئتــه ، كما حاولوا أن يشرحوا له الموقف ويخبروه كيف أن « هارفى » أثبت شخصيته بأكثر من اربعين دليلا ، وانه كان يعرف كل شخص باسمه .. وراحوا يتوسلون اليه ويمعنون فى التوسل ألا يسىء الى شعور « هارفى » والفتيات المسكينات ، ولكن بدون جدوى ، فقد راح الدكتور يرغى ويزبد قائلا : « ان أى شخص يدعى أنه انجليزى ولا يستطيع أن يقلد اللهجة الانجليزية خيرا مما يقلدها هذا الرجل ، لهو دعى كاذب» .

والتفت الفتيات المسكينات حول «الملك» وهن يبكين ، وفجأة التفت الدكتور اليهن وقال :

ـ لقد كنت صـديقا لأبيكن ... وانا صـديق لـكن ... أناشدكن كصديق ، وصديق مخلص يريد حمايتكن وابعاد الضرر والمتاعب عنكن ، أن تولين ظهوركن لهـذا الوغد .. وألا تتعاملن معه ، فانه محتال جاهل رغم ما يدعيه من المام سخيف باللغتين اليونانية والعبرية !.. انه أجهل دعى رأيته .. لقد جاء الى هنا وهو مزود بعدد من الأسماء والحقائق التى التقطها من مكان ما ، فجعلـكن تتوهمن انه عالم بالحقائق ، وسـاعدتموه على التغرير بكن .. اصـغى الى يا مارى جان ويلـكس ، انك تعلمين اننى صديقك ، وصديقك غير الأنانى أيضا ، فأرجوك أن تطردى هذا الوغد الشرير .. أتوسل اليك أن تفعلى ذلك .. فهل أنت فاعلته ؟

فشدت « مارى جان » قامتها !.. والحق انها كانت جميـلة جدا ، ثم قالت :

ـ اليك جوابى .

ثم رفعت حقيبة النقود ووضعتها بين يدى « الملك » قائلة :

ـ خذ هذه الآلاف الستة من الدولارات واستثمرها نيابة عنى وعن أختى فى أى مشروع تشاء ، ولا تعطنا ايصالا عنها ! !

ثم أحاطت عنق « الملك » بذراعيها من جانب ، بينما أحاطته « سوزان » وأختها الأخرى بذراعيهما من الجانب الآخر . وعندئذ صفق الحاضرون ، وأخذوا يدقون الأرض بأقدامهم ، محدثين عاصفة من الضوضاء ، بينما رفع « الملك » رأسه وهو يبتسم بكبرياء !

وأخيرا قال الدكتور : حسنا .. اننى أنفض يدى من هذا الموضوع ، ولكنى أحذركم جميعا من انه سيأتى وقت تشعرون فيه بالأسف كلما طافت برءوسكم ذكرى هذا اليوم ! !

ثم انصرف .

فقال « الملك » ساخرا : حسنا يا دكتور .. سنحاول ان نجعلهم يرسلون فى طلبك ! !

وضحك الجميع .. وقالوا انها « نكتة » مدهشة وفى الصميم !!

الفصل السادس والعشرون

الملك المزيف – كهنـــة الملك –
الصفيح – الاختبــاء فى الغرفة –
« هاك » يستولى على النقــود .

عند ما انصرف الجميع ، سأل « الملك » « مارى جان » عما اذا كانت بالمنزل غرف اضافية ، فقالت ان بالمنزل غرفة اضافية واحدة تصلح للعم « وليام » ، وانها ستتنازل عن غرفتها للعم « هارفى » – الملك ! – لأن هذه الغرفة أكبر قليلا من الغرفة الاضــافية . وقالت انها ستنام على فراش صغير فى غرفة اختيها ... ثم قالت ان هناك غرفة فوق ســطح المنزل بها فراش من القش ، فقــال « الملك » : اذن تخصص هذه الغرفة « لخادمى » .. وكان يعنينى أنا طبعا ! !

وتقدمتنا « مارى جان » ، فقادت المحتالين الى غرفتيهما .. وكانت الغرفتان بســيطتى الأثاث ولكنهما كانتا أنيقتــين ' ...
وكانت الغرفتين بســيطتى الأثاث ولــكنهما كانتا أنيقتين !...
اذا كان وجودها يضايق عمها « هارفى » ، ولكن « الملك » قال انه لا ضرورة لذلك ! ! .. كانت فى الحجرة بضعة معاطف على الجدار

خلف ستارة من القماش الأبيض ... وحقيبة عتيقة موضوعة فى أحد الأركان ... وعلبة قيثارة فى الركن الآخر ... بينما انتثرت أشياء أخرى فى شتى أنحاء الغرفة كما هى الحال دائما فى غرف الفتيات ! وأعرب « الملك » عن اعجابه بالغرفة ومحتوياتها ، وقال انه لايريد نقل أى شيء من مكانه فيها ! أما غرفة « الدوق » ، فقد كانت صغيرة ولطيفة ... كذلك كانت غرفتى فوق السطح لا بأس بها !

وفى تلك الليلة ، أقيمت وليمة عشاء كبرى حضرها جمع كثير من الرجال والنساء . ووقفت خلف مقعدى « الملك » و «الدوق» لأقوم على خدمتهما ، بينما تولى الزنوج خدمة الباقين . وكانت « مارى جان » تجلس عند رأس المائدة ، وبجوارها « سوزان » . وقالت « مارى » أثناء الطعام انها تأسف لأن « الخبز » ردىء . والطعام المحفوظ سيىء ، ولحم الدجاج نيء ! قالت ذلك وهى تعلم أن الحاضرين جميعا كانوا يعلمون ان كل شيء على المائدة ممتاز فى نوعه ، فقالوا لها « ان الطعام شهى جدا ... كيف تصنعين هذا الخبز اللذيذ ؟ ... ومن أين اشتريت هذا النوع اللذيذ من « المخلل » ؟ » . ومضوا يثنون عليها ويطرونها بعبارات المجاملة التى يوجهها المدعوون الى مضيفتهم فى أمثال هذه الولائم !

وعندما فرغ الجميع من تناول الطعام ، ذهبت الى المطبخ وتناولت عشائى مع الأخت الصغرى ذات الشفة نامية الشعر ، بينما كانت الأختان الأخريان تساعدان الزنوج على تنظيف المائدة . وراحت الفتاة ذات الشفة نامية الشعر تستدرجنى للحديث عن انجلترا ، فشعرت بأن أمرى يوشك أن ينكشف !

قالت : هل رأيت « الملك » ؟

ــ أى ملك ؟ هنرى الرابع ؟ نعم رأيته ... انه يتردد على كنيستنا .

وتذكرت بعد ذلك أن « هنرى الرابع » مات منذ أعوام كثيرة ، ولكنى لم أشأ أن أتراجع !

قالت الفتاة :

ـ ماذا ؟ هل يذهب الملك الى كنيستكم بانتظام ؟

ـ نعم . . . بانتظام . . . ان مقعده على يمين المذبح .

ـ كنت أظن انه يقيم فى لندن ؟

ـ هذا حق . . . والا فأين تظنينه يقيم ؟

ـ ولكنكم تقيمون فى « شيفلد » . . . أليس كذلك ؟

وأدركت اننى « تورطت » ، فأسرعت أتظاهر بأن قطعة من عظم الدجاج قد تسربت الى حلقى ، ورحت أسعل كسبا للوقت ، ريثما افكر فى مخرج من هذا المأزق .

ثم قلت : أعنى أنه يذهب الى كنيستنا بانتظـام كلما جاء الى « شيفلد » . وهذا أمر لا يحدث الا فى الصيف عند ما يجىء الى « شيفلد » للاستمتاع بالحمامات البحرية .

ـ ماهذا الذى تقوله ؟ . . ان « شيفلد » ليست على البحر .

ـ ومن قال انها على البحر ؟

ـ أنت .

ـ أنا لم أقل ذلك .

ـ بل قلته .

ـ لا . . لم أقله .

ـ نعم . . . قلته .

ـ لم أقل شيئا من هذا القبيل .

ـ اذن . . . ماذا قلت ؟

ـ قلت ، انه يستمتع بالحمامات البحرية . . . هذا ما قلته !

ـ وكيف يمكنه أن يستمتع بحمامات بحرية فى مكان ليس به بحـر ؟ . . .

ـ هل سبق لك أن رأيت « ماء الكونجرس » ؟
ـ نعم . . .
ـ هل يتحتم عليك الذهاب الى الكونجرس للحصول على مائه ؟
ـ لا . . . بالطبع .
ـ وبالمثل ليس الملك « وليام الرابع » مضطرا للذهاب الى البحر ليأخذ حمامات بحر ! !
ـ اذن كيف يحصل عليها ؟
ـ يحصل عليها بالطريقة التى يحصل الناس بها على « ماء الكونجرس » . . . فى براميل ! ! . . . ولما كان قصر الملك فى « شيفلد » لا يخلو من مواقد كثيرة ، على حين لا توجد مواقد بالقرب من البحر ، فان الملك يذهب الى « شيفلد » حيث يستمتع بحمامات الماء الدافىء ! . . .
ـ آه . . . فهمت . كان ينبغى أن تقول ذلك من بادىء الأمر حتى لا نضيع وقتا كثيرا .

وعند ما قالت الفتاة ذلك ، أدركت اننى نجوت ، وشعرت بالراحة والسرور .

ثم قالت الفتاة :

ـ هل تتردد على الكنيسة بانتظام ؟
ـ نعم ، بانتظام . .
ـ وأين تجلس ؟
ـ فى صالة الكنيسة .
ـ أية صالة بالكنيسة ؟
ـ صالتنا . . . صالة عمك « هارفى » .
ـ صالته . . . ولماذا تخصص له صالة ؟
ـ ليجلس فيها .

ــ ليجلس فيها ؟ ! . . لقد كنت أظن أنه يؤدى شعائره الدينية فى الهيكل !

وأسقط فى يدى ، فقد نسيت أنه واعظ ... وأدركت اننى وقعت فى « ورطة » جديدة ، فرحت أفكر سريعا ، ثم قلت :

ــ وهل تظنين انه لا يوجد غير واعظ واحد بالكنيسة هناك ؟

ــ ولماذا يحتاجون الى أكثر من واعظ واحد ؟

ــ ماذا تقولين ؟ ... واعظ واحد أمام الملك ؟ ! ... الحق اننى لم أر فتاة ساذجة مثلك ... ان عدد الوعاظ هناك سبعة عشر !

ــ سبعة عشر ؟ يا الهى ... اننى لا أصدق ما تقول ! . . ان الاستماع الى عظات سبعة عشر واعظا يستغرق أسبوعا !!

ــ هذا سخف ... انهم لا يلقون عظاتهم فى يوم واحـــد ... وانما يتكلم واحد منهم فقط !

ــ وماذا يفعل الباقون اذن ؟

ــ لا شىء ... انهم يحضرون الصلاة ، ويتسكعون هنا وهناك ... ليس لهم عمل خاص !

ــ اذن ، لماذا يحتفظون بهم ؟

ــ ان هذا هو النظام المتبع ! . . ألا تعرفين ذلك ؟

ــ اننى لا أريد أن أعرف .

ثم قالت : قل لى ... كيف يعاملون الخدم فى انجلترا ؟ ... هل يعاملونهم خيرا مما نعامل الزنوج ؟

ــ لا ... فالخادم هناك لا قيمة له ! ! ... انهم يعاملون الخدم كما يعاملون الكلاب !

ــ الا يمنحونهم عطلات أسبوعية كما نفعل نحن هنا فى مناسبات عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة واليوم الرابع من يوليو ؟

ــ أوه ... اصغى الى ... ان سؤالك هذا يدل على انك لم تزورى انجلترا أبدا ! ... اننى يا « جوانا » لم أحصل على عطلة

منذ عام ... لم أذهب يوما للسيرك أو المسرح أو استعراضات الزنوج أو أى مكان آخر من الأماكن !

ـ ولا الكنيسة ؟

ـ ولا الكنيسة ...

ـ الا تذهب للكنيسة ؟

وعندئذ أدركت أننى « تورطت » مرة أخرى ! ... فقد نسيت اننى خادم « الواعظ » الكهل ! ... ولكننى سرعان ما شرحت لها كيف يختلف خادم خصوصى مثلى عن الخادم العادى ... فالأول مضطر للذهاب الى الكنيسة سواء أراد ذلك أم لم يرد ، وهو مضطر الى الجلوس مع الأسرة التى يخدمها ، بحكم القانون !

ولكن يبدو اننى فشلت فى اقناعها ... فقد قالت :

ـ أيها الخادم الأمين ... ألم تسرف فى الكذب على ؟

ـ كلا ...

ـ ألم تنطق ولو بأكذوبة واحدة ؟

ـ كلا ، مطلقا ... لم ينطق لسانى بأية أكذوبة !

ـ اذن ضع يدك فوق هذا الكتاب ... واقسم على ذلك !

ـ وأدركت أن الكتاب لم يكن الا معجما لغويا ، فوضعت يدى فوقه وقلت اننى لم أكذب ، فارتاحت نفسها بعض الشىء ثم قالت :

ـ سأصدق بعض ما قلت ولو اننى لا أصدق البعض الآخر .

وفجأة انطلق صوت يقول :

ـ ما الذى لا تصدقينه يا « جوانا » ؟

كانت المتكلمة « مارى جان » ، فقد دخلت الغرفة فى تلك اللحظة ، وسوزان فى اثرها ... ثم قالت مارى : « أليس من الأدب فى شىء أن تحدثيه على هذا النحو وأنت تعلمين انه غريب بعيد عن أسرته ... هل يعجبك أن يعاملك أحد على هذا النحو ؟

فقالت « جوانا » :

ـ تلك هى طريقتك دائما يا « مارى » .. تهرعين دائما لمساعدة من يصيبه أذى ! ... ولكنى لم أصبه بأذى ! ... لقد كان يذكر لى معلومات خيالية فقلت له اننى لا أهضمها ... وهذا هو كل ما قلتــه له . وأكبر ظنى انه يستطيع احتمال قول هين يسـير كهذا ... أليس كذلك ؟

فقالت مارى :

ـ لا يعنينى أن يكون القول هينا أو صارما ... فكل ما يعنينى هو انه غريب فى منزلنا ، ولهذا ، لم يكن من اللائق ان تقولى له ما يسيئه ... او اننى كنت فى مكانه لشعرت بالخجل ... ولهذا يجدر بك الا تقولى لأى شخص ما يجعله يشعر بالخجل .

ـ لقد قال لى يا « مارى » ...

ـ ليس لما قاله أية أهمية ... ليس هذا بيت القصيد ... انما المهم هو أن تعامليه بعطف ، فلا تقولى له أشـياء تذكره بأنه ليس فى بلده بين أهله وعشيرته .

وعنــدئذ شعرت بتــأنيب الضمير لاننى سمحت للمحتــالين الشريرين بأن يجردا مثل هذه الفتاة الطيبة من مالها .

وأقبلت « ســوزان » وهى تكاد ترقص فى مشـيتها ، فقلت لنفسى : « هاهى فتاة أخرى سمحت للمحتالين بسرقة نقودها » .

وتدخلت « مارى‌جان » فى الحديث مرة أخرى بطريقتها الرقيقة الجذابة ... وعند ما فرغت من ذكر ما فى جعبتها ، لم تدع لذات الشفة المغطاة بالشعر ماتقوله ، فصاحت بها «مارى» و «سوزان» :

ـ اطلبى منه الصفح يا « جوانا » !

فطلبت « جوانا » منى الصفح بطريقة نبيلة ، وبصوت أطربنى حتى لقد تمنيت لو كان فى استطاعتى ان أقول لها ألف أكذوبة لكى أسمع صوتها الحنون مرة أخرى !!

وبدأت الفتيات الثلاث تحاولن اشعارى بأننى بين أهلى وعشيرتى، حتى لقد شعرت بأننى وضيع ونذل ، فقررت ان أفعل شيئا من أجلهن ... قررت أن أبذل كل ما وسعنى من جهد لمساعدتهن على استرداد المال المسروق ...

ثم انصرفت لآوى الى فراشى ... وعند ما اختليت بنفسى ، رحت أفكر فى الموقف مليا ، وأخذت أتساءل : هل أقابل ذلك الطبيب الذى ارتاب فى أمر هذين المحتالين ، وأفضح أمرهما ؟ .. ثم عدلت عن هذا الرأى خشية أن يعترف الطبيب بأننى أفضيت له بالسر ، فينتقم منى « الملك » و « الدوق » ! ثم تساءلت :

هل أخبر « مارى جان » بالحقيقة سرا ؟ ... ومرة أخرى عدلت عن ذلك خشية ان تفضح قسمات وجهها البريئة حقيقة ما حدث ، فيهرب المحتالان خلسة حاملين معهما المال ! كذلك خشيت ان تطلب الفتاة النجدة ، فأصبح متهما مثل هذين المحتالين! وأخيرا أدركت انه لا توجد سوى طريقة واحدة هى أن « أسرق » النقود من المحتالين بطريقة لا تثير الريبة ، ثم أرد هذه النقود للفتيات المسكينات ! ..

ولما كنت أعلم ان المحتالين لم ينتهيا بعد من تمثيل دورهما وانهما لن يبادرا بالفرار قبل ان يستنزفا كل ما يستطيعان استنزافه من الأسرة والمدينة كلها ، أيقنت أنه لا تزال أمامى فسحة من الوقت للتفكير والعمل فى هدوء ...

ورسمت الخطة ... قررت أن « أسرق النقود وأخفيها فى مكان أمين ... وبعد أن نرحل ، أبعث الى « مارى جان » برسالة اذكر لها فيها المكان الذى أخفيت النقود فيه . ولكنى قررت فى الوقت ذاته ، أن أسرق النقود فى تلك الليلة بالذات ، خشية أن يبادر المحتالان بالفرار بعد أن كاد الطبيب يفضحهما . وقررت أن أذهب الى غرفتيهما وأفتشهما ، وكانت ردهة الطابق العلوى مظلمة ،

ولكنى استطعت العثور على غرفة « الدوق » ، فأخذت أتحسس أرجاءها بيدى ، رجحت أن « الملك » لم يسمح لأحد غيره بحراسة تلك النقود ، فذهبت الى غرفته ، وبدأت أتحسس أرجاءها بيدى؛ وسرعان ما تبين لى أننى لن أستطيع ان أفعل شيئا بدون شمعة ، ولم يكن فى استطاعتى أن أفعل ذلك بالطبع ، فأيقنت أن سبيلى الوحيد هو أن أختبىء فى الغرفة وأسترق السمع لما يقوله الرجلان . وفى تلك اللحظة ، سمعت وقع أقدامهما تقترب من الغرفة ، فأسرعت أحاول الاختباء تحت « السرير » ، وتقدمت نحو شيء اعتقدت انه « السرير » فاذا بى بجوار « الستارة » التى تغطى معاطف مارى جان ، فاختبأت خلفها بين المعاطف وجمدت فى مكانى كالتمثال .

ودخل الرجلان الغرفة ، ثم أغلقا الباب خلفهما . وكان أول مافعله « الدوق » هو ان ركع فوق ركبتيه وتطلع تحت «السرير» ... وعندئذ أحسست بالسرير لأننى لم أعثر على السرير عند ما كنت أبحث عنه ، مع انه كان من الطبيعى أن أحاول الاختباء تحته ...

وجلس الرجلان ؛ ثم قال الملك :

ـ حسنا ، ماذا هناك ؟ أوجز ، لأنه من الأفضل أن نكون هناك ونرحل قبل طلوع النهار ، فهذا خير لنا من أن نبقى هنا ونتيح لهم فرصة الكشف عن حقيقتنا .

ـ الواقع أننى أشعر بقلق شديد بعد الزوبعة العاصفة التى أثارها الطبيب ... أريد أن أعرف خططك ، فان فكرة ، أظن انها معقولة ، تطوف بذهنى .

ـ فيم تفكر يا « دوق » ؟

ـ من الأفضل أن نبادر بالرحيل قبل الساعة الثالثة صباحا ، على أن نبحر مباشرة مكتفين بالغنيمة التى حصلنا عليها ، وخاصة

اننا حصلنا عليها بسهولة ... فهذه الغنيمة قد هبطت علينا من السماء كما يقول المثل ؛ مع أننا كنا نعتزم سرقتها فى بادىء الأمر ... اننى أفضل الرحيل بلا ابطاء .

وشعرت بقلبى يغوص بين جنبى . لقد أصبح الموقف مختلفا عما كان عليه قبل ساعة أو اثنتين ... ولهذا شعرت بخيبة أمل مريرة ...

ثم قال « الملك » :

ـ ماذا تقول؟ أنرحل قبل أن نبيع باقى الأملاك؟ انرحل كجماعة من الحمقى ونترك ممتلكات قيمتها ثمانية أو تسعة آلاف دولار ؟..

انها كلها أملاك قابلة للبيع !

وتذمر « الدوق » وقال ان حقيبة الذهب تكفى ، وانه لا يريد أكثر من ذلك ، كما انه لا يريد أن يسرق كل شىء من ثلاث فتيات يتيمات !!

فقال « الملك » : كيف تقول ذلك ؟ اننا لم نسرق منهن شيئا غير النقود . أما الأملاك ، فان الذين يشترونها لن يلبثوا أن يتبينوا اننا لا نملكها ... وسيعلمون ذلك بعد رحيلنا بفترة قصيرة ، ومن ثم لن يكون البيع قانونيا ، وعندئذ تصبح الأملاك ملكا للدولة . أما الفتيات اليتيمات فسيسترجعن منزلهن ، وفى هذا الكفاية بالنسبة لهن ! انهن جميلات وصغيرات ، وفى استطاعتهن أن يلتحقن بأى عمل يعشن منه . انهن لن يتعذبن ... فكر فى الأمر مليا ، فهناك آلاف وآلاف ليسوا فى موقف حسن كهذا ... هون عليك يا صديقى فليس هناك ما يدعو الى تذمرهن .

وهكذا استطاع « الملك » التأثير على « الدوق » حتى أقنعه بوجهة نظره . ولكن « الدوق » قال انه يعتقد ـ مع ذلك ـ ان البقاء فى المدينة أمر محفوف بالمخاطر وخاصة بعد أن ارتاب « الطبيب » فيهما ، ولكن « الملك » قال :

ـ لعنة الله على هذا الطبيب ... ماذا يهمنا منه ؟ ألم ننجح فى ضم جميع الحمقى فى هذه المدينة الى جانبنا ؟ أليس هؤلاء هم غالبية أهل المدينة ؟

وهكذا تهيأ الاثنان للنزول الى الطابق الأرضى ثانية ، فقال « الدوق » : لا أظن أننا وضعنا النقود فى مكان آمن .

وشعرت بالغبطة ... فقد خيل لى أنهما لن يلبثا أن يذكرا اسم المكان الذى وضعا النقود فيه .

قال « الملك » : ولماذا ؟

ـ لأن « مارى جان » سوف ترتدى ثياب الحداد فى هذه الغرفة ، وعندئذ سوف تأمر الزنجى الذى يرتب الغرفة بوضع النقود فى مكان آخر ... وأنت تعلم انه ما من زنجى يعثر على نقود الا و « يقترض » بعضها !

فقال « الملك » : يبدو لى ان عبقريتك بدأت تظهر من جديد !!

وراح يتحسس وراء الستار على مبعدة قدمين أو ثلاثة من مكانى ، فالتصقت بالجدار ، وحبست أنفاسى وتولتنى رعشة قوية ، وبدأت أتساءل عما سيفعله الرجلان بى اذا اكتشفا وجودى ! وأخذت أفكر فيما أقوله لهما اذا ضبطانى ، ولكن « الملك » عثر على الحقيبة قبل أن يفتح الله على بفكرة سديدة ، ولهذا لم يشك أحد فى وجودى ... ونقل الاثنان الحقيبة ووضعاها فى قلب كومة القش أسفل حشية السرير ، وقالا ان لا خطر عليها هناك لأن الزنجى يرتب السرير دون أن يرفع الحشية اللهم الا مرة أو اثنتين كل عام ، ومن ثم فلا خوف على الحقيبة .

أما أنا ، فكنت أخالفهما فى هذا الرأى ؛ اذ ما أن هبطا نصف الدرج حتى كنت قد استوليت على الحقيبة بمحتوياتها ، وأسرعت بالصعود الى غرفتى ، وأخفيت الحقيبة فيها ريثما تتاح لى فرصة لاخفائها فى مكان آخر ... فقد قررت نقلها الى مكان آخر خارج

المنزل ، حتى لا يعثر عليها هذان المحتالان اللذان سوف يقلبان المنزل كله رأسا على عقب حينما يتبين لهما ضياع الحقيبة ! ثم آويت الى الفراش ، ولكنى لم أستطع النوم ، لأننى كنت شديد اللهفة على الانتهاء مما أقدمت عليه . وبعد قليل سمعت « الملك » و « الدوق » يصعدان الدرج مرة أخرى ، فهبطت من فوق الفراش وانبطحت على الأرض ورحت أنصت اليهما ، ولكنهما لم يقولا شيئا !

وظللت منبطحا على الأرض فترة طويلة هدأ بعدها كل صوت فى المنزل ، فهبطت الدرج حاملا الحقيبة المحشوة بالنقود الذهبية !

الفصل السابع والعشرون

الجنازة ــ حفــار القبور ــ ارضاء الفضول ــ بيع سريع وأرباح ضئيلة !

زحفت الى بابى غرفتيهما واصخت السمع ، فاذا بشخيرهما يرتفع من الداخل . ومضيت أسير فوق أطراف أصابعى ، ونزلت الى الطابق الأرضى فبلغته بسلام ... وكان السكون تاما . واختلست النظر من شق فى باب غرفة المائدة ، فرأيت الرجال الذين يراقبون الجثة وقد استغرقوا فى نوم عميق وهم جلوس فوق المقاعد . وكان باب الغرفة المطل على غرفة الجلوس التى كانت الجثة بها مفتوحا . وكانت هناك شمعة مضاءة فى كل من الغرفتين فمررت بهما . وكان باب غرفة الجلوس مفتوحا ولم أجد بها أحدا غير جثة « بيتر » ، فمررت بها أيضا . ولكن باب المنزل الخارجى كان مغلقا ولم يكن المفتاح موجودا فى القفل ، وفى تلك اللحظة سمعت وقع أقدام تهبط الدرج خلفى ، فركضت فى غرفة الجلوس والقيت نظرة سريعة حولى ، ولم أجد مكانا يصلح لاخفاء الحقيبة فيه غير التابوت . وكان غطاء التابوت مرفوعا قليلا من المقدمة لاظهار وجه الميت ، وقد وضعت فوقه قطعة مبللة من القماش ؛ فأدخلت حقيبة النقود من تحت غطاء التابوت ودفعتها الى المكان

الذى عقدت عنده ذراعا الميت .. وعندئذ سرت فى جسمى رعشة قوية ... فغادرت الغرفة على الفور واختفيت خلف الباب .

كان القادم هو « مارى جان » ! وتقدمت الفتاة من التابوت بهدوء شديد ، وركعت أمامه ، ثم تطلعت اليه ، ورفعت منديلها الى عينيها ، وبدأت تبكى. وانتهزت هذه الفرصة فتسللت من مخبأى. وبينما كنت أعبر غرفة المائدة ، تراءى لى ان استوثق من ان احدا من مراقبى الجثة لم يرنى ، فتطلعت من خلال الشق ، فاذا بكل شىء على ما يرام ، فقد كان الجميع نياما .

وتسللت الى غرفتى ، وآويت الى فراشى وأنا أشد ما أكون ضيقا بسبب التحول العجيب الذى طرأ على الموقف بعد المتاعب التى كابدتها والمخاطر التى تعرضت لها ... وقلت لنفسى انه اذا بقيت الحقيبة حيث هى ، فلا بأس ، ففى استطاعتى أن أبعث برسالة الى « مارى جان » بعد أن تقطع مائة أو مائتى ميل فى النهر ، فتبادر باخراج الحقيبة وتحصل على النقود ! ثم قلت لنفسى ان هذا لن يحدث ؛ فسوف ينكشف سر الحقيبة أثناء تثبيت غطاء الصندوق توطئة لدق المسامير فيه . وعندئذ يسترد « الملك » الحقيبة ، ويتخذ من ضروب الحيطة ، هذه المرة ، ما يحول دون ضياعها منه ثانية ... وكنت أتمنى أن أنسلل الى الطابق الأسفل ثانية لاخراج الحقيبة من التابوت ، ولكنى لم أحاول ذلك ... وبدأت الدقائق تمر سراعا والفجر يقترب ... وخشيت أن يستيقظ الحراس ويضبطونى حاملا ستة آلاف دولار لم يطلب أحد منى حراستها ، فقلت لنفسى : كلا ... لست أريد أن أتورط فى أمر كهذا !!

وعند ما هبطت الى الطابق الأسفل فى صباح اليوم التالى كانت غرفة الجلوس مغلقة ، وكان المراقبون قد غادروا الحجرة ... ولم يكن هناك أحد سوى أفراد الأسرة والأرملة « بارتلى » و « الملك »

و « الدوق » . وتأملت وجهى الملك والدوق لأرى ان كانا قد اكتشفا ضياع الحقيبة ، ولكنى لم أستطع أن أتبين جلية الأمر .

وحوالى الظهر ، أقبل حفار القبور ومساعده ، فوضعا التابوت فوق مقعدين فى منتصف الغرفه ، ثم نظما المقاعد فى صفوف واستعارا بعض المقاعد من الجيران فامتلأت غرفة الجلوس والردهة بصفوف من المقاعد . ورأيت غطاء التابوت فى الوضع ذاته الذى كان عليه فى الليلة السابقة ، ولكنى لم أحاول النظر داخل التابوت !

وبدأ الناس يفدون ، وجلست الفتيات واترابهن فى الصف الأول عند رأس التابوت . وكانوا جميعا يتطلعون الى وجه الميت ، ويذرف بعضهم دمعة ، ثم يصمتون ... كان المكان ساكنا يخيم عليه حزن عميق ... وكانت الفتيات وأترابهن تضعن مناديلهن فوق عيونهن ويخفضن رءوسهن ثم يبكين ، ولم يكن يسمع سوى صوت احتكاك الأقدام بالأرض وافراغ الأنوف ! ... فالناس يفرغون أنوفهم فى الجنازات أكثر مما يفرغونها فى أى مكان آخر باستثناء الكنيسة ! !

وعند ما امتلأ المكان ، دار حفار القبور حول التابوت وهو يرتدى قفازه الأسود ويهيىء الحاضرين وكل شيء للحظات الأخيرة ... كان يؤدى عمله بسرعة وخفة عجيبتين ، فيفسح الطريق لمن حضروا متأخرين ويومىء اليهم برأسه أو يشير اليهم بيديه ليجلسوا . والحق اننى لم ار رجلا يؤدى عمله بمثل هذه السهولة والبساطة ! وكانت الأسرة قد استعارت أرغنا عتيقا . وعندما أعد كل شيء ، جلست شابة أمام الأرغن وراحت تعزف عليه ، فارتفع صوت أشبه بالصرير ؛ واشترك الحاضرون جميعا فى الانشاد ، فارتفع الضجيج والصخب .. وعندئذ خيل لى ان « بيتر » الميت هو الشخص الوحيد الذى كان ينعم بالهدوء !

كانت مراسيم الجنازة طويلة ومملة . وعندما انتهت ، نهض

« الملك » وألقى كلمة من كلماته السخيفة المعتادة . وأخيرا انتهى كل شيء ، وبدأ حفار القبور يدور حول التابوت وهو يحمل « المفك » . وعندئذ أحسست بالعرق يبللني ورحت أراقب الرجل بلهفة ، فرأيته يثبت الغطاء في مكانه بالمسامير بسهولة وبسرعة وبدون أن يحرك الجثة من مكانها !..

وهكذا انتهى الأمر ، ولكني لم أكن متأكدا من أن النقود مازالت في التابوت وقلت لنفسي : أكبر الظن أن شخصا ما قد سرق الحقيبة خفية . وتساءلت : كيف يمكنني أن أعرف ذلك ؟ هل أكتب لماري جان أم لا ؟ ولنفرض انها نبشت التابوت بعد دفن أبيها ولم تعثر على شيء ، فماذا يكون رأيها في ؟ أليس من المحتمل أن يطاردوني وأن يزجوا بي في السجن ؟ ومن ثم قررت أن ألوذ بالصمت ، وألا أكتب الى الفتاة .. فقد كان الموقف غامضا ... وخيل لي انني أخطأت حينما وضعت النقود في التابوت .. وتمنيت لو أنني تركت الأمور تجري في أعنتها !

وواروه التراب ، ثم عدنا الى المنزل ، واستأنفت مراقبة الوجوه .. فقد كنت خائفا وقلقا ، ولم يكن في وسعي أن أكف عن مراقبة الناس وخاصة « الملك » و « الدوق » .. ولكن المراقبة لم تسفر عن شيء لأن الوجوه لم تحدثني بشيء .

وزار « الملك » معظم سكان المدينة في المساء ، وتلطف في الحديث مع الجميع ، وتودد اليهم ، ثم قال ان المترددين على كنيسته في انجلترا يتلهفون الآن على عودته ؛ ومن ثم فانه مضطر الى بيع الأرض التي خلفها أخوه والاسراع بالعودة الى انجلترا . وأعرب « الملك » عن عميق أسفه لاضطراره الى هذه العجلة ، وشاطره الجميع أسفه ، قائلين انهم كانوا يتمنون لو أنه استطاع اطالة اقامته بينهم ، وان كانوا يعلمون ان ذلك أمر عسير . وقال « الملك » انه و « وليام » سيأخذان الفتيات الثلاث معهما الى

انجلترا ، فسر الجميع أيما سرور لأن مثل هذا القــول كشف عن رغبة قوية فى رعاية الفتيات . وشعرت الفتيات أنفسهن بسرور طاغ ، حتى لقد بدت عليهن علامات السعادة ، ونسين ما مر بهن من عسر ومتاعب فى حياتهن . ومن ثم طالبن « الملك » بالاسراع فى البيع والرحيل .. والحق ان ما رأيته من فرحة هؤلاء الفتيات وسعادتهن جعلنى أشــعر بكثير من الحزن والأسف اوقوعهن فى حبائل هذا المحتال الخطير ، ولكنى لم أستطع أن أفعل شيئا !!.

ولم يضع « الملك » وقتا ، فقرر عقد مزاد لبيع المنزل والزنوج وكل شيء على أن يتم البيع بعد يومين وان كان فى استطاعة أى شخص أن يشترى ما يشاء مما سيباع فى المزاد قبل عقده .

وهكذا ، ما أن تم تشييع الجنازة ظهر اليوم التالى حتى بدا الفرح على الفتيات ، وفى هذا اليوم جاء تاجران من تجار الرقيق ، فباع « الملك » لهما الزنوج بسعر معتدل ! وهكذا نقل الابنــان الزنجيــان الى بلد بينما نقلت الأم الى بلد آخر .. وكان منظر وداع الفتيات لخدمهن الزنوج أليما حقا ، حتى لقد خيل الى أن قلوبهن تكاد تنفطر من الحزن .. فقد قالت الفتيات انهن لم يكن يتصورن أبدا أن يأتى يوم تتفرق فيه الأسرة وتباع فيه زنوجها بعيدا عن المدينة . ومنذ ذلك اليوم ، وأنا لا أســتطيع أن أنسى منظر الفتيــات المســكينات وقد تشبث بهن الزنوج فى يأس . وما كنت لأستطيع أن أتحمل وقع هذا المنظر على نفسى ، وما كنت لأتردد فى كشف النقاب عن المحتالين ، لولا علمى بأن الاتفاق كان قد تم على أن يدفع تجار الرقيــق ثمن الزنوج مؤجلا ، وانه من المحقق أن الزنوج ســوف يعودون الى الأسرة بعد أســبوع أو اثنين ! ولقد أحدث بيع الزنوج ضجة فى المدينة ، وأقبل الكثيرون ليقولوا ان من العــار فصل الزنجيين عن أمهما بهذه الطريقة . وتظاهر المحتالان بأنهما متألمــان .. وراح « الملك » ينفذ خطته

رغم اعتراض « الدوق » الذى كان بادى الاضطراب .

وفى صباح اليوم التالى ـ المخصص لعقد المزاد ـ صعد « الملك » و « الدوق » الى غرفتى وأيقظانى . وما كادت عيناى تقعان على وجهيهما حتى أدركت ان فى الأمر شيئا .

قال « الملك » : هل كنت فى غرفتى ليلة أول امس ؟

فقلت : لا يا صاحب الجلالة .

ـ وهل كنت بها أمس أو الليلة الماضية ؟

ـ لا يا صاحب الجلالة .

ـ اقسم .. واحذر الكذب ؟

ـ يا صاحب الجلالة ، اقسم على اننى أقول الصدق .. اننى لم اقترب من غرفتيكما منذ أن رافقتكما الآنسة « مارى جان » اليهما .

فقال « الدوق » : هل رأيت أى شخص آخر يدخلهما ؟

ـ لا يا صاحب السعادة . لست أذكر اننى رأيت أحدا يدخلهما .

ـ فكر جيدا .

فتظاهرت بالتفكير ، وهنا لاحت لى فكرة ، فقلت :

ـ رأيت الزنوج يدخلون الغرفتين مرات عديدة .

وأجفل الرجلان ، وبدا عليهما أنهما كانا يتوقعان سماع هذا الكلام منى ، فقال الدوق : ماذا تقول ؟ كلهم ؟

ـ لا بالطبع .. انهم لم يدخلوهما معا .. ولكننى أذكر اننى رأيتهم يخرجون معا من الغرفة ذات مرة .

ـ آه ، ومتى كان ذلك ؟

ـ يوم تشييع الجنازة .. وكان ذلك فى الصباح ، ولكن ليس فى ساعة مبكرة .. فقد استيقظت متأخرا فى ذلك اليوم .. وبينما كنت أهبط الدرج رأيتهم ..

ـ استمر . . استمر . . ماذا فعلوا ؟ وكيف كانوا يسلكون ؟

ـ لم يفعلوا شيئا ولم يكن سلوكهم غير عادى ، وانما كانوا يمشون فوق أطراف اصابعهم مبتمدين ، فأدركت انهم جاءوا ليرتبوا غرفة جلالتكم وينظفوها معتقدين انك استيقظت من نومك ، ولكن تبين لهم انك ما زلت نائما ، فحرصوا على عدم ايقاظكم تجنبا للمتاعب .

فصاح « الملك » غاضبا : يا لله ، لقد ضاع كل شيء .

وأخذا يتبادلان النظرات فى بلاهة . ثم راحا يحكان رأسيهما لحظة ، وسرعان ما انفجر « الدوق » ضاحكا وقال :

ـ حقا ، لقد أجاد الزنوج أداء دورهم حينما تظاهروا بالحزن لاضطرارهم الى ترك المدينة ، حتى لقد صدقت انهم كانوا جد متالمين . . حقا انه لمن الغباء أن يظن الانسان أن الزنجى محروم من الذكاء . . ان الطريقة التى اتبعها هؤلاء الزنوج فى تحقيق مآربهم تنطلى على أى انسان ، وفى رأيى أن هؤلاء الزنوج يستطيعون أن يجمعوا ثروة كبيرة . . ولو كنت أملك رأس المال ومسرحا لما تمنيت أكثر من أن تكون فرقتى من هؤلاء الزنوج . . ومع ذلك فقد بعناهم بأبخس الأثمان . . ولكن ما زال فى الوقت متسعا . . أين الكمبيالة ؟

ـ فى المصرف لتحصيلها .

ـ شكرا لله .

فقلت فى شيء من الجبن : هل حدث شيء ؟

فالتفت « الملك » الى قائلا :

ـ ليس هذا من شأنك ، فامسك لسانك . وحذار أن تنسى هذه النصيحة طيلة اقامتك فى هذه المدينة . . هل فهمت ؟

ثم قال للدوق : علينا أن نتقبل ما حدث ونلوذ بالصمت .

وعند ما هما بهبوط الدرج ، قهقـه « الدوق » ضـاحكا مرة أخرى وقال :

ـ بيع سريع وأرباح ضئيلة ، يا لها من صفقة مدهشة ، نعم !

فزمجر « الملك » قائلا : لقد كنت أنشد ما فيه خيرنا حينمـا قررت بيع الزنوج بسرعة ... فاذا لم نربح شيئا فليس الذنب ذنبي ... انه ذنبنا نحن الاثنين ! !.

ـ كان من الممكن أن يبقى الزنوج هنا لو انك استمعت الى نصيحتي .

وتراجع « الملك » الى الوراء ثم استدار الى وصب جام غضبه على ، فأخذ يقرعني لأنني لم أخبره انني رأيت الزنوج يخرجون من غرفته على أطراف أصابعهم ! ... ثم قال انه كان بوسع اى أحمق أن يدرك قطعا ان فى الأمر شيئا غير عادى ! ثم انحى على نفسه باللائمة لأنه لم يسهر فى تلك الليلة . ثم انصرف الرجلان وهما يرغيان ويزبدان . أما أنا فكنت سعيدا أشد ما تكون السعادة ، فقد ألقيت عبء المسئولية كله على الزنوج وأنا أعلم ان ذلك لن يسيء اليهم فى الوقت الحاضر على الأقل !

الفصل الثامن والعشرون

الرحلة الى انجلترا ــ ((الوغد)) ــ المسرحية الملكية ــ ماري‌جان تقرر الرحيل ــ ((هاك)) يودع ماري جان ــ النهاب الفـــدة النكفيـة

وبعد دقائق قليلة ، هبطت الى‌الطابق الأرضى ؛ وما كدت أصل الى غرفة الفتيات حتى وجدت بابها مفتوحا ، ورأيت «ماري‌جان» جالسة أمام‌حقيبتها القديمة المفتوحة وهى‌تضع‌ثيابها فيها استعدادا للرحيل الى انجلترا ... ثم توقفت عن العمل ووضعت الثوب الذى كانت قد طوته فى حجرها ، وأسندت ذقنها الى يديها ؛ ثم انخرطت فى البكاء . وكان هذا المنظر مؤلما حقـا ، فكادت نفسى تنفطر ... وبعد ان استجمعت رباطة جأشى قلت لها :

ــ أعلم انك لا تطيقين ان ترى الناس غارقين فى المتاعب ... وأنا ايضا لا أطيق ذلك ... فحدثينى عما يؤلمك يا سيدتى ...

فقالت انها حزينة من أجل الزنوج ... ثم قالت أن الرحلة الجميلة الى انجلترا قد فقدت روعتها بالنسبة اليها ، وانها لاتعلم كيف يمكن أن تشعر بالسعادة ثانية هناك وهى تعلم أن الزنجيين الصغيرين لن يريا أمهما ثانية ... وراحت تبكى ، ثم رفعت يديها فى الهواء وقالت :

ــ أواه ، أواه لن يرى أحد منهم الآخر ثانية .

فقلت : بل سيجتمع شملهما ثانية خلال أسبوعين ، فأنا أعلم ذلك . . .

ــ يا الهى ! لقد زل لسانى! وفجأة أحاطت الفتاة عنقى بذراعيها وطلبت منى أن أكرر ما قلت ثانية وثالثة . . .

وأيقنت انى تسرعت فى الكلام ، واننى تماديت فيه ، وبذلك أصبحت فى موقف شديد الحرج، فطلبت اليها أن تدعنى أفكر قليلا . وظلت جالسة حيث كانت وقد بدا عليها الضيق والقلق . ومع ذلك بدت سعيدة بعض الشيء . وكانت سعادتها تلك أشبه بسعادة شخص خلع ضرسا كان يسبب له ألما شديدا !! . ورحت أفكر فى الأمر ، قائلا لنفسى ان الانسان الذى يعترف بالحقيقة حينما يجد نفسه فى مركز حرج يقدم على مجازفة كبيرة لا مهرب منها ؛ وما دمت ازاء حالة يبدو ألا مخرج منها الا بقول الحقيقة ، فمن الخير لى أن أقدم على المجازفة وقول الحقيقة رغم ما فى ذلك من خطورة . . وهكذا قررت أن أصارحها بكل شيء .

قلت لها : أخبرينى يا آنسة « مارى جان » ؛ هل هناك مكان خارج هذه المدينة ولكنه قريب منا ، تستطيعين أن تذهبى اليه وتقيمى فيه ثلاثة أيام أو أربعة ؟

ــ نعم . . . هناك منزل أسرة « لاثروب » . . . لكن لماذا ؟

ــ لا تسألى عن السبب الآن . . . هل اذا قلت لك اننى أعرف أن الزنوج سيعودون الى هنا ثانية ، فى خلال أسبوعين ، وأثبت ذلك لك ، تذهبين الى منزل أسرة لاثروب وتمكثين به أربعة أيام ؟

ــ أربعة أيام ؟ اننى مستعدة للبقاء فيه عاما كاملا اذا صح ما تقوله . . . .

ــ لست أريد منك الا « كلمة شرف » ، فاننى أثق بها كالقسم على الانجيل !

فابتسمت ، وتورد خداها فى حمرة زادتها جمالا . .

قلت لها : أرجو أن تسمحى لى باغلاق الباب بالمزلاج . . .

ثم عدت الى الفتاة ، وجلست بجانبها ، وقلت لها :

ــ اجلسى هادئة ، واحتملى الصدمة بشجاعة ، فاننى مضطر للافضاء اليك بالحقيقة . . . تمالكى رباطة جأشك يا آنسه مارى لأن الحقيقة مرة وقاسية ، وان لم يكن هناك مفر من قبولها . . . ان هذين العمين ليسا عميك . . . انهما دعيان محتالان محترفان . . ها قد سمعت أسوأ ما فى الموقف ، ولا شك أنه فى استطاعتك أن تتحملى ما سيأتى بعد ذلك فى شجاعة .

وعندئذ تململت الفتاة فى جلستها . . . ولكنى أدركت اننى تجاوزت مرحلة الخطر فمضيت فى حديثى . ولاحظت أن بريقا خاطفا كان ينبعث من عينى الفتاة كلما مضيت فى الحديث ، فحدثتها بكل شىء ابتداء من اللحظة التى التقينا فيها بذلك القروى الأحمق الذى كان يريد السفر بالباخرة ، حتى اللحظة التى ألقت الفتاة بنفسها بين ذراعى « الملك » عند باب المنزل الخارجى فقبلها ست عشرة أو سبع عشرة مرة . . . وهنا وثبت الفتاة واقفة وقد تطاير شرر الغضب من عينيها وتوهج وجهها توهج وجه الشمس عند الغروب وقالت :

ــ يا للوغد ، تعال . . . لا تضيع دقيقة واحدة ، بل ولا ثانية واحدة . . . فسنفضح أمرهما ونلقى بهما فى النهر .

فقلت : بالطبع ، ولكن هل تعنين انك ستفعلين ذلك قبل الذهاب الى منزل أسرة لوثروب ، أم . . .

فقالت : اصفح عنى . . . أرجوك .

ووضعت يدها الناعمة كالحرير على يدى ثم أردفت :

ــ لم أكن أعتقد اننى سأثور الى هذا الحد . . . والآن استمر

فى حديثك . . . أعدك أننى لن أفقد سيطرتى على نفسى ثانية . . . قل لى ما ينبغى لى ان أفعل ، وسأفعله على الفور .

ــ ان هذين الوغدين الدعيين يكونان عصابة خطرة ، وانى مضطر الى البقاء معهما فترة أطول ، سواء أردت ذلك أم لم أرده ــ ولكنى أفضل ألا أذكر السبب . . . فاذا أثرت المدينة عليهما وأمكن انقاذى من أنيابهما ، فهذا هو الخير كل الخير . . . ولكن ذلك خليق بأن يخلق متاعب لا حصر لها لشخص آخر لا تعرفينه . . . وهو شخص حبيب الى نفسى . . . ومن ثم ، لن نفضح أمر هذين الدعيين الآن ! . . .

وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى خطرت لى فكرة جعلتنى أعتقد ان فى استطاعتى و « جيم » أن نتخلص من هذين الدعيين ، وهى أن أعمل على زجهما فى السجن ثم نرحل أنا وجيم .

ثم قلت للفتاة :

ــ سأقول لك ما ينبغى لنا أن نفعله يا آنسه مارى جان ، حتى لا تضطرى الى البقاء بمنزل أسرة لوثروب طويلا . . . أين يوجد منزل مستر لوثروب هذا ؟

ــ على مبعدة أربعة أميال . . . جنوبا .

ــ اذن اذهبى الى هناك وامكثى فى المنزل حتى الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف مساء ، ثم اطلبى من واحد منهم أن يعود بك الى هنا ، فاذا عدت قبل الساعة الحادية عشرة ، ضعى شمعة موقدة فى هذه النافذة . فاذا لم أحضر ، انتظرى حتى الساعة الحادية عشرة ، فاذا لم أحضر أيضا ، فمعنى ذلك اننى رحلت وأصبحت بمأمن ؛ وعندئذ يمكنك المبادرة بكشف أمر هذين الدعيين المحتالين والزج بهما فى السجن .

فقالت : سأفعل ذلك .

فقلت لها :

ـ أما اذا لم أستطع الرحيل ، واضطررت الى البقاء معهما ، فعليك أن تقولى اننى أفضيت اليك بالحقيقة كلها من قبل ، على أن تشدى أزرى ما وسعك ذلك .

ـ بالطبع ، سأشد أزرك ، انهما لن يقدرا على لمس شعرة من رأسـك .

نطقت الفتاة بهذه العبارة بحماس شديد وقد انتفخت أوداجها وانبعث من عينيها بريق خاطف .

فقلت : اذا نجحت فى الفرار ، فمعنى ذلك أننى لن أكون هنـا لأثبت ان هذين الوغدين ليسا عميك ... بل اننى لن أستطيع ان اثبت ذلك اذا بقيت هنا ... وكل ما أستطيعه هو أن أقسم انهما دعيان محتالان ولو ان ذلك قد لا يحسم الأمر ... وعلى أية حال هناك من يستطيعون اثبات ذلك خيرا منى ـ وهم أشخاص آخرون لا تتطرق الريبة الى أقوالهم . وسأقول لك كيف تعثرين عليهم : اعطنى ورقة وقلما .. وكتبت هذه الكلمات « المسرحية الملكية ـ بريكسفيل » ثم أعطيتها الورقة قائلا لها : خذى هذه الورقة وحذار من فقدها ... وعند ما تبدى المحكمة رغبتهـا فى معرفة بعض المعلومات عن هذين الرجلين ، دعيها ترسل الى « بريكسفيل » من يقول انكم قبضـتم على الرجلين اللذين قاما بتمثيل المسرحيـة الملكية ، وأن المحكمة تطلب حضور بعض الشهود ، وعندئذ ستهرع المدينة كلها الى هنا فى لمح البصر ...

وأيقنت أننا انتهينا من جميع التفصيلات ... فقلت :

ـ دعى المزاد يعقد ... ودعى المحتالين يفعلان ما يريدان فان أحدا لن يدفع ثمن ما يشتريه فى المزاد قبل اليوم التالى لانتهـاء المزاد ، لأن الناس لا يستطيعون تدبير المال فى وقت قصير ، كما أن الدعيين لن يرحلا من هنا قبل الحصول على المال ... ثم ان الخطة التى رسمناها ستقضى على احتمال حصولهما على المال ، كما

حدث فيما يتعلق بصفقة بيع الزنوج ، فان هذه الصفقة لم تكن صفقة رابحة على الاطلاق ... وسيعود الزنوج الى هنا قبل انقضاء وقت طويل ... ان المحتالين لم يحصلا بعد على ثمن الزنوج ، ولهذا فانهما فى أحرج مأزق يا آنسه مارى .

فقالت ... سأتناول طعام الافطار الآن ، ثم أذهب الى منزل مستر لوثروب .

ــ ليس هذا اجراء سليما يا آنسة « مارى جان » ... يجب ان تبادرى بالرحيل قبل الافطار .

ــ لماذا ؟

ــ ماذا تظنين السبب الذى أطالبك بالرحيل من أجله ؟

ــ الواقع اننى لم أفكر فى ذلك . ومع ذلك فأنا لا أعلم السبب ... فما هو ؟

ــ لأنك لا تجيدين اخفاء مشاعرك ... ان وجهك أشبه بكتاب مفتوح يستطيع أى انسان أن يقرأه بسهولة ويستشف منه ما يعتمل فى أعماقك . هل تعتقدين انك تستطيعين مواجهة عميك عند ما يجيئان لتقبيلك قبلة الصباح دون أن ....

ــ كفى ... كفى ... سأذهب قبل الافطار ... بل انه ليسرنى أن أرحل الآن ... ولكن هل أترك أختى معهما ؟

ــ نعم ، لا تقلقى فاننى أخشى أن يرتاب المحتالان فى الأمر اذا رحلتن جميعا . اننى لا أريد أن تقابليهما ، ولا أن تقابلهما أختاك ولا أى شخص فى المدينة ... واذا سألك جار كيف حال عميك هذا الصباح فيجب أن يظل وجهك جامدا لا ينبىء بشىء ... بادرى بالرحيل يا آنسه « مارى جان » . وسأتدبر الأمر بالنسبة للجميع . سأطلب من الآنسة « سوزان » أن تبلغ تحيتك لعميك وأن تقول لهما انك اضطررت للتغيب ساعات قليلة لتحصلى على

بعض الراحة ، أو لرؤية احدى صديقاتك ، وانك ستعودين الليلة أو فى صباح الغد الباكر .

ــ ان القول بأننى ذهبت لزيارة احدى الصديقات لاغبار عليه ، ولكنى لا أوافق على أن تبلغ أختى تحيتى لهذين الوغدين !

ــ اذن ... لن يحدث ذلك .

ثم قلت لها : هناك شيء واحد ... حقيبة النقود .

ــ لقد استوليا عليها ، وانى لأشعر بالغباء كلما تذكرت ذلك .

ــ لا ... ليست الحقيبة فى حوزتهما .

ــ وكيف ذلك ؟ انها معهما .

ــ الحقيقة يا آنسه « مارى » هى ان الحقيبة كانت فى حوزتى لأنى سرقتها منهما ... سرقتها لأعطيها لك ... وأنا أعلم أين خبأتها ... ولكنى أخشى أن تكون قد اختفت مرة أخرى من المكان الذى وضعتها فيه ... اننى جد آسف يا آنسه مارى‌جان ... آسف كل الأسف ... ولكنى أؤكد لك اننى بذلت قصارى جهدى ... لقد كدت أضبط بها ، فاضطررت الى وضعها فى أول مكان صادفنى ، والمبادرة بالهرب ... ولم يكن المكان الذى خبأتها فيه ملائما .

ــ أوه ... كف عن لوم نفسك ، فاننى لن أسمح لك بذلك .. انك لم تكن لتستطيع تجنب ما فعلت ، ولم يكن الخطأ خطأك ... أين أخفيتها ؟

لم أكن أرغب فى تذكيرها بمتاعبها مرة أخرى ... لم أكن أرغب فى القول بأننى وضعت الحقيبة فوق بطن « بيتر » الميت ، حتى لا تتذكر مصابها الأليم ... فقلت لها :

ــ أفضل ألا أقول لك أين أخفيتها يا آنسه « مارى جان » اذا لم يكن لديك ثمة مانع ... ولكنى سأكتب لك كل شيء فوق رقعة

من الورق تستطيعين أن تقرأيها وأنت فى طريقك الى منزل مستر لوثروب ان شئت ... فهل توافقين على ذلك ؟

ــ نعم ...

فكتبت على ورقة أقول « لقد وضعت الحقيبة فى التابوت ، وكانت به عند ما كنت تبكين هناك فى تلك الليلة ... أما أنا فكنت واقفا خلف الباب ... ولكم شعرت بالأسف من أجلك يا آنسة مارى جان » ..

واغرورقت عيناى بالدموع حينما تذكرتها وهى تبكى وحيدة فى جوف الليل ، بينما هذان الشيطانان يغرران بها ويسرقانها تحت سقف منزلها . وعندما طويت الورقة وأعطيتها لها ، لاحظت أن عينيها قد اغرورقتا بالدموع أيضا ... وصافحتنى الفتاة بقوة ، ثم قالت :

ــ الوداع ... سأفعل كل ما طلبته منى بدقة . فاذا لم أرك بعد الآن ، فاننى لن أنساك ، وسأفكر فيك دائما ... وأصلى من أجلك أيضا .

ثم انصرفت ....

وبدأت أستعيد ما قالته ... لقد قالت انها ستصلى من أجلى ! وشعرت بالسعادة ... وأيقنت انها ستصلى من أجلى . فهى فتاة طيبة . ولست أتملقها بهذا القول ... فاننى لم أرها منذ خرجت من ذلك الباب ، ولكنى فكرت فيها أكثر من مليون مرة ، وفكرت فى قولها انها ستصلى من أجلى ... واذا جال بخاطرى يوما ان من الخير أن أصلى من أجلها فلن أتردد فى الصلاة .

ولا شك فى أن « مارى جان » سلكت الطريق الخلفى عند انصرافها ، لأن أحدا لم يرها وهى تنصرف . وعندما التقيت بسوزان وأختها الأخرى قلت لهما :

ـ ما اسم الأسرة التى تقيم على الجانب الآخر من النهر وتذهبن جميعا أحيانا لزيارتها ؟

فقالتا : هناك أسر عديدة ، أهمها أسرة بروكتور .

ـ آه ، هذا هو الاسم ... لقد كدت أنساه ... لقد طلبت منى الآنسة « مارى جان » أن أخبركما انها ذهبت الى هناك لأمر جد عاجل ... فان هناك مريضا !

ـ ومن هو ؟

ـ لست أعلم .. لقد نسيت الاسم .. ولكنى أظن ..

ـ يا الهى ، أرجو ألا تكون « هانار » .

ـ يؤسفنى أن أقول لكما ان « هانار » هى المريضة .

ـ رباه .. لقد كانت أتم ما تكون صحة فى الأسبوع الماضى ، وهل مرضها خطير ؟

ـ لقد قالت الآنسة «مارى جان» ان الأسرة ظلت ساهرة مع المريضة طوال الليل ، وهم يعتقدون انها لن تعيش ساعات كثيرة .

ـ ترى ماذا دهاها ، بماذا هى مريضة ؟

ولم أستطع أن أفكر فى اجابة معقولة على هذا السؤال ، فقلت :

ـ التهاب الغدة النكفية ! !

ـ هذا سخف ، ان الناس لا يسهرون مع المرضى بالغدة النكفية .

ـ أحقا ؟ يمكننى أن أؤكد لك انهم يسهرون مع أمثال هؤلاء المرضى .. فمرضها من نوع مختلف عن المألوف . وقد قالت الآنسة « مارى جان » انه نوع جديد من المرض !

ـ وما هو هذا النوع الجديد ؟

ـ انه نوع من المرض يصحب حالات أخرى .

ـ حالات أخرى ؟

ـ نعم .. الحصبة ، والسعال الديكى ، والتهاب الاذن ، والسل ، والحمى المخية ، وأمراض أخرى لا أعرفها .

وهنا قالت الفتـاة الصغرى ذات الشفة المغطاة بالشعر : انه لأمر مخيف فيما أظن .. سأذهب الى العم « هارفى » و ...

فقلت لها : لست أنصح لك بأن تخبرى العم « هارفى » بهذا الأمر ...

فقالت : لماذا ؟

فأجبت قائلا : تأملى الموقف لحظة واحدة لعله ينجلى أمام عينيك .. ان عميكما مضطران للعودة الى انجلترا بأسرع ما يستطيعان.. وهما ليسا من الضعة بحيث يسافران ويتركانكن وحدكن .. ولما كان « العم هارفى » قسيسا ، فانه لن يحاول أن يخدع كاتب احدى البواخر بأن يجعله يقبل نقل الآنسة « مارى جان » على الباخرة الآن .. فالآنسة « مارى جان » قد تكون مصابة بمرض « الغدة النكفية » هى الأخرى نتيجة لمخالطتها للشابة المريضة التى تزورها .. ولهذا ، فانه من المحتمل أن يضطر « العم هارفى » وشقيقه الى البقاء هنا ثلاثة شهور ريثما يتأكد من أن الآنسة « مارى جان » ليست مريضة !.. وبذلك سوف يتأخر سفركن الى بريطانيا ثلاثة شهور .. هذا هو الموضوع.. فهل انت مصممة على مصارحة «ألعم هارفى» بالأمر ؟

فقالت الفتاة : وهل نبقى جميعا هنا لنستوثق مما اذا كانت ماری جان مريضة بالتهاب الغدة النكفية أم لا ، بينما كان فى استطاعتنا أن نستمتع بوقت لطيف فى انجلترا ؟

فقلت : هذا ما سيحدث اذا صممت على مصارحة « العم هارفى » بالأمر ..

فقالت الفتاة : اذن لن نقول شيئا للعم هارفى ! !

ثم استدركت قائلة : ولكننى أظن انه يجدر بنا أن نقول لعمنا هارفى انها ذهبت لأمر من الأمور وانها ستتأخر بعض الوقت ، فان ذلك كفيل باراحة باله .

فقلت : نعم ، ان الآنسة « ماري جان » تريد منكما أن تفعلا ذلك .. قالت لي « قل لهما أن يقدما تحيتي للعم هارفي ووليام مع قبلة لكل منهما ، وأن تخبراهما انني عبرت النهر لمقابلة مستر ... مستر ... ما هو اسم الأسرة الثرية التي كان عمكما « بيتر » يحبها كثيرا ؟ أعني الأسرة التي ...

ـ اوه ، لا ريب انك تعني أسرة « لونروب » ؟

ـ بالطبع ... يا لها من أسماء مربكة ... نعم ... قولا ان « ماري جان » ذهبت الى هذه الأسرة لتطلب اليها أن تأتي لحضور المزاد وشراء المنزل ، لأنها تعتقد أن عمها « بيتر » يفضل أن تشتريه هذه الأسرة على أن يشتريه أي شخص آخر ... واذا لم تكن متعبة فستعود الليلة ، والا فانها ستعود في صباح الغد . وطلبت مني أن أطلب اليكما ألا تقولا شيئا عن أسرة بروكتور ... لا تذكرا الا اسم أسرة « لوثروب » ... فهذا هو الاسم الصحيح !

فقالت الفتاتان : سوف نفعل ذلك ...

ثم انصرفتا للبحث عن عميهما وابلاغهما تحيات أختهما وقبلاتها ورسالتها .

كان كل شيء على ما يرام ! فالفتاتان لن تقولا شيئا لانهما ترغبان في الذهاب الى انجلترا ... ولا شك في أن « الملك » و « الدوق » يفضلان أن تكون « ماري جان » بعيدة عن المنزل أثناء عقد المزاد حتى لا يؤثر عليها « الدكتور روبنسون » ... وشعرت بأنني أجدت تمثيل دوري ... ولست أظن أن « توم سوير » كان يجيد الدور خيرا مني مع أنه أقدر مني على ذلك !

وأقيم المزاد في الساحة العامة قبل المساء بوقت قصير ... فاستمر فترة طويلة . وكان « الملك » يسير بين « المزايدين »

وهو لايفتأ يردد بعض آيات من الكتاب المقدس . . . أما «الدوق» فكان يردد « جو ــ جو ــ جو » استدرارا للعطف .

وبينما كان خبير المزاد يحاول بيع الأشـــياء القليلة الباقية ، أقبل قارب بخارى رسا عند الشاطىء . وبعد دقيقتين أقبلت جماعة من الناس كانوا يصيحون ويضحكون ، وظلوا يتقدمون منا ، ثم صاحوا :

ــ هاكم مجموعة ثانية من ورثة « بيتر ويلكس » العجوز !. . . فلأى المجموعتين سوف تعطون النقود ؟ !

الفصل التاسع والعشرون

قرابة متنازع عليها ــ ((الملك)) يشرح الموقف ــ رسالة بخط الميت ــ الوشم ــ اخــراج الجثــة ــ ((هاك)) يهرب .

كانت الجماعة المقبلة تقود أمامها كهلا ، وشــابا وسيم الطلعة شد ذراعه الى صدره بضمادة ولفافة . وراح الناس يصخبون ويضحكون رغم انني لم أجد مبررا للضحك ، فأدركت أن موقف « الملك » و « الدوق » قد ســاء فجأة ، وأن لونهما لن يلبث أن يصفر ... ولــكن شــيئا من ذلك لم يحدث . فقد ظل الدوق طبيعيا فى حركاته وكأنه لم يكن مرتابا فى حدوث شيء غير عادى ، فقد ظل يردد كلمتــه المأثورة « جو ــ جو ــ جو » وهو بادى السعادة والارتياح ... أما « الملك » ، فقد راح يحدق ويحدق فى القادمين الجديدين بعينين تعربان عن الأســف ، وكانت تبدو عليــه علامات من يســتنكر امكان وجود مثــل هذين الدعيين القادمين ! ! وكان تمثيله رائعا كل الروعة ، فالتف حوله كثيرون من كبار شخصيات المدينة ليثبتوا له انهم مستعدون لشد أزره . أما الكهل الذى جاء فجأة ، فقد بدا عليه الاضــطراب والحيرة ، وسرعان ما بدأ يتكلم ... وفى التو تبينت أن نطقه يشبه نطق

الانجليز ، وانه مختلف عن نطق « الملك » ، وليس فى استطاعتى أن أذكر نص كلمات الكهل ولا أن أقلده فى حديثه ... ثم تحول الى الجمع وقال ما معناه :

ـ انها مفاجأة لم أكن أتوقعها ... واننى لأعترف لكم بصراحة اننى لم أكن مستعدا لمواجهة مثل هذا الموقف الحرج ؛ وخاصة ان سوء الحظ لازمنا فى الطريق ... فأخى قد كسر ذراعه ، كما أن حقائبنا نقلت ـ خطأ ـ الى مكان آخر بالمدينة ليلة أمس ... وهذا هو أخوه « ويليام » الذى لا يسمع ولا يتكلم ... ها أنذا قد قلت لكم من نحن ؛ وبعد يوم أو اثنين سأسترد أمتعتنا ، وعندئذ أستطيع أن أبرهن لكم على صدق قولى ... أما الآن فلن أقول شيئا ... سنذهب الى الفندق وننتظر !

ثم انصرف الكهل والشاب الوسيم ... وعندئذ ضحك « الملك » وقال :

ـ كسر ذراعه !؟.. هذا محتمل .. أليس كذلك ؟.. انها حيلة مكشوفة !...

وضحك « الملك » ثانية ، فضحك جميع الحاضرين الا ثلاثة أو أربعة أو ربما ستة .. وكان الدكتور « روبنسون » أحد الذين لم يضحكوا .. كذلك لم يضحك رجل بادى الصرامة كان يحمل حقيبة عتيقة مصنوعة من السجاد القديم ، كان قد وصل لتوه بالباخرة ... وكان يتحدث الى الدكتور « روبنسون » بصوت منخفض ، وهما يتطلعان الى « الملك » بين الحين والحين . كان هذا الرجل هو « ليفى بل » المحامى الذى كان قد ذهب الى « لويز فيل » . وكان هناك رجل آخر ضخم الجسم خشن المنظر قدم بدوره بالباخرة وأصغى لكل ما قاله الكهل ... وكان يصغى للملك فى تلك اللحظة ... وعندما فرغ « الملك » من الكلام قال هذا العملاق :

ــ اصغ الى يا هذا .. اذا كنت « هارفى ويلكس » فمتى جئت الى هذه المدينة ؟

ــ فى اليوم السابق للجنازة يا صديقى .

ــ وفى أية ساعة من النهار جئت ؟

ــ فى المساء ــ قبل غروب الشمس بساعة أو اتنتين .

ــ وكيف جئت ؟

ــ جئت على الباخرة سوسان باول من « سنسناتى » .

ــ كيف اتفق اذن انك كنت فى « بنيت » فى الصباح ... وكنت تركب قاربا ؟

ــ لم أكن فى « بنيت » فى الصباح .

ــ هذا كذب .

واندفع كتير من الحاضرين نحو الرجل العملاق وتوسلوا اليه ألا يتحدث بهذه الطريقة الى « هارفى » الكاهن.!

فصاح الرجل : فليذهب الكاهن الى الشيطان ... انه محتال كاذب ... لقد كان فى « بنيت » فى ذلك الصباح ... أننى أقطن هناك كما تعلمون ... ولقد كنت عند الخليج وكان هو هناك أيضا ... ولهذا رأيته ... كان يستقل قاربا مع «تيم كولنيتر» وغلام آخر .

وانبرى الدكتور « روبنسون » يقول : هل تستطيع أن تعرف الغلام اذا رأيته تانية يا هاينز ؟

ــ أعتقد ذلك ، ولو انني لست واثقا منه ... آه ، ها هو الغلام ... اننى أعرفه !

وأشار الى ... وقال الطبيب :

ــ أيها الجيران ... لست أدرى ان كان القادمان الجديدان محتالين أيضا أم لا ... ولكن اذا لم يكن هذان الرجلان الموجودان هنا دعيين محتالين ، فاننى أكون رجلا غبيا ... هذا هو كل

شيء ... وأعتقد أن واجبنا يقتضينا ألا نسمح لهما بالفرار من هنا قبل أن نفرغ من دراسة الموقف دراسة شاملة ... تعال يا « هاينز » ... بل تعالوا جميعا ... سنذهب بهذين الرجلين الى الفندق ونواجههما بالرجلين الآخرين ... وفى رأيى اننا سوف نستطيع ، بهذه الطريقة ، الوقوف على الحقيقة !

واستحسن الجميع هذا الرأى باستثناء أصدقاء « الملك » ... وهكذا سرنا جميعا الى الفندق ... وكان ذلك عند غروب الشمس تقريبا ... ولقد أخذنى الدكتور « روبنسون » معه وكان يمسك بيدى ... وكان شديد التلطف معى ، ولكنه لم يترك يدى مطلقا .

ودخلنا الى ردهة كبيرة فى الفندق .. وأضىء عدد من الشموع ، وأرسل الدكتور « روبنسون » فى طلب القادمين الجديدين ... وافتتح الدكتور الحديث قائلا :

ــ اننى لا أريد أن أقسو على هذين الرجلين . ولكنى أظن انهما محتالان ، وربما كان لهما شركاء لا نعرف شيئا عنهم ... فاذا كان الأمر كذلك ، أفلا تظنون ان هؤلاء الشركاء سيبادرون بالفرار حاملين الحقيبة التى تحتوى على نقود « بيتر ويلكس » ؟ ليس هذا غير محتمل . واذا لم يكن هذان الرجلان دعيين ، فانهما لن يعترضا على احضار هذه النقود والسماح لنا باستبقائها حتى يثبتا لنا انهما بعيدان عن كل شك ... ألا توافقون على ذلك ؟

ووافق الجميع على ذلك . وعندئذ أدركت أن العصابة أصبحت فى مركز خطير ، ولكن « الملك » أبدى الأسف وقال :

ــ أيها السادة ... وددت لو كانت النقود موجودة ، فأنا لا أحب عرقلة بحث عاجل فى هذا الموقف المؤسف . ولكن النقود غير موجودة للأسف ... ويمكنكم أن ترسلوا واحداً منكم الى المنزل ليستوثق من ذلك !

ــ اذن أين النقود ؟

ـ عند ما أعطتها لى ابنة أخى للمحافظة عليها أخفينها داخل الحشية المصنوعة من القش الموضوعة فوق فراشى ... ذلك اننى لم أشأ أن أودعها المصرف مدة الأيام القليلة التى سنقضيها هنا ، ولأننى كنت أعتقد أن هذا المخبأ آمن ... فنحن كنا نعتقد أن الخدم هنا أمناء كالخدم فى انجلترا ... لقد سرق الزنوج النقود فى صباح اليوم التالى بعد أن غادرت غرفتى ... وعند ما بعتهم لتجار الرقيق لم أكن قد اكتشفت ضياع النقود . وهكذا استطاعوا الافلات بها ... وفى استطاعة خادمى الموجود هنا أن يحدثكم بكل شيء أيها السادة .

وأعرب الدكتور « روبنسون » وكثيرون غيره عن ريبتهم ، وبدا لى أن أحدا من الحاضرين لم يصدق « الملك » ...

وسألنى أحد الرجال ان كنت قد رأيت الزنوج وهم يسرقون الحقيبة ، فقلت ان كل ما أعرفه هو أننى رأيتهم يخرجون خلسة من الغرفة ويهرولون مبتعدين ، ولم يخطر ببالى شيء مريب ، فقد ظننت انهم كانوا يخشون ايقاظ سيدى ... وكان هذا هو كل ما سألونى عنه . وعندئذ سألنى الدكتور « روبنسون » :

ـ هل أنت انجليزى أيضا ؟

فأجبت « نعم » . وعندئذ ضحك هو وآخرون وقال : حديث خرافة !

وبدأوا تحقيقا عاما . ومضت ساعات طويلة ... فقد كان الدكتور « روبنسون » يطلب من الفريقين أن يسردا قصتهما . وكان من الواضح أن أى شخص غير متحامل لا ريب يدرك أن الكهل الذى وفد على المدينة فى ذلك اليوم لم يذكر الا الصدق ، وان قصة « الملك » كانت أكذوبة مفضوحة . ثم طلبوا منى أن أدلى بما أعرفه . ورأيت « الملك » يغمز لى بعينه اليسرى خلسة فأدركت نوع الحديث الذى ينبغى لى أن أدلى به . وبدأت أحدث

الحاضرين عن « شيفلد » وكيف كنا نعيش هناك ، وأفضيت اليهم بكل شيء عن ويلكس الانجليزى ... وهلم جرا — ولكنى لم أسترسل فى حديثى لأن الدكتور « روبنسون » انفجر ضاحكا بينما قال المحامى « ليفى بيل » :

— اجلس يا بنى ... لو كنت مكانك لما أجهدت نفسى هكذا.. أعتقد انك لم تتعود الكذب لأنك لا تجيده ... انك مازلت بحاجة الى المران عليه ، لأن كذبك مفضوح .

ولم أعبأ بهذا المديح بقدر ما سرنى أنهم تخلوا عن استجوابى .

وبدأ الدكتور يقول شيئا ، ثم التفت الى المحامى وقال :

— اسمع يا « ليفى بيل » ...

فقاطعه « الملك » قائلا وهو يبسط يده :

— آه ، هذا هو الصديق الحميم للمرحوم أخى ! لطالما كتب لى عنه ... عن « ليفى بيل » !

وتصافح المحامى و « الملك » ... وابتسم المحامى وبدا عليه السرور . وأخذ الرجلان يتبادلان الحديث فترة طويلة ، ثم انفردا فى أحد الأركان وراحا يتحدثان بصوت خفيض ... وأخيرا رفع المحامى صوته وقال :

— اكتب طلبا بخط يدك ... ودع أخاك يكتب سطرا أو اثنين أيضا !

وأحضروا ورقا وقلما ، وجلس « الملك » ثم مال برأسه جانبا وأخذ يلوك لسانه فى فمه ... ثم كتب شيئا ... ثم أعطى القلم للدوق ... ولأول مرة بدأ الضيق يظهر على وجه « الدوق » .. ولكنه التقط القلم وكتب ... وعندئذ التفت المحامى الى الكهل الذى قدم أخيرا وقال :

— أرجو أن تكتب وأخيك سطرا أو اثنين وتوقعانهما ايضا !

فكتب الكهل ما طلب منه ، ولكن أحدا لم يستطع أن يقرأ ما كتبه الرجل ! . . . وعندئذ بدت الدهشة على وجه المحامى فقال :

ـ يا لله . . . ما هذا ؟ لست أستطيع قراءة شيء مما كتبت !

وأخرج المحامى عددا من الرسائل القديمة من جيبه وتأملها مليا ، ثم تأمل كتابة الكهل ، وعاد وتأمل الرسائل ثم قال :

ـ ان هذه الرسائل القديمة من « هارفى ويلكس » . . . وها هو خط الاثنين اللذين يقولان انهما هارفى ويلكس ! وعندئذ أدرك « الملك » و « الدوق » ان المحامى استطاع أن يوقعهما فى فخ !

واستطرد المحامى يقول : ان أى انسان يستطيع أن يجزم بسهولة ان خط الكهل الوافد الجديد أبعد ما يكون عن الخط الذى كتبت به الرسائل التى أحملها . . . فالحقيقة ان ماكتبه هذا الكهل ليس « كتابة » !

وهنا قاطعه الكهل قائلا : دعنى أفسر لك الحقيقة . . . ان أحدا لا يستطيع أن يقرأ خطى سوى أخى الموجود هنا ـ فهذه الرسائل كان ينقلها أخى بخطه !

فقال المحامى : حسنا . . . ان معى بعض رسائل « وليام » أيضا ، فاذا أمكنك أن تجعل أخاك يكتب سطرا أو اثنين ، فسنتمكن من . . .

فقال الكهل : انه لا يستطيع أن يكتب بيده اليسرى . ولو كان فى استطاعته أن يكتب بيده اليسرى لتبين لك انه يكتب رسائله ورسائلى أيضا . . . أرجو أن تتأمل الاثنين ، وسيتضح لك انهما مكتوبان بخط واحد .

ففعل المحامى ذلك وقال : أعتقد ذلك . . واذا لم يكونا مكتوبين بخط واحد ، فان هناك تشابها عجيبا فى الخط لم أتبينه من قبل !! لقد كنت أظن اننا سائرون فى الطريق الصحيح ، ولكن يبدو اننى مخطىء !.. وعلى أية حال ، فقد اتضح لنا الآن أن هذين السيدين

ليسا من أسرة « ويلكس » ... قال ذلك وهو يشير الى « الملك » و « الدوق » !

ثم قال المحامى : ولقد فكرت فى شىء آخر ... هل يوجد هنا من ساهم فى اعداد جثة المرحوم « بيتر ويلكس » للدفن ؟

فقال أحد الأشخاص : نعم ... أنا و « آب‌تيرنر » فعلنا ذلك ... وكلانا هنا .

وعندئذ تحول الكهل ـ الوافد الجديد ـ الى « الملك » وقال له : هل تستطيع أن تصف لنا الوشم الذى كان مرسوما على صدر المرحوم ! !

وكان على « الملك » ان يتمالك رباطة جأشه بسرعة عظيمة والا ضاع ، فقد أخذه هذا القول على غرة ... والحق ان المأزق كان شديد الحرج ، اذ من أين له أن يعرف الوشم الذى كان مرسوما على صدر الميت ! واصفر لونه قليلا ، وساد سكون شامل ، تماما ، بينما أخذ الحاضرون جميعا يحدقون فى وجهه ... وعندئذ قلت لنفسى ان « الملك » قد سقط فى الفخ ولم يعد له مفر من الاستسلام ... فهل تراه فعل ؟ ان أحدا لا يمكن أن يصدق ما فعله ... لم يتخاذل أو يستسلم ! لقد ظل الملك ملازما مكانه ، ولم يلبث أن ابتسم وقال :

ـ انه سؤال عويص ... أليس كذلك ؟ نعم يا سيدى ، فى استطاعتى أن أقول لك ما هو الوشم الذى كان مرسوما على صدره ... كان سهما صغيرا رفيعا أزرق اللون ... وما لم تنظر اليه عن قرب ، فلن تستطيع رؤيته ... والا مارأيك فى ذلك ؟ .. قال ذلك بصفاقة أدهشتنى !

وهنا تحول الكهل (الوافد الجديد) الى « آب تيرنر » وزميله ، وقد تألقت عيناه بالفوز ؛ فقد ظن انه استطاع أن يوقع بالملك هذه

المرة ، وقال : هل سمعتم ما قاله ؟ هل كانت هناك أية علامة كهذه مرسومة على صدر « بيتر ويلكس » ؟

وتكلم الرجلان معا . . . قالا : لا . . . لم نر مثل هذه العلامة .

فقال الكهل : أما أنا فأقول لكما ان الوشم كان يتكون من حرفين هما : « ب . ب » (وهما أول حرفين من الاسم الذى اتخذه بيتر فى شبابه) كذا حرف «و» وبينهما فواصل هكذا : «ب ــ ب ــ و»

وكتب الرجل الحروف بهذا الترتيب على رقعة من الورق وهو يقول : ألم تكن هذه هى الحروف التى رأيتماها ؟

فقال الرجلان : لم نر مثل هذه الحروف . . . بل لم نر شيئا على الاطلاق . . . لم نر أى وشم ! !

وهكذا تكهرب الجو . وسرعان ما انطلق الحاضرون يصيحون :

ــ انهم جميعا ادعياء . . . دعونا نغرقهم فى النهر . . . دعونا نجعل القطار يمر فوقهم ويقتلهم . . .

ولكن المحامى أسرع يثب فوق المنضدة وصاح بأعلى صوته :

ــ أيها السادة . . . أيها السادة . . . اسمحوا لى أن أقول كلمة . . . كلمة واحدة فقط . . . أرجوكم . . . ما زالت هناك طريقة أخرى . . . دعونا نذهب ونخرج الجثة لنفحصها .

ووافق الجميع بلا ابطاء . . . واشتد صخبهم ، وتهيأوا للذهاب الى المقابر على الفور ؛ ولكن المحامى والطبيب قالا :

ــ مهلا ، مهلا . . . اقبضوا على هؤلاء الرجال الأربعة والغلام واحضروهم معنا ؛ فصاحوا جميعا : سنفعل ذلك ، واذا لم نجد الوشم فسنشنق العصابة كلها ! !

وتملكنى الفزع ففكرت فى الفرار . . . ولكن كيف ؟! . . . وقبضوا علينا ، ثم قادونا أمامهم الى المقابر التى كانت على مبعدة ميل ونصف ميل الى الجنوب . . . وخرجت المدينة كلها فى هذا الموكب الرهيب .

وبينما كنا نمر بالمنزل ، تمنيت لو انني لم أرسل « مارى جان » خارج المدينة ، فلو انني استطعت أن اتصل بها لعمدت الى نجدتي في هذه اللحظة الحرجة وقضت على هؤلاء الأدعياء المحتالين !

ومضينا نتقدم على طريق النهر كالقطط البرية . وزادني فزعا أن السماء تلبدت بالسحب .. وبدأ البرق يلمع ، وراحت الريح تئن بين أوراق الأشجار .. وكان هـذا الموقف هو اكثر المواقف التي تعرضت لها خطورة ، ولهذا كنت في شبه ذهول ، فقد كانت الأمور تجرى على غير ما كنت أتوقع . فبدلا من أن أكون منفرجا يضحك ملء شـدقيه حيث تقف « مارى جان » ورائي لتشد أزرى وتنقذني ، تعقـد الموقف من حولى ، وأصبحت في مازق خطير ، واقترب مني الموت الذى لن يبعده عني سوى ذلك الوشم الأزرق على صدر الميت ! فرحت أتمنى أن يجد الناس وشما كهذا على صدر الميت ! !

ولم استطع احتمال وقر التفكير في نتائج هذا الموقف الرهيب ، ولكنني لم أكن استطيع أن أفكر في أى شيء آخر .. وظلت الدنيا تظلم أمامى ، وخيل الى انني استطيع أن أتسلل خلسة من بين الجماهير ؛ ولـكن ذلك العملاق « هاينز » كان يقبض على يدى ؛ وكان انتزاع يدى من يده أشبه بالتخلص من قبضة مارد جبار .. فقد كان يجذبني وهو يسير سريعا ، حتى لقد كنت مضطرا الى الركض حتى ألحق به !

وعندما بلغ الموكب المقـابر ، بدأ الناس يتدفقون كالفيضان ، ولما بلغوا المقبرة ، بدأوا يحفرون بلا ابطاء مستعينين بالضـوء الذى كان يلمع مع البرق ، وأرسـلوا رجـلا الى أقرب منزل ، وكان يبعد حوالى نصـف ميل ، ليستعير مصـباحا . ومضوا يحفرون بهمة وعزم ، وازداد الظلام حلكة ، بينما بدأ المطر يهطل . واشـتد عصف الريح ، كما ازداد لمعان البرق ، وأعقبه قصـف

الرعد بعنف . ولكن هؤلاء القوم لم يعيروا هذا كله اهتماما أو التفاتا .. لقد كانوا مستغرقين فى العمل . وفى بعض هذه اللحظات كنت أرى كل شيء ، وكل وجه فى هذا الجمع الحاشد كما ترى المجارف خارج القبر ، ثم لا تلبث الدنيا أن تظلم فى اللحظة التالية فلا أستطيع أن أرى شيئا .

وأخيرا أخرجوا التابوت ، وبدأوا يفتحون غطاءه .. وعندئذ أخذ الجميع يتدافعون بالمناكب حتى يلقوا نظرة على صدرالميت..

كان المنظر مخيفا فى هذا الظلام الدامس ، فقد شدد « هاينز » الضغط على معصمى فآلمنى أشد الألم ، وهو يتدافع بالمناكب.. وأكبر الظن انه نسى وجودى ، لأنه كان يلهث بشدة وانفعال ..

وفجأة لمع البرق بشدة فصاح أحدهم :

ـ يا للسماء : ها هى حقيبة الذهب موضوعة فوق صدره !!!

وانطلق « هاينز » صيحة ثاقبة ، وترك معصمى ، ثم اندفع الى الامام ليلقى نظرة على التابوت .. وعلى الفور تسللت من بين الجماعة وانطلقت أعدو فى الطريق المعتم بشكل لا يمكن أن يتصوره أو يصفه أحد .

كان الطريق خاليا ، فأطلقت ساقى للريح بكل ما استطعت من قوة .. وكان البرق يلمع بين حين وآخر ، والمطر يهطل ، والريح تقصف ، فلم يفزعنى ذلك بقدر ما بث الطمأنينة فى نفسى .. فحسبى أن الطريق كان خاليا من السابلة !

وعندما وصلت الى المدينة ، لم أجد أحدا فى الشوارع ؛ فقد كانوا جميعا فى منازلهم .. ولهذا لم ألجأ الى الطرقات الخلفية ، وانما مضيت فى الشارع الرئيسى . وعندما بدأت أتجه صوب المنزل ، تطلعت اليه ، فألفيته معتما .. فشعرت بالأسف وخيبة الأمل .. وأخيرا ، وبينما كنت أمر بالمنزل ، رأيت ضوءا ينبعث من نافذة غرفة « مارى جان » ، فقفز قلبى بين ضلوعى حتى كاد

ينفجر . وفى اللحظة التالية ، كنت قد تجاوزت المنزل ؛ ومضيت فى طريقى لا ألوى على شىء .

وحينما تجاوزت المدينة ، وادركت اننى أستطيع الذهاب الى حيث تركنا العائمة ، رأيت قاربا صغيرا مربوطا بحبل فجذبته نحو الماء . ولم أضع لحظة واحدة . وعندما وصلت الى العائمة كان التعب قد نال منى كل منال ، فارتميت فوق سطحها ورحت ألهث بشدة ، ثم صحت :

ـ اسرع يا « جيم » .. فك العائمة .. يا الهى اننا فى مركز جد خطير .

وأوقد « جيم » المصباح ، وأقبل نحوى وقد فتح ذراعيه ، واستخفه الطرب ، ولكننى ما كدت ألمح وجهه حتى كاد قلبى يكف عن الحركة ، وتراجعت الى الوراء حتى سقطت فى الماء .. لقد نسيت انه كان يرتدى ملابس الملوك .. ملابس « الملك لير » ! ! وبادر « جيم » باخراجى من الماء ، وهو يضمنى الى صدره اعرابا عن فرط سروره بعودتى وبالتخلص من « الملك » و « الدوق » ، ولكنى قلت له :

ـ هيا يا « جيم » .. اطلق العائمة ! !

وأخذت العائمة تنساب فوق صفحة الماء . وشعرنا بسعادة غامرة لتحررنا ثانية وانفرادنا بأنفسنا فوق صفحة النهر الكبير بغير أن يضايقنا أحد .. ولكنى سرعان ما سمعت صوتا أعرفه جيدا ، فحبست أنفاسى ، وأصخت السمع ، وانتظرت . وعندما ومض البرق ثانية فوق صفحة الماء عرفت كل شىء .. كان « الملك » و « الدوق » يستقلان زورقا وهما يجدفان بقوة فى طريقهما الينا ...

ولم أتمالك نفسى من التهالك فوق سطح العائمة ، وقد تملكنى اليأس . .ثم لم ألبث أن انفجرت باكيا ! !

الفصل الثلاثون

الملك يثور ـ معركة ملكية ـ تراخ شديد .

عندما صعد « الدوق » و « الملك » الى العائمة ، انقض الملك علي ، وهزني من ياقتي ، وقال :

ـ أتحاول أن تهجرنا أيها الجرو ، هل سئمت رفقتنا .. تكلم ؟

فقلت : لا يا صاحب الجلالة .. أرجوك يا صاحب الجلالة .

ـ اذن أسرع وقل لنا لماذا هربت ؟.. قل لنا والا فتكت بك !!

ـ سأقول لك كل شيء بصدق يا صاحب الجلالة .. لقد كان الرجل الذي أمسك بي لطيفا جدا معي .. كان لا يفتأ يقول لي انه فقد ابنا مثلي في العام الماضي ، ولهذا فانه آسف لأن يرى غلاما مثلي في مثل هذا الموقف الخطير . وعندما تولت الدهشة الجميع بسبب العثور على الذهب ، واندفعوا الى التابوت ترك يدي وهمس قائلا « بادر بالفرار والا شنقوك » ، فانطلقت كالسهم .. فلم يكن من الخير لي أن أبقى .. لم يكن في استطاعتي أن أفعل شيئا .. كما انني لم أكن أريد أن أشنق . ولهذا لم أكف عن العدو الى أن عثرت على القارب ، وعند ما صعدت فوق سطح العائمة طالبت «جيم» بالاسراع والا قبضوا علينا وشنقوني ،

وقلت له انك والدوق قد هلكتما .. والحق اننى كنت شديد الحزن من أجلكما .. وكذلك كان «جيم» .. ولهذا سررت اشد السرور عند ما رأيتكما مقبلين .. ويمكنك أن تسأل « جيم » عن ذلك .

وأمن جيم على قولى ، وعندئذ نهره « الملك » مطالبا اياه بالسكوت ثم قال : آه ، هذا محتمل جدا !

وهزنى مرة أخرى وقال انه يفكر فى اغراقى ، ولكن الدوق قال :

ـ دع الغلام وشأنه أيها الغبى الكبير .. هل كنت تفعل غير ما فعل ؟ هل بحثت عنه عند ما استطعت الفرار ؟ اننى لا اذكر انك فعلت ذلك .

وأطلق « الملك » سراحى ، وبدأ يلعن المدينة وكل من فيها . ولكن « الدوق » قال له :

ـ يحسن بك أن تلعن نفسك لأنك تستحق هذه اللعنات .. انك لم تفعل شيئا معقولا منذ البداية غير طلوعك علينا بأسطورة الوشم الخيالية !!. ولكنها كانت فكرة رائعة حقا ، واليها يرجع الفضل فى نجاتنا ، اذ لولاها لزجوا بنا فى السجن ريثما يحضرون أمتعة الرجلين الانجليزيين . وعندئذ كان من المحقق أن يحكم علينا بالسجن مع الأشغال الشاقة ، ولكن هذه الحيلة جعلتهم يذهبون الى المقابر . وليس من شك فى ان العثور على حقيبة الذهب فى التابوت قد أفادنا كثيرا ، فلولا ما استولى على هؤلاء الحمقى من هياج ، ولولا تدافعهم لالقاء نظرة على الحقيبة ، لكان من المحقق أن نقضى الليلة ورباطات العنق ملفوفة حول عنقينا ! !

وصمت الرجلان لحظة وهما يفكران ، ثم قال «الملك» بشرود :

ـ كنا نظن أن الزنوج هم الذين سرقوا الحقيبة ! !

وأجفلت ...

فقال « الدوق » بلهجة بطيئة تدل على التفكير والسخرية : هذا ما ظنناه ! !

وبعد حوالى نصف دقيقة قال « الملك » : على الأقل هذا ما ظننته أنا !

فقال « الدوق » بنفس الطريقة : بالعكس ، هذا ما ظننته أنا !

فقال « الملك » بلهجة غاضبة : اصغ الى يا هذا .. ما الذى تعنيه ؟

فأجاب « الدوق » بلهجة حازمة : ما دام الأمر كذلك ، فدعنى أسألك بدورى ، ماذا تعنى ؟

فقال الملك بسخرية لاذعة :

— لا تظن اننى لا أعرف ، من الذى أخفى النقود فى ذلك التابوت ؟ .. أنت الذى أخفيتها !

فانقض « الدوق » عليه قائلا : هذا كذب .

فصاح « الملك » : ارفع يدك عنى ، أترك عنقى ، اننى أسحب كل ما قلت .

فقال « الدوق » : حسنا ، اعترف أولا بأنك أنت الذى أخفيت النقود لكى تحصل عليها وحدك فيما بعد !

— مهلا ، لحظة يا « دوق » ، أجبنى على السؤال التالى بأمانة وعدالة : اذا لم تكن أنت الذى وضعت النقود هناك ، فقل ذلك ، وأنا مستعد أن أصدقك ، وأسحب كل ما قلته .

— اننى لم أفعل ذلك أيها الوغد ، وأنت تعلم ذلك ...

— انى أصدقك ، لكن أجب عن هذا السؤال أيضا بدون ثورة .. ألم تكن تفكر فى الاستيلاء على النقود واخفائها ؟

فلم يجب الدوق على الفور ثم قال :

— وهل فى هذا ما يستحق المؤاخذة ؟ وعلى أية حال ، فان

شيئا من ذلك لم يخطر ببالى .. أما أنت فلم تفكر فى ذلك فحسب ، وانما نفذته أيضا .

ـ أصدقك القول اننى لم أفعل ذلك يا دوق ، ولست أزعم اننى لم أفكر فى سرقة الحقيبة .. فقد فكرت فى ذلك فعلا ، ولكنك ، أعنى شخصا آخر ، سبقنى الى ذلك .

ـ هذا كذب ، لقد سرقت أنت الحقيبة فعليك أن تعترف بذلك والا ...

وقبض « الدوق » على عنق « الملك » ، فصاح الملك : كفى انى أعترف .

وسرنى أن أسمعه يقول ذلك ؛ فقد شعرت براحة لم أشعر بها من قبل .. وعلى الفور رفع الدوق يديه عن عنق الملك وقال :

ـ اذا أنكرت ذلك مرة أخرى فسأغرقك .. من الخير لك أن تجلس هناك وتبكى كالطفل .. فان ذلك أنسب شىء لك .. انك طماع تريد أن تلتهم كل شىء . ومع ذلك ، كنت أثق بك دائما ... الحق انه كان يجدر بك أن تخجل من نفسك وأنت تسمع الاتهام يوجه الى الزنوج المساكين دون أن تحرك ساكنا .. اننى أشعر بالخجل من نفسى كلما تذكرت اننى كنت من السذاجة بحيث صدقت كل هذا السخف .. عليك اللعنة .. لقد تبينت الآن لماذا كنت تتلهف على التلكؤ .. لقد كنت تريد الاستيلاء على كل شىء !!

فقال « الملك » بخوف ، وبصوت مختنق : ولكنك كنت تريد ذلك يا دوق !

فقال « الدوق » : اصمت ، فاننى لا أريد أن أسمع شيئا .. والآن ، ها أنت ترى ما آل اليه الموقف .. لقد استردوا جميع نقودهم ، كما استولوا أيضا على كل ما كان معنا اللهم الا بنسات

قليـــلة ... هيا ، اذهب للنوم واحذر أن تعترض طريقى مرة أخرى ما دمت حيا .

فتسلل « الملك » الى داخل العائمة وأخذ يعب الويسكى طمعا فى الراحة .. وبعد قليل ، أخرج « الدوقِ » زجاجته أيضا وبدأ يجرع ما فيها .. وبعد نصف ســاعة كان المحتـــالان يغطان فى نومهما ، وقد احتضن كل منهما صاحبه .. وما أن استغرقا فى النوم حتى رحت أروى لصديقى « جيم » كل شىء !

الفصل الحادي والثلاثون

خطط جهنمية ـ اختفاء ((جيم)) ـ أخبـــار من ((جيم)) ـ ذكريات قديمة ـ معلومات مفيدة ـ الجنوب .

ظللنا مبحرين أياما وأياما دون أن نقف عنـــد أية مدينة .. وراحت العائمة تنساب فوق صفحة النهر . وكنا فى ذلك الوقت نعبر ماء الجنوب الدافىء ، وقد أصبحنا بعيـــدين جدا عن وطننا الأصلى ... وبدأنا نرى أشجارا يتدلى منها طحلب اسبانى أشبه بالذقن الطويلة التى وخطها الشيب . وأدرك الدعيان أنهما أصبحا الآن بمأمن من الخطر ، فاستأنفا الاحتيال على القرويين هناك ! !

واستهلا عملهما بالقـــاء محاضرة عن العفة ، ولكنهما لم يصيبا نجاحا يذكر .. وافتتحا مدرسة للرقص فى قرية أخرى ، ولكنهما لم يكونا يعلمان عن الرقص شيئا . فما أن افتتحا حلبة الرقص وراحا يقفزان هنا وهناك حتى طردهما الناس من القرية ، وحاولا بعد ذلك أن يحتـــالا على النـــاس عن طريق التنويم المغناطيسى والتطبيب ، ولكن الحظ تخلى عنهما . وأخيرا اضطرا الى البقاء على العائمة وهى منطلقة مع التيار ، وراحا يقدحان زناد فكرهما .. كانا يستغرقان فى التفكير نصف يوم كل مرة .. وارتسمت على

وجهيهما علامات اليأس المرير ، وأخيرا راحا يعقدان اجتماعات طويلة كانا يتحدثان أثناءها بصوت خفيض ، ساعتين أو ثلاث ساعات كل مرة ، فانتابنى أنا و « جيم » القلق ، فقد بدأنا نشعر أن اللعينين يدبران خطة جهنمية ، ورحنا نقلب الأمر على جميع وجوهه ، وأخيراً اعتقدنا أنهما لا بد يعتزمان السطو على منزل أو حانوت أو تزييف النقود ، فانتابنا ذعر شديد ، واتفقنا على ألا نشترك معهما فى مثل هذه الأعمال ، وأن ننتهز أول فرصة تسنح لنا للهرب .. وذات صباح ، رسونا فى ساعة مبكرة فى مكان آمن على مبعدة ميلين جنوبى قرية كالحة اسمها «بايكسفيل» ، ونزل « الملك » الى الشاطىء وطلب منا جميعا أن نظل مختبئين ريثما يذهب الى القرية ليستوثق مما اذا كان قد بلغها أى نبأ عن أعمالهما ، فقلت لنفسى : لا شك انه يريد أن يزور القرية ليرى ان كان هناك منزل يصلح للسطو عليه ، فاذا ما انتهى من سرقته عاد الى هنا » ! ثم قلت لنفسى « ولكنه حين يعود لن يجدنا ! ! » وأفقت من تأملاتى على صوته يقول : « اذا لم أعد عند الظهر ، فليعلم الدوق أن كل شىء على ما يرام ، ومن ثم نلحق به أنا والدوق ! !

وبقينا حيث نحن . وكان « الدوق » كثير التململ والتجهم .. كان ينهرنا لاتفه الأمور ، فأدركت أن هناك شيئا ، ولهذا سرنى أن « الملك » لم يظهر له أى أثر حتى الظهر .. فقد كان ذلك خليقا بأن يغير الموقف الراهن على الأقل ، وبادرت أنا و «الدوق» بالذهاب الى القرية . ورحنا نجوب فى أرجائها بحثا عن «الملك» . وسرعان ما عثرنا عليه فى غرفة خلفية من حانة وضيعة بها كثير من المتسكعين يضايقونه عابثين . أما هو فكان يسبهم ويشتمهم بكل قوته ! وانفجر « الدوق » يسبه ويصفه بالحماقة ، فبدأ « الملك » يتراجع ثم هجم على « الدوق » . وما كاد الاثنان

يشتبكان معا حتى أخذت أتراجع نحو الباب ، ثم تسللت منه ، وأطلقت ساقى للريح فى طريقى الى العائمة كغزال شارد . لقد أيقنت أن فرصتنا قد حانت ، وقررت ان ابادر بالرحيل حتى يعجزا عن اللحاق بنا ثانية . وبلغت الشاطىء ، وانا ألهث من التعب . ولكنى كنت مسرورا مرحا وصحت :

ــ أطلق العائمة بلا ابطاء يا « جيم » ، فاننا بمأمن الآن .

ولكنى لم أتلق ردا ... لقد اختفى جيم ! ... ورفعت عقيرتى مناديا مرة ، ثم اثنتين ثم ثلاث مرات ، واخذت اركض فى هذا الاتجاه وذاك وأنا أصرخ وأصيح ولكن دون جدوى .. لقد اختفى « جيم » العجوز .. ولم اكف عن النداء .. ثم عدت الى الطريق محاولا التفكير فيما يحسن بى أن أفعله . وصادفت غلاما سائرا فسألته ان كان قد رأى زنجيا غريبا يرتدى كذا وكيت فأجاب : نعم ...

فسألته : اين ؟

ــ هناك عند مزرعة « سيلاس فيلبس » على مبعدة ميلين جنوبا ... انه زنجى هارب ... ولقد قبضوا عليه ، هل تبحث عنه ؟ ...

ــ لا ... لقد قابلته فى الغابة منذ ساعة أو اثنتين فهددنى بقطع رأسى اذا صحت ! وأمرنى بالبقاء حيث كنت فامتثلت لأمره وبقيت هناك منذ ذلك الحين ... فقد تملكنى الخوف وخشيت الخروج من الغابة .

فقال : حسنا ، ليس هناك ما يدعوك للخوف بعد الآن .. فقد قبضوا عليه .. انه هارب من مكان ما فى الجنوب .

ــ لقد أحسنوا صنعا بالقبض عليه .

ــ أعتقد ذلك ، فان هناك مكافاة قدرها مائتا دولار لمن يقبض

عليه ... لقد كان العثور عليه بمثابة العثور على نقود فى عرض الطريق .

ــ نعم ... هذا صحيح ... كان فى استطاعتى ان أحصل عليها لو أننى تغلبت عليه ... لقد كنت أنا أول من رآه ... لكن من الذى قبض عليه ؟

ــ كهل غريب باع المكافأة بأربعين دولارا ، لأنه كان مضطرا الى الرحيل عبر النهر ، ولا يستطيع الانتظار ... لو اننى كنت مكانه لانتظرت ولو أدى الأمر الى الانتظار سبع سنوات .

فقلت : لعل فرصته فى الحصول على المكافأة لم تكن كبيرة ، مادام قد باع الزنجى بهذا السعر ... ولعل فى الأمر شيئا ! ..

ــ ليس فى الأمر شىء ... لقد رأيت الاعلان بنفسى ... كانت الأوصاف تنطبق عليه تماما . وقد جاء بالاعلان انه هارب من مزرعة فى جنوب « نيو اورليانز » ... اخبرنى ، هل معك مضغة طباق ؟

ولما لم يكن معى طباق ، فقد انصرف الغلام . أما أنا ، فقعدت الى العائمة ورحت أفكر ، ولكننى لم أستطع أن أصل الى قرار ، فمضيت فى التفكير حتى أعيانى ... وانتابنى حزن قاتل ... فها هى جهودنا كلها تبوء بالفشل ، بعد هذه الرحلة الطويلة ، وبعد كل الذى فعلناه من أجل هذين الوغدين ! ... يا لهما من وغدين حقيرين ! ... لقد باعا « جيم » المسكين الذى سيعود رقيقا كما كان ... باعاه بأربعين دولارا ... ولقوم غرباء أيضا ! !

وبكيت ... بكيت ألما وشفقة على « جيم » ... لقد كان من الأفضل ألف مرة أن يكون جيم رقيقا فى وطنه حيث أسرته وفكرت فى أن أكتب رسالة لصديقى « توم سوير » أطلب اليه فيها أن يبلغ « الآنسة واطسون » أين يوجد جيم ، ولكنى سرعان ما تخليت عن هذه الفكرة لأمرين ، أولهما أن « الآنسة واطسون » سيجن جنونها بسبب نذالة « جيم » ونكرانه للجميل وفراره منها ، ولن تتردد

فى أن تبيعه ثانية ؛ وحتى اذا لم تفعل ذلك ، فان الجميع سيحتقرونه لأنه برهن على انه زنجى جاحد ناكر للجميل ، وبهذا يظل جيم موضع الاذلال والمهانة ... والأمر الثانى هو موقفى أنا ... فسيحتقرنى الجميع لأننى ساعدت الزنجى على الهرب ! ! .

وهكذا تبلبل تفكيرى ، ولم أعد أعلم ماذا أفعل ، وأخيرا قررت أن أكتب الرسالة ... فالتقطت ورقة وقلما وأنا أشعر بأعظم السرور والانفعال ، وجلست أكتب ما يلى :

« يا آنسة واطسون ، ان زنجيك الهارب جيم موجود هنا على مبعدة ميلين جنوبى «بايكسفيل» لدى مستر «فيلبس» الذى لن يتردد فى اعادته لك اذا أرسلت المكافأة اليه ــ هاكلبرى فن » .

وشعرت براحة عظيمة ، ولكن راحتى لم تستمر طويلا ... فقد عاودتنى الذكريات ... ذكريات رحلتنا الطويلة فى النهر ، ورأيت فى موكب الذكريات « جيم » المسكين يغنى ويضحك معى ونحن طافيان فوق صفحة الماء ! وتذكرت كيف كان يقود العائمة بدلا منى حتى أنعم بالراحة والنوم ... وتذكرت سعادته حينما عدت فى قلب الضباب وعند ما عدت اليه ثانية فى ذلك المستنقع حيث وقعت معركة الثأر . كما تذكرته فى مناسبات كثيرة مماثلة يناديني يا « حبيبى » ، ويدللنى ، ويفعل ما يستطيع من أجلى . وأخيرا تذكرت كيف أنقذته حينما قلت للشرطيين ان بالعائمة رجلا مريضا بالجدرى ، وكيف أعرب لى عن عميق شكره قائلا اننى أفضل صديق عرفه فى حياته ، واننى الصديق الوحيد الذى بقى له ... وعندئذ حانت منى التفاتة فرأيت الورقة التى كتبت عليها الرسالة !

كان موقفا حرجا ، فالتقطت الورقة وظللت ممسكا بها فى يدى وأنا أرتعش ... كنت مضطرا الى أن اختار ــ والى الأبد ــ بين

أمرين ... وكنت أعرف سلفا القرار الذى سأتخذه ؛ ولكننى مضيت أفكر وأنا أحبس أنفاسى ، ثم لم ألبث ان قلت لنفسى :

ـ لن أبعث بالرسالة !! ... لن يعود « جيم » رقيقا كما كان !!

ثم مزقت الورقة .

وأخذت أفكر فى وسيلة أحرر بها «جيم» المسكين ... وطافت بذهنى أفكار كثيرة . وأخيرا استطعت أن أرسم خطة تلائمنى . وعلى الفور قررت الذهاب الى جزيرة كثيفة الأشجار فى الجانب الجنوبى من النهر . وفى هدأة الليل ، مضيت الى الجزيرة وعند ما بلغتها أخفيت العائمة هناك ، ثم قضيت الليل نائما ، واستيقظت مع الفجر فتناولت طعام افطارى وارتديت أفخر مالدى من ثياب . وحزمت أمتعتى القليلة ، ثم ركبت القارب ومضيت الى الشاطىء، حيث نزلت فى بقعة رجحت انها مزرعة « فيلبس » ، ثم أخفيت حزمتى فى الغابة ، وملأت القارب بالصخور حتى غطس الى القاع فى مكان أستطيع العثور عليه فيه عند ما تدعو الضرورة الى ذلك !

ثم مضيت فى الطريق . وعند ما مررت بمصنع أخشاب مستر « فيلبس » رأيت لافتة فوقه تحمل كلمات « مصنع فيلبس لنشر الأخشاب » فلما أشرفت على منازل المزرعة على مسيرة مائتى أو ثلثمائة ياردة أخرى ، حرصت على مراقبة الطريق بدقة ، ولكنى لم أر أحدا ، رغم ان النهار كان قد تقدم . ثم انطلقت الى المدينة رأسا . وكان « الدوق » أول رجل صادفته عند ما وصلت الى المدينة ... كان يلصق اعلانا عن التمثيلية الملكية معلنا تمثيلها ثلاث ليال ، كما حدث فى المرة السابقة ... فيالصفاقة هذين المحتالين الدعيين ! ولم أستطع التراجع أو الانسحاب ، أما هو ، فقد بدت عليه الدهشة وقال :

ـ من أين جئت ؟

ثم أردف بلهجة تنم عن لهفة شديدة : أين العائمة ؟ هل أخفيتها في مكان آمن ؟

فأجبت : هذا هو السؤال الذى كنت سألقيه على سعادتكم .

فاختفى الفرح من فوق صفحة وجهه وقال : ماذا ؟ !

فقلت : عند ما رأيت « الملك » فى تلك الحانة أمس ، أيقنت انه مخمور وأنه لا يستطيع أن يسير على قدميه واننا لن نستطيع العودة به الى العائمة قبل عدة ساعات ، فأخذت أتسكع فىالمدينة ، وصادفنى رجل وعرض على عشرة سنتات مقابل مساعدتى له فى جذب قارب الىالنهر ثم اعادته لنقل شاة ، فمضيت معه ، وما ان جذب الشاة الى القارب تاركا لى زمام الحبل الذى يشدها حتى جذبت الشاة الحبل بقوة لم أستطع مقاومتها ، وانطلقت تعدو فاضطررنا الى مطاردتها ، ولما لم يكن معنا كلب ، فقد اضطررنا الى مطاردة الشاة فى جميع أرجاء المدينة حتى تملكها الاعياء ، ولم نستطع الامساك بها الا بعد وقت طويل . . . ثم ذهبت الىالعائمة، فلما بلغت المكان الذى تركناها فيه لم أجد لها أثرا ، فقلت لنفسى « لعل بعض المتاعب واجهتهم فاضطروا للرحيل ، ولكنهم أخذوا جيم ، الزنجى الوحيد الذى بقى لى فى هذا العالم ، وها أنذا فى بلد غريب ، وجلست أبكى ثم نمت فى الغابة طوال الليل . . . والآن ماذا حدث للعائمة ؟ ولجيم . . . جيم المسكين ؟ »

فقال الدوق :

ـ لست أدرى . . . ما الذى حدث للعائمة ؟ أن صديقى الكهل كسب أربعين دولارا أنفقها فىالحانة ! وعندما عدنا الى مكان العائمة فى ساعة متأخرة منالليل تبين لنا أن العائمة قد اختفت ، فظن كل واحد منا انك سرقت العائمة وتنكرت لنا ! ! وعندما ضاع كل أمل فى العثور على العائمة ، لم نجد مفرا من اعادة تمثيل المسرحية

الملكية . . . ومنذ ذلك الحين لم أتذوق طعاماً . . . هات السنتات العشرة التى معك . . . هاتها . .

وكانت معى نقود كثيرة فأعطيته عشرة سنتات توسلت اليه أن ينفقها فى شراء الطعام وأن يعطينى بعضه ، بحجة أن هذا المبلغ هو كل ما أملك واننى لم أتناول طعاما منذ أمس .

ثم قال « الدوق » فجأة :

ــ هل تعتقد أن ذلك الزنجى سيشى بنا ؟ سوف نسلخ جلده اذا فعل ذلك .

ــ وكيف يستطيع أن يشى بكما ؟ ألم يهرب ؟

ــ كلا . . . ان صديقى الكهل الأحمق باعه ولم يقاسمنى ثمنه ، وبدد النقود فى الحانة ! !

فقلت : باعه ! ! . . باع « جيم » ؟ ؟!

ثم انفجرت باكيا وصحت : كيف يبيع « جيم » ؟ . . . ان « جيم » ملك لى . . . أريد « جيم » !

ــ لا تصرخ يا غلام . . . لن تستطيع الحصول عليه . . . حذار أن تفضح أمرنا أو تشى بنا ؟ الحق اننى لا أثق بك ، لكن اذا سولت لك نفسك الوشاية بنا . . .

وكف عن متابعة الحديث وانطلقت من عينيه نظرات وحشية ، فقلت له :

ــ لست أريد أن أشى بأحد . . . وليس عندى من الوقت ما أنفقه فى الوشاية بأحد ؛ فاننى مضطر الى البحث عن « جيم » .

فبدا عليه القلق ووقف فى مكانه والاعلانات تتأرجح فوق ذراعه ، وراح يفكر وهو مقطب الحاجبين .

وأخيرا قال : سأقول لك شيئا ــ اننا مضطرون للبقاء هنا ثلاثة أيام ، فاذا وعدتنى بألا تشى بنا ، وألا تدع الزنجى يشى بنا ، فسأقول لك أين تعثر عليه .

فوعدته بذلك ... فقال :

ــ ان فلاحا اسمه سيلاس قد ...

وكف «الدوق» عن الكلام ... كان قد شرع يقص على الحقيقة ولكنه حين كف عن الكلام على هذا النحو أيقنت انه عدل عن رأيه ! لم يكن الرجل يثق بى ، وكان يريد أن يتأكد من ابعادى عن طريقهما طوال الأيام الثلاثة فقال :

ــ ان الرجل الذى اشتراه يدعى « ابرام فوستر » ــ ابرام . ج . فوستر وهو يقيم على مسافة اربعين ميلا جنوبى هذه القرية على طريق لافايت .

فقلت : فى استطاعتى أن أقطع هذه المسافة سيرا على الاقدام فى ثلاثة أيام ... وسأبدأ رحلتى بعد ظهر اليوم .

ــ لا ... ابدأ رحلتك الآن ، واياك واضاعة الوقت ، أو التسكع فى الطريق ... وحذار من التحدث مع أحد . امسك لسانك وامض فى رحلتك حتى تأمن الوقوع فى مشاكل معنا ... هل سمعت ؟ ...

وكان هذا هو كل ما أريد ... كنت أريد أن يتركنى وشأنى لأنفذ خطتى ...

قال : هلم انصرف ... فى استطاعتك أن تقول لمستر فوستر ما تشاء ، فقد تستطيع أن تجعله يصدق ان جيم زنجيك ــ فان البلهاء لا يطالبون برؤية الوثائق ، وخصوصا أهل الجنوب ... ولعله يصدقك اذا قلت له ان الاعلان عن المكافأة مزيف ... اذهب الآن وقل له ما تشاء ، ولكن حذار أن تفتح فمك بكلمة واحدة وأنت فى طريقك الى هناك !

وانصرفت قاصدا الى الجنوب ، ولم ألتفت حولى لأننى كنت أشعر بأن الدوق يراقبنى ... ومضيت فى سبيلى قرابة ميل

قبل أن أكف عن السير . ثم عدت من حيث أتيت مخترقا الغابة فى طريقى الى مزرعة « فيلبس » ، فقد رأيت أن من الأفضل أن أنفذ خطتى بلا ابطاء حتى أقنع « جيم » بأن يمسك لسانه ريثما يتمكن هذان الرجلان من الرحيل ، حتى أتجنب اثارة أية متاعب معهما ، فقد ضقت ذرعا برؤيتهما ، وكنت أشد ما أكون لهفة على التخلص منهما .

الفصل الثانى والثلاثون

هدوء شبيه بهدوء يوم الأحد ــ خطأ في معرفة الشخصية ــ موقف حرج

عند ما بلغت المزرعة ، كان كل شيء هادئا هدوء يوم الأحد ، وكان اليوم حارا والشمس ساطعة . وكان طنين الذباب يملأ الهواء فيزيد من وحشة المكان وكأنما مات جميع سكان المنطقة . فاذا هبت نسمة من هواء وداعبت أوراق الشجر ، جعلتك تحس بالحزن وتشعر كأن أرواح أشخاص ماتوا منذ أعوام طويلة تهمس حولك وتتحدث عنك !

كانت مزرعة « فيلبس » من مزارع القطن الصغيرة الكثيرة التى تشبه بعضها البعض ... فهناك سياج من القضبان حول ساحة سعتها فدانان ، ودرج مصنوع من كتل خشبية منشورة تستعمل فى تسلق السياج ، كما تقف النساء فوقها حينما يحاولن الوثوب فوق ظهور الجياد ... وكان فى الساحة الكبيرة منزلان كبيران لسكنى القوم البيض ، وهما مصنوعان من كتل خشبية منحوتة بها شقوق سدت بالملاط وطليت بالجير . وكان المطبخ الخشبى المستدير عبارة عن مبنى كبير يصله بالمنزل دهليز واسع مكشوف من الجانبين ولكنه مسقوف . وكان هناك ثلاثة أكواخ متجاورة

للزنوج ، مصنوعة من الكتل الخشبية أيضا على الجانب الآخر من المطبخ ... كما كان هناك كوخ صغير مستقل مشيد عند مؤخرة السياج وبعض أبنية أخرى مشيدة فوق قطعة من الأرض على الجانب الآخر من السياج ؛ أحدهما مخزن للخشب والآخر به جهاز لصنع الصابون ... ورأيت كلبا نائما فى الشمس ؛ وكلابا أخرى نائمة فى أماكن متفرقة تحت ظل ثلاث أشجار بعيدة عن ركن السياج ... وكانت هناك حديقة ، ورقعة من الأرض مزروعة بطيخا ، وبعدهما تبدأ حقول القطن ... وبعد الحقول توجد الغابة .

ودرت حول السياج ، وتسلقت الدرج الخلفى المجاور لمخزن الخشب ، ثم انطلقت نحوالمطبخ . وعندما قطعت مسافة قصيرة ، سمعت طنين مغزل آلى رتيب . ومضيت فى طريقى تاركا للقدر توجيهى ! وعند ما قطعت نصف المسافة الى المطبخ ، أقبل أول كلب ، ثم أقبل كلب آخر ، وتحفز كلاهما ، فاضطررت الى الوقوف ومواجهتهما بالطبع ، وبقيت جامدا فى مكانى ، وكان الكلبان يزمجران بشكل مخيف ، وبعد لحظات ألفيتنى وسط حلقة تتكون من خمسة عشر كلبا مدت أذيالها وأنوفها نحوى، وانطلقت تعوى وتزمجر ، ثم لم ألبث أن رأيت مزيدا من الكلاب فى طريقها الى . وأقبلت زنجية مهرولة من المطبخ وهى تحمل عصا وصاحت : « انصرفوا . . انصرف يا «نايج» وأنت يا «سبوت» .

وهوت على أولهما ، ثم على الثانى بعصاها ، فانسحبا وهما يصرخان ، وأعقبهما الجميع ، وفى اللحظة التالية كان نصف الكلاب قد انسحب ، ثم عاد البعض يهز ذيله ويلتف حولى محاولا أن يبدى صداقته لى . . والحق أن الكلب حيوان أليف غير مؤذ .

وخلف المرأة جاءت فتاة زنجية صغيرة وغلامان زنجيان لا يرتديان شيئا سوى قمصان من الكتان المغزول ، وتشبثوا

جميعا بثوب أمهم ، وأخذوا يختلسون النظر الى فى خجل كما يفعل الزنوج . ثم جاءت امرأة بيضاء اللون فى الخامسة والأربعين أو الخمسين من عمرها .. جاءت تركض من داخل المنزل ، عارية الرأس ، حاملة عصا الغزل فى يدها . وأقبل وراءها أطفالها الصفار البيض .. وكانت المرأة تبتسم لى .. كانت الفرحة تنطلق من عينيها .. ثم قالت :

ــ آه ، أهذا أنت أخيرا ، أليس كذلك ؟

وقبل أن أفكر فى الأمر ، قلت : « نعم يا سيدتى » .

فجذبتنى اليها واحتضنتنى بشدة ، ثم أمسكت بيدى وأخذت تهزهما . واغرورقت عيناها بالدموع ، ثم انحدرت الدموع من عينيها . ثم قالت :

ــ انك لا تشبه أمك الى الحد الذى تخيلته .. رباه ، كم أحب أمك .. اننى مسرورة .. أريد أن التهمك التهاما .

ونظرت الى أطفالها ثم قالت : « ها هو ابن عمكم توم ... قولوا له : كيف حالك ؟

ولكن الأطفال اشرأبوا بأعناقهم ووضعوا أصابعهم فى أفواههم ثم اختبأوا خلفها ، فقالت :

ــ هيا يا ليزا ، أعدى له افطارا ساخنا بلا ابطاء .. أم هل تناولت طعام افطارك على الباخرة ؟

فقلت لها اننى تناولته على الباخرة ، وعندئذ قادتنى من يدى الى المنزل والأطفال يسيرون خلفها . وعند ما بلغناه ، أجلستنى فوق مقعد ذى قاعدة محطمة ، وجلست فوق مقعد منخفض قبالتى وقد أمسكت بكلتا يدى وقالت :

ــ أستطيع الآن أن أتأملك جيدا .. يا الهى .. كم كنت تواقة لرؤيتك طوال هذه السنين .. وها قد تحققت أمنيتى أخيرا ..

لقد كنا نتوقع قدومك منذ يومين أو أكثر .. ماذا أعاقك ؟ هل اضطررتم للارساء ؟

ــ نعم يا سيدتى .. انها ...

ــ لا تقل نعم يا سيدتى .. قل يا « خالتى سالى » .. أين وصلتم ؟

ولم أدر بماذا أجيب لأننى لم أكن أعلم أكانت الباخرة قادمة من جنوب النهر أو من شماله ، فقلت :

ــ لم نضطر للرسو فى مكان معين .. فقد انفجر « صمام » من صمامات الباخرة !

ــ يا الهى ، وهل أصيب أحد ؟

ــ لا يا سيدتى .. فقط قتل زنجى من الزنوج !..

ــ الحمد لله .. فعند ما ينفجر صمام من الصمامات يصاب أشخاص كثيرون .. فمنذ عامين وفى عيد الميلاد ، كان عمك سيلاس قادما من نيواورليانز على الباخرة « لالى روك » ، فانفجر أحد صماماتها وأصاب رجلا .. وأظن أن هذا الرجل مات بعد ذلك .. نعم لقد مات .. أصيب بنزيف حاد واضطروا الى بتر أحد أطرافه ولكن ذلك لم ينقذه .. نعم كان نزيفا شديدا ، ولقد تسمم الرجل فازرق لون جسمه كله ومات ، وسمعت أن منظره كان مخيفا .. ان عمك يذهب الى المدينة كل يوم للبحث عنك ، وقد ذهب اليها اليوم أيضا منذ أقل من ساعة ، وسيعود حتما فى أية لحظة الآن . لا شك أنك صادفته فى الطريق .. أليس كذلك ؟ انه كهل له ...

ــ لا ... لم أر أحدا يا خالتى سالى ، فقد رست الباخرة عند الفجر ، فتركت أمتعتى عند مرسى القوارب وتجولت فى المدينة وضواحيها حتى لا آتى الى هنا فى ساعة مبكرة ؛ ولهذا جئت عن طريق جانبى .

ـ عند من تركت أمتعتك ؟
ـ لم أتركها عند أحد .
ـ كيف أيها الطفل ؟.. ستسرق الأمتعة .
ـ لا لن يسرقها أحد من المكان الذى أخفيتها فيه .
فقالت : اذن كيف تناولت طعام افطارك على الباخرة فى مثل هذا الوقت المبكر ؟

وأدركت اننى وقعت فى مأزق فأسرعت أقول :
ـ رآنى الربان أتسكع على سطح الباخرة فقال لى أنه يحسن بى أن أتناول شيئا من الطعام قبل أن أهبط الى البر ، ورافقنى الى المطعم وقدم لى طعاما .

وبدأت أشعر بالقلق ، حتى لقد صرفنى ذلك عن الاصغاء الى محدثتى ... كنت أفكر فى وسيلة استدرج بها الأطفال الى الحديث حتى أعلم من أنا ! !
ثم قالت السيدة :
ـ ولكن ما لنا ولهذا الحديث .. انك لم تقل لى كلمة واحدة عن أختى أو عن أى فرد من أفراد الأسرة .. سأكف عن الكلام الآن لتتحدث أنت ، حدثنى عن كل شيء.. حدثنى عنهم جميعا ، كل واحد منهم .. كيف حالهم وماذا يعملون ، وماذا طلبوا منك أن تبلغه لى ؟

وأدركت أننى وقعت فى مأزق خطير .. لقد شد القدر ازرى حتى هذه اللحظة ، ولكنه تخلى عنى أخيرا ، وتركنى .. وخيل الى ألا جدوى من المداورة ، فقلت لنفسى : « انه موقف حرج لا مخرج منه الا بذكر الحقيقة » .. وفتحت فمى لأتكلم ، ولكنها جذبتنى ودفعتنى خلف الفراش وهى تقول :
ـ ها هو قد جاء .. اخفض رأسك حتى لا يراك ... نعم ، هكذا ... انه لا يستطيع أن يراك الآن فلا تكشف عن وجودك

هنا ، فانني أريد مداعبته .. وأنتم أيها الأطفال ، حذار أن تقولوا كلمة واحدة .

واستطعت أن ألمح الكهل عند دخوله .. ثم حجبه الفراش عن عيني .. وقامت السيدة لاستقباله قائلة :

ـ هل أتى ؟

فأجاب زوجها :

ـ لا .

فقالت : ياالهي .. ماذا بحق السماء يمكن أن يكون قد حدث له ؟

فقال الكهل : لست أدري .. الحق انني شديد القلق .

فقالت : قلق ، انني أكاد أفقد عقلي .. لابد انه جاء ولكنك أخطأته في الطريق .. انني واثقة من ذلك ، فان قلبي يحدثني به .

ـ ما هذا يا « سالى » ؟ من المستحيل أن أخطىء رؤيته على الطريق ، وأنت تعلمين ذلك .

ـ ماذا تقول أختي ؟ لا ريب انه وصل وأنك أخطأته ..

ـ الواقع انني قلق .. « سالى » ، ان الموقف خطير .. لابد أن شيئا ما حدث بالباخرة .

ـ ما هذا يا سيلاس ؟ أنظر هناك الى الطريق .. ألا ترى شخصا قادما ؟

ووثب الكهل نحو النافذة عند رأس الفراش ، وبذلك أتاح لزوجته الفرصة التي تنشدها .. فقد مالت الى الأمام بسرعة وجذبتني من خلف الفراش . وعندما استدار الرجل بعد أن تطلع عبر النافذة ، وجد زوجته تبتسم ، بينما كنت أقف بجوارها والعرق يتصبب مني .. فحدق الكهل في وجهي وهتف :

ـ من هذا ؟

ـ من تظنه ؟

ـ لست أدري ... من هو ؟

ــ انه « توم سوير » !.. ابن أختى « توم سوير » !!

وكدت أسقط على الأرض ، ولكن الوقت لم يتسع لذلك ! فقد جذبنى الكهل اليه وأخذ يهز يدى . أما زوجته ، فكانت ترقص طربا وتضحك وتبكى فى وقت واحد .. ثم راح الاثنان يمطراننى ببوابل من الأسئلة عن « سيدنى » و « مارى » وشتى أفراد أسرة « توم سوير » !!

واذا كان الزوجان قد استخفهما الطرب ، فاننى لم أكن أقل طربا منهما . فقد شعرت بأننى ولدت من جديد ... كنت أشد ما أكون سرورا لأننى عرفت من أنا !! ورحت أحدثهما عن أسرتى ــ أعنى أسرة « توم سوير » وأسهبت فى الحديث ثم شرحت لهما كيف انفجر أحد صمامات الباخرة عند مدخل نهر هوايت، وكيف استغرق اصلاحها ثلاثة أيام ، استأنفت بعدها رحلتها !!

وكنت نهبا لعواطف متضاربة ... أشعر بالطمأنينة حينا وبالخوف أحيانا. فعلى الرغم من أن تقمصى لشخصية «توم سوير» كان أمرا يبعث على الطمأنينة ، فاننى ارتعشت عند ما سمعت صوت باخرة تسير فى النهر ، فقلت لنفسى « لنفرض أن توم سوير جاء على هذه الباخرة ؟ ولنفرض انه جاء الى هنا فى أية لحظة ونطق باسمى قبل أن أفلح فى حمله على الصمت !! » . وأخيرا قررت أن اتربص له فى الطريق لأروى له حقيقة ما حدث ... وقلت للزوجين اننى سأذهب لاحضار أمتعتى من المدينة ، فقال الكهل انه سيأتى معى ، ولكنى رفضت قائلا اننى أستطيع قيادة الجواد بنفسى واننى أفضل ألا يزعج الرجل نفسه من أجلى ! ...

ثم خرجت أبحث عن « توم سوير » !!

الفصل الثالث والثلاثون

سـارق الزنجي ـ كـرم أهـل الجنوب ـ القـار المزركش بالريش

بدأت رحلتى الى المدينة مستقلا المركبة التى يجرها الجواد . وعند ما وصلت الى منتصف الطريق رأيت مركبة مقبلة ، وكان « توم سوير » أحد ركابها ، وناديت « توم سـوير » فنزل من المركبة ، وعند ما رآنى فتح فمه كالأبله وازدرد لعابه مرتين أو ثلاث مرات شأن انسان جف حلقه . ثم قال :

ــ اننى لم أسىء اليك يا شبح « هاكلبرى فن » ... وأنت تعلم ذلك ... فلماذا تلاحقنى وتطاردنى ؟

فقلت : اننى لست شبح « هاكلبرى فن » ... اننى « هاك » نفسـه !

وعند ما سمع « توم » صوتى اطمأن قليلا ، ولكنـه لم يكن مطمئنا تماما ، فقال :

ــ لا تخدعنى لاننى لن أخدعك ... أخبرنى بأمانة ... الست شبحا ؟

ــ الحق اننى لست شبحا .

ــ اننى ... اننى ... اننى لا أفهم شيئا ... اصغ الى ... الم تمت ؟ ألم تقتل ؟

ـ كلا ... لم أقتل ... تعال تحسسنى ان كنت لا تصدقنى فتحسسنى . وعندئذ اطمأن قلبه وتهللت أساريره ... لقد كان يظن كما ظن الجميع أننى قتلت ، ولهذا استبد به الفرح حينما وجدنى حيا ، فقد أدرك ان فى الأمر مغامرة ! ... وطلب منى أن أشرح له كل شيء عن تلك المغامرة الغامضة التى أثارت ضجة كبرى فى مدينتنا ؛ فطلبت الى سائق المركبة أن ينتظر قليلا ريثما يعود اليه « توم » ... وابتعدنا عن المركبة ، ورحت أروى لصديقى « توم » ما حدث . ثم طلبت اليه أن يبحث عن مخرج من « الورطة » التى وقعت فيها ... ففكر هنيهة ثم قال :

ـ لقد وجدت الحل ... خذ حقيبتى فى مركبتك وتظاهر بأنها حقيبتك ، ثم عد الى المزرعة ببطء حتى تصل اليها فى الوقت الذى كان ينبغى أن تصل فيه ... أما أنا ، فسأعود الى المدينة ثم ألحق بك فى المزرعة بعد وصولك اليها بنصف ساعة تقريبا ... وعند ما أصل الى منزل مستر « فيلبس » ، حذار أن تسلك سلوكا يدل على انك تعرفنى !

فقلت له : سأفعل ما تريد ... ولكن مهلا ... هناك أمر آخر لا يعرفه أحد سواى ... هناك زنجى أحاول أن أسرقه لأعتقه ... هذا الزنجى هو « جيم » خادم الآنسة واطسون .

فقال : ماذا تقول ؟ جيم ... انه ...

وكف عن الكلام واستغرق فى التفكير . فقلت له : أعرف ما ستقوله ... ستقول ان سرقة الزنجى عمل غير شريف .. أرجو أن تدعنى انفذ خطتى ... هل تفعل ؟

ومضت عيناه وقال : سأساعدك فى خطتك .

وشهقت ، فقد كان ذلك أعجب ما سمعت ... لم أكن أتوقع ان يشترك « توم » الأبيض فى سرقة زنجى وتحريره ! ... والحق ان « توم » سقط من نظرى ! !

فقلت : كفى دعابة ... اننى أعلم أنك لن تساعدنى !
ــ بل اننى جاد فيما أقول .
ــ سواء كنت ساخرا أمجادا ، فاننى أطلب اليك ألا تتحدث عن هذا الزنجى ... المفروض اننى .. وأنت أيضا لانعلم شيئا عنه .
ونقلنا حقيبة « توم سوير » الى مركبتى ، بينما استقل هو مركبته وعاد بها الى المدينة . أما أنا ، فقد ركبت مركبتى وقدتها الى المزرعة ... وكنت مسرورا فلم أحسب حساب الوقت الذى كان ينبغى أن تستغرقه الرحلة ... ولهـذا وصلت الى منزل مستر « فيلبس » . مبكرا ... وكان مستر « فيلبس » واقفا عند الباب فهتف :
هذا مدهش .. لقد قطع الجواد تلك الرحلة الطويلة بسرعة !.. اليس كذلك ... هذا مدهش ... مدهش ... لن أبيع هـذا الجواد ! ... لن أقبل مائة دولار ثمنا له ... لن أقبل ، مع اننى كدت أبيعه بخمسة عشر دولارا ... وياله من ثمن زهيـد كنت أعتقد ان الجواد لا يساوى أكثر منه !!
وبدت أمارات السرور على وجه مستر « فيلبس » ... لقد كان رجلا طيب القلب ... انه لم يكن مزارعا فحسب ، وانماكان واعظا أيضا ... كان يدير شئون كنيسـة صغيرة عند مؤخـرة مزرعته أنشأها على حسابه الخاص لتكون مكانا للعبادة والتعليم ... ولم يكن يتقاضى أجرا أو مكافأة على مواعظه ... والحق ان أهل الجنوب كرام ... فهنالك كثيرون مثـل مستر « فيلبس » هنـالك ! ...

***

وبعد حوالى نصف ساعة أقبلت مركبة « توم » ووقفت أمام الباب ، فرأتها الخالة « سالى » من النافذة ... فقد وقفت المركبة على مبعدة خمسين ياردة من النافذة !

ثم قالت الخالة « سالى » : ها قد جاء شخص آخر ... شد ما أعجب من يكون ؟ أكبر الظن انه غريب .

وطلبت الى أحد ابنائها أن يأمر الخادمة بأن تضع « طبقا » آخر على المائدة للضيف الجديد !

واندفع الجميع نحو الباب الخارجى ليروا الزائر الجديد ! ..

كان « توم » يرتدى أفخر ثيابه ، وكان يمشى بخطى متزنة هادئة . وعند ما وقف أمامنا ، رفع قبعته بحركة لطيفة أنيقة ثم قال :

ـ أكبر الظن أنك مستر آرشيبالد نيقولاس يا سيدى ؟

فأجاب « فيلبس » الكهل : لا يا بنى ... يؤسفنى أن أقول لك ان حوذى مركبتك خدعك ... ان مزرعة نيقولاس تبعد عن مزرعتنا بثلاثة أميال ... تفضل ... تفضل .

وتطلع « توم » إلى الوراء من فوق كتفه وقال : لقد سبق السيف العزل ، فقد اختفت المركبة .

ـ نعم ... صدقت يا بنى ... تفضل ... تناول الطعام معنا ... وسأعد لك مركبة تذهب بك الى مزرعة « نيقولاس » !

ـ اوه ... لست أريد أن أثقل عليكم ... شكرا ... شكرا ... سأقطع هذه المسافة سيرا على قدمى !

ـ ولكننا لن نسمح لك بالسير على قدميك ، فليس هذا من قواعد الضيافة عند أهل الجنوب ... تفضل ... أدخل .

وقالت الخالة سالى : اوه ، ادخل ... فان ذلك لن يسبب لنا أية مضايقة ... يجب ان تدخل ... ان الرحلة طويلة والطريق مملوء بالتراب ... ونحن لن نسمح لك بالسير على قدميك ... ولقد طلبت فعلا من الخدم أن يعدوا لك « طبقا » على المائدة بمجرد أن وقع بصرى عليك ... ادخل واعتبر نفسك فى منزلك .

وشكرهما « توم » بحرارة ولطف ، ثم دخل . وعند ما استقر

به المقام قال انه غريب من مدينة بولاية « أوهايو » وان اسمه « وليام تومبسون » .

ومضى « توم » يتحدث ويسرف فى الحديث عن « هيكسفيل » وكل انسان زعم انه يقيم هناك ، حتى بدأت أشعر بشىء من القلق، وأتساءل كيف يمكن أن ينقذنى حديثه هذا من ورطتى ! واخيرا ، وبينما هو منطلق فى الحديث ، انحنى فجأة الى الأمام وراح يقبل الخالة « سالى » فوق شفتيها ... ثم جلس فى مقعده وكأنه لم يفعل شيئا ...

أما الخالة « سالى » فقد انتصبت واقفة فى لمح البصر ، ومسحت شفتيها بظهر يدها وصاحت :

ـ أيها الجرو الجرىء ... لماذا قبلتني هكذا ؟ ... ماذا تعنى؟

ـ لا أعنى شيئا يا سيدتى ... لم أقصد الاساءة اليك ... لقد ظننت أن ذلك سيعجبك ويرضيك .

فقالت وهى تلتقط عصا المغزل : أيها الغبى الأحمق . ما الذى جعلك تظن ان تقبيلك اياى سيعجبنى ؟

ـ لست أدرى ... لقد قالوا لى ذلك...كلهم قالوا لى ذلك.

ـ قالوا لك ذلك ؟ ان من قال لك ذلك مجنون ... يا لله ... اننى لم أسمع مثل هذا السخف من قبل ... ولكن من هم أولئك الذين قالوا لك ذلك ؟

ـ الجميع ... الجميع قالوا ذلك يا سيدتى .

وحاولت المرأة أن تتمالك أعصابها ولكنها لم تستطع ... لقد التمعت عيناها ببريق الغضب وأخذت أصابعها تتحرك بتشنج كما لو كانت تتحفز لتنشب أظفارها فى عنقه وقالت : من هم « الجميع » ؟ ... اذكر لى أسماؤهم والا قتلتك !

فنهض « توم » واقفا وقد ارتسم الجزع على وجهه ، وأخذ يبحث عن قبعته ، ثم قال :

ـ انى آسف ... لم أكن أتوقع ذلك ... لقد طلبوا منى أن أقبلك ... قالوا لى : قبلها ... قبلها ... انها ستحب هذه القبلات ... هكذا قالوا لى ... قالها كل واحد منهم ... ولكنى آسف يا سيدتى ، ولن أفعل ذلك مرة أخرى ... نعم لن أفعل ذلك مرة أخرى !

ـ لن تفعله ... أليس كذلك ؟

ـ نعم يا سيدتى ... لن أفعل ذلك الا اذا طلبت منى أن أقبلك مرة أخرى !!

ـ لن تفعل ذلك الا اذا طلبت منك أن تقبلنى ... يا لله ... اننى لم أر مثل هذه الوقاحة من قبل !

ـ ان قولك هذا يدهشنى يا سيدتى ... لقد قالوا لى انك ستبتهجين بتقبيلى اياك ... ولقد كنت أظن ذلك ... ولكن ..

وكف توم عن الكلام ، وتلفت حوله ببطء لعله يرى من يعطف عليه ، ثم تحول الى الكهل « فيلبس »وقال :

ـ ألم تكن تعتقد أنها تحب أن أقبلها يا سيدى ؟

ـ كلا ... اننى ... اننى ... لا أعتقد ذلك .

فمضى « توم » يتلفت حوله حتى وقع بصره على ، فقال :

ـ « توم » ... ألم تكن تعتقد أن الخالة « سالى » سوف تفتح ذراعيها وتقول « تعال يا سيدنى ... تعال بين أحضانى ... »

فصاحت المرأة : يا الهى ... سيدنى ! ... سيدنى !

ثم جرت نحو « توم » وهى تقول : أيها الشرير الأحمق الذى سخر من الجميع !

ثم همت باحتضانه ولكنه منعها من تقبيله قائلا :

ـ لا .. لن أسمح لك بذلك الا اذا طلبت منى أن أدعك تقبلينى .

وطلبت اليه أن تحتضنه ، ثم احتضنته وقبلته عشرات المرات

... وعند ما فرغت من تقبيله ، تلقفه الكهل « فيلبس » وراح يقبله بدوره ...

ثم قالت الخالة « سالى » :

ـ يا لها من مفاجأة لم نكن نتوقعها ... نعم لم نكن نتوقع مجيئك .. كنا نتوقع زيارة « توم » فقط .. آن أختى لم تكتب لى أن أحدا غيره سيحضر .

فقال « توم » :

ـ لا تدهشى يا سيدتى .. لقد توسلت اليها أن تسمح لى بالحضور مع « توم » فسمحت لى فى اللحظة الأخيرة .. وعندما كنت مع « توم » على ظهر الباخرة ، فكرنا فى هذه المفاجأة !.. لقد اتفقنا على أن نتظاهر بأن أحدنا لا يعرف الآخر .. ولكن يبدو أننا أخطأنا يا خالتى « سالى » ... فأنتم على ما يبدو لا تمزحون مع الغرباء !

ـ نعم ... نحن لا نمزح مع الغرباء الوقحين يا « سيدنى » .. لقد شعرت بالفزع عندما رحت تقبلنى فجأة .. كنت أحسبك غريبا كما زعمت لنا !!

* * *

وتناولنا الطعام فى الممر الفسيح المسقوف الواقع بين المطبخ والمنزل . وكانت المائدة حافلة بألوان شتى من الأطعمة تكفى لاطعام سبع عائلات ! ! .

وتحدثنا طويلا بعد أن فرغنا من تناول الطعام . وكنا نتوقع أن يتحدث أحد أفراد الأسرة عن الزنجى الهارب ، ولكن أحداً لم يقل شيئا !!. . وأخيرا ، بعد أن تناولنا طعام العشاء فى تلك الليلة ، قال أحد الصبية :

ــ أمى ، هل تسمحين لى بأن أذهب أنا و «توم» و «سبدنى» لمشاهدة « المسرحية » التى تعرض الليلة ؟

فأجاب الكهل : لاتذهبوا .. أعتقد أن هذهالمسرحية لن تعرض الليلة .. لا تذهبوا .. لقد روى لى الزنجى الهارب كل شىء عن فضائح المحتالين اللذين يعرضان المسرحية.. كذلك روى الزنجى الهارب لى ولصديقى « برتون » ما فعله هذان المحتالان فى مدن أخرى .. ولقد أقسم « برتون » بأن يفضح سرهما .. سوف يطرد هذان المحتالان من مدينتنا شر طردة !!

وأدركت على الفور أن الواقعة قد وقعت .. ادركت أن «جيم» قد فضح سر هذين المحتالين فقررت أن أعمل بسرعة قبل فوات الوقت ! !

وتظاهرنا ــ أنا وتوم ــ بعد العشاء باننا نريد أن ننام .. وذهبنا الى غرفتنا .. وبعد أن أغلقنا بابها ، تسللنا من النافذة وهبطنا من فوق السياج ، وانطلقنا صوب المدينة .. لقد كنت أريد أن أروى للمحتالين « الملك » و « الدوق » ما حدث حتى لا يقعا فى « ورطة » خطيرة ! !

وبينما نحن سائران فى الطريق أخبرنى « توم » بكل شىء عن صدى مغامرتى !.. كيف اختفى أبى بعد اختفائى مباشرة ، ولم يعد ثانية .. وكيف أثار فرار « جيم » ضجة عظيمة ،.. وكيف اعتقد الجميع اننى هلكت . وحدثت « توم » بدورى عن « الملك » و « الدوق » ، ورحلتنا فى العائمة ..

وكنا قد وصلنا الىالمدينة فىذلك الوقت وتقدمنا حتى قلبها.. وكانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف مساء .. وهناك رأينا كثيرا من الناس مقبلين نحونا وهم يحملون المشاعل .. وكانوا يصخبون ويصيحون ويدقون على بعض الأوانى النحاسية ، وينفخون فى الأبواق !.. ولذنا بمكان اختبأنا فيه .. وعندما مرت

المظاهرة الصاخبة أمامنا ، رأيناهم يحملون « الملك » و « الدوق » وقد أوثقوهما وأحكموا وثاقهما .. ولقد عرفت انهما « الملك » و « الدوق » رغم انهما كانا ملطخين بالقار المزركش بالريش .. لقد كانا أشبه بوحشين ممسوخين . وعندئذ أحسست بأن قلبى يغوص بين جنبى كما أسفت من أجل هذين التعسين ، فقد كان منظرهما مؤلما حقا !

وأخيرا أدركت أننا جئنا متأخرين ، واننا لا نستطيع أن نفعل شيئا لانقاذ هذين الرجلين التعسين .. وعندما سألنا الناس عن حقيقة ما حدث ، قالوا لنا انهم كانوا يعرفون ان الرجلين محتالان ، وانهم ذهبوا لمشاهدة العرض وهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون شيئا .. ولكن ما أن بدأ « الملك » و « الدوق » يؤديان أدوارهما على المسرح حتى أتى أحد الحاضرين باشارة متفق عليها ، فانقض جميع النظارة على المحتالين وأحكموا وثاقهما وشيعوهما بهذه المظاهرة ! !

ثم عدنا الى المنزل .. ولم أكن أشعر بالسرور .. لقد كنت حزينا من أجلهما ، رغم اننى لم أرتكب اثما أو ذنبا ! !

الفصل الرابع والثلاثون

الكوخ المجاور لمخزن الخشب ـ خطة ساذجة ـ متاعب السحر .

كنا نريد أن نعرف أين يوجد « جيم » الزنجي الذى نريد أن نحرره !.. ورحنا نفكر .. وأخيرا قال « توم » :

ـ اصغ الى يا « هاك » .. لقد كنا حمقى ، لأننا لم نفكر فى ذلك من قبل .. اننى أعرف أين يوجد جيم .

ـ أحقا ؟ أين ؟

ـ فى الكوخ المجاور لمخزن الخشب .. اصغ الى .. ألم تلاحظ ونحن نتناول طعام الغذاء أن زنجيا دخل هذا الكوخ وهو يحمل بعض العظام ؟

ـ نعم .

ـ لمن تظنه حمل هذه العظام ؟

ـ لكلب .

ـ هذا ما خطر ببالى أيضا .. ولكنه لم يكن لكلب .

ـ لماذا ؟

ـ لأن الزنجي كان يحمل أيضا قطعة من البطيخ .

ــ لقد لاحظت ذلك .. انه لأمر غريب حقا ، أننى لم أفكر فى أن الكلاب لا تأكل البطيخ .

ــ على كل حال ، لقد فتح الزنجى القفل بالمفتاح قبل أن يدخل ؛ ثم عاد فأغلقه عندما خرج منه.. ثم أعطى المفتاح للعم «سيلاس» عندما كنا نغادر المائدة بعد انتهائنا من تناول الطعام .. ولست أشك فى أن هذا المفتاح هو مفتاح باب الكوخ .. ان وجود البطيخ معناه وجود انسان فى الكوخ .. ووجود المفتاح معناه أن شخصا ما سجين فى الكوخ . ولما كان من غير المحتمل أن يكون هناك سجينان فى مزرعة صغيرة كهذه تسود فيها الألفة بين الناس ، فالأرجح أن « جيم » هو هذا السجين .

ــ ما دام الأمر كذلك ، هيا بنا نضع خطة لاطلاق سراحه .. فكر أنت فى خطة .. وسأفكر أنا فى خطة أخرى ..

يا لعقلية هذا الغلام « توم » ... انه يتمتع بعقلية ممتازة ، لو كنت أتمتع بها أنا لما نزلت عنها حتى لو جعلونى دوقا ، أو ضابطا فى باخرة أو بهلوانا فى سيرك !

ورحت أفكر فى خطة .

وبعد قليل ، قال لى « توم » :

ــ هل أنت مستعد ؟

ــ نعم .

ــ هات ما عندك .

فقلت : اليك خطتى ، ان فى استطاعتنا أن نعرف بسهولة ان كان « جيم » مسجونا فى الكوخ أم لا . فغدا ، نحضر زورقى أثناء الليل ، كما نحضر العائمة من الجزيرة .. وفى احدى الليالى المظلمة نسرق مفتاح الكوخ من « العم سيلاس » بعد نومه ، ثم نطلق سراح جيم ؛ ونستقل العائمة ، ونرحل ليلا .. أليست هذه الخطة معقولة ؟

فقال « توم » :

ـ معقولة ! ! انها خطة بسيطة لا أثر فيها لابتكار !.. ماجدوى خطة بسيطة كهذه لا غموض فيها ؟.. انها لا تثير ضجة !!..

ولم أقل شيئا لأننى لم أكن أتوقع منه غير ما قال .. ولأننى كنت أعلم أنه قد وضع خطة أفضل من خطتى !

ولقد صح ما توقعت .. وذكر لى « توم » تفصيلات خطته .. وسرعان ما تبينت انهـا خطة مثيرة مبتكرة قد تحرر « جيم » ولكنها قد تنتهى بمصرعنا جميعا ! !

وكانت خطته مثيرة حقا .. فما أن عدنا الى المنزل حتى ذهبنا الى الكوخ المجاور لمخزن الخشب لفحصه .. وسرنا عبر الساحة لنرى ما ستفعله بنا الكلاب . وعرفتنا الكلاب فلم تثر من الصخب أكثر مما تثيره كلاب الريف كلما مر عابر سبيل.. وعندما وصلنا الى الكوخ ألقينا نظرة على واجهته وجانبيه ، ثم على الجانب الذى لم أكن أعرف شيئا عنه .. أى الجانب الشمالى الذى كانت توجد به نافذة مربعة عالية ، فى منتصفها لوح عريض من الخشب مثبت بالمسامير .

فقلت : آه .. ان هذه النـافذة كبيرة الى درجة يستطيع « جيم » معها أن يتسلل منها اذا انتزعنا اللوح الخشبى .

فقال « توم » : ان هذه الخطة بسيطة غاية البساطة ، وسهلة غاية السهولة.. نريد خطة أكثر تعقيدا من هذه يا «هاكلبرى» !.

فقلت له : اذن نأتى بمنشار « ننشر » به أحد الجوانب ونخرج « جيم » منه .. فهذا هو ما فعلتـه أنا حينما حبسـنى ابى فى الكوخ الخشبى !

فقال : هذه الخطة أكثر غموضا بعض الشىء .. ولكننى أريد خطة أخرى مثيرة .. لا تتعجل .. دعنا نفكر فى خطة اخرى ! !

ثم أسرعنا عائدين الى المنزل فدخلناه من الباب الخلفى ! وذهبنا الى غرفتنا واستغرقنا فى النوم .

واستيقظنا مع الفجر .. فذهبنا الى أكواخ الزنوج لنداعب الكلاب ونتودد الى الزنجى الذى يطعم « جيم » ـ اذا صح أن « جيم » كان سجيننا فى هذا الكوخ ـ وكان الزنوج قد فرغوا من تناول طعامهم فى تلك الآونة وتهيأوا للذهاب الى الحقول . أما الزنجى الذى اعتقدنا انه هو الذى يطعم « جيم » ، فقد كان يوشك أن يحمل « طبقا » كبيراً به خبز ولحم وأطعمة أخرى .

كان هذا الزنجى لطيف المعشر ، ضاحك الوجه .. وكان ثوبه كله مملوءا بعقد صغيرة من الخيط الرفيع لكى تطرد السحر عنه ! فقد كان يقول دائما ان السحرة يطاردونه ويضايقونه ، حتى بات يرى أشياء غريبة ويسمع كلمات وضوضاء لم يسبق له بها عهد فى حياته ! وكثيرا ما حدثنا عن متاعبه ومشاكله وما جره عليه السحر من وبال .

وقال له « توم » :

ـ لمن هذا الطعام ؟ هل ستطعم الكلاب ؟

فابتسم الزنجى .. وقال :

ـ نعم أيها السيد « سيدنى » .. سأطعم كلبا ، ولكنه كلب عجيب أيضا .. هل تحب أن تراه ؟

ـ نعم .

وقرصت « توم » ، وهمست : هل سنذهب فى وضح النهار ؟ ليست هذه هى الخطة التى اتفقنا عليها .

ـ انها خطة جديدة !

وذهبنا مع الزنجى ، ولكنى لم أكن مرتاحا لذلك .. وعند ما دخلنا لم نستطع أن نتبين شيئا .. فقد كان الظلام يلف الكوخ

كله .. ولكنى رأيت «جيم» هناك ... وكان فى استطاعة «جيم» أن يرانا فهتف قائلا :

ـ يا الهى ، هذا « هاك » .. أليس هذا هو مستر « توم » ؟

وكنت أعلم أن شيئا كهذا سيحدث فلم أدر ماذا أفعل ... فقد قال الزنجى الحارس :

ـ يا للسماء ! هل تعرف هذين السيدين يا « جيم » ؟

وتطلع « توم » الى الزنجى الحارس بنظرة ثاقبة وقال له :

ـ عمن تتحدث ؟ من الشخص الذى تعنيه بحديثك هذا ؟

ـ الزنجى الهارب .

ـ انه لا يعرفنا .. ولكن ما الذى جعلك تعتقد انه يعرفنا ؟

ـ ما الذى جعلنى أعتقد ذلك ؟ ألم يقل الزنجى الآن ما يوحى بانه يعرفكما ؟

ـ وهل تحدث الزنجى الهارب ؟ ومتى سمعته يتكلم ؟ وماذا قال ؟

ثم نظر «توم» الى حيث أقف وقال : هل سمعت احدا يتكلم ؟ بالطبع لم يكن هنا ما يقال غير شىء واحد ، فقلت :

ـ لا .. لم أسمع أحدا يقول شيئا .

ثم نظر « توم » الى « جيم » وهو يتظاهر بانه يراه للمرة الأولى .. وقال له :

ـ هل تكلمت ؟

فقال « جيم » : لا يا سيدى .. لم أقل شيئا .

ـ ألم تنطق باية كلمة ؟

ـ لا .. لم انطق باية كلمة يا سيدى .

ـ هل سبق لك أن رايتنا من قبل ؟

ـ لا يا سيدى .. لا اتذكر أننى رأيتكما من قبل ..

وعندئذ تحول « توم » الى الزنجى الحارس الذى كان بادى الجزع والحيرة وقال له برفق :

ـ ماذا دهاك ؟ ما الذى جعلك تظن أن شخصا قد تكلم ؟

ـ أوه .. انه السحر اللعين يا سيدى .. ليتنى أموت حتى أستريح من هذا العناء .. انه يزعجنى دائما على هذا النحو يا سيدى ، ويكاد يقتلنى .. انه يفزعنى .. أرجو ألا تقولا شيئا لأحد يا سيدى والا أساء الى السيد سيلاس .. فهو يقول دائما انه ليس هناك سحر ولا سحرة ! !

وأعطاه توم قطعة من النقود ووعده بأننا لن نذكر لأحد شيئا عما حدث .. ثم نصح « توم » الزنجى الحارس بأن يشترى مزيدا من الخيط يصنع منه مزيدا من العقد .. ثم تطلع الى « جيم » وقال له .

ـ الحق انه زنجى ناكر للجميل !!.. ترى ماذا سيفعل به « العم سيلاس » !.. ليته يشنقه !.. فلو اننى قبضت على زنجى ناكر للجميل كهذا الزنجى الهارب لما ترددت فى شنقه ! !

وبينما كان الزنجى يخرج من الباب ليتأمل قطعة النقود ويعضها ليستوثق من انها ليست زائفة ، همس « توم » قائلا لجيم :

ـ تظاهر بانك لا تعرفنا .. واذا سمعت صوت معول يحفر الأرض بالقرب من الكوخ ، لا تجزع .. فسوف نحفر «سردابا» نحررك عن طريقه ! !

وضغط « جيم » على يدينا اعرابا عن شكره .. وفى تلك اللحظة عاد الزنجى الحارس ، فقلنا له اننا نريد أن نأتى معه الى الكوخ كلما ذهب اليه ، اذا سمح لنا بذلك ، فقال انه يود ذلك وخاصة فى الليالى المظلمة ، لأن السحرة لاينشطون الا فى الظلام .. ولأنه يريد أن يرافقه أحد حتى لا يدهمه السحر وهو وحيد ! !

الفصل الخامس والثلاثون

خطة الهرب ـ خطط منظمة ـ الخندق والسرداب !

كان « توم » يريد أن يجعل من تحرير « جيم » الزنجى مغامرة مثيرة .. وفكر فى أكثر من خطة ولكنه لم يرض عن واحدة منها .. كان يقول كلما بحثنا احدى الخطط :

ـ يا الهى .. انها خطة غير مثيرة .. فليس هناك حارس نخدره !.. وليس هناك كلب نقدم له جرعة منومة !.. ان « جيم » ليس سجينا بمعنى الكلمة .. فالقيد الحديدى الذى غللوه به مثبت بأحد قوائم الفراش الحديدى الذى ينام عليه ،

فاذا ما رفع الفراش وقع القيد .. وعدا ذلك ، فان « العم سيلاس » يأتمن الحارس الزنجى على مفتاح الكوخ ، ولا يرسل فى أثر هذا الحارس شخصا آخر يراقبه !.. كذلك يستطيع « جيم » أن يهرب من الكوخ عن طريق النافذة متى شاء !.. الحق ان هذا الكوخ ليس سجنا !.. ولذلك يجب علينا أن نخلق مزيدا من الصعاب حتى يصبح تحرير « جيم » مغامرة تستحق القيام بها .. هلم بنا نبحث عن شىء نصنع منه منشارا !

ـ ولماذا تريد أن نصنع منشارا ؟

ـ لماذا نريده ؟!.. ألسنا مضطرين الى « نشر » قائم فراش « جيم » حتى نخلصه من القيد الحديدى ؟

ـ ولكنك قلت منذ لحظة أن رفع الفراش يكفى لوقوع القيد الحديدى على الأرض !

ـ يا لك من غبى يا « هاك » .. انك تريد تحرير « جيم » بسهولة !.. ألم تقرأ الكتب التى تروى قصص المغامرات ... مغامرات السجناء الذين هربوا من السجون ؟. ان السجين الذى يريد أن يهرب يفعل الأعاجيب !.. انه « ينشر » قوائم الفراش ويبتلع « النشارة » الحديدية حتى لا يبقى لها أثر !.. ويصنع سلما من الحبال يستخدمه فى التسلق والهبوط !.. ويتفق مع رجال أشداء ينتظرونه فى الظلام ليضعوه فوق جواد ينطلق به بعيدا على أثر هروبه !.. ولهذا يجب أن نحصل على منشار ، وأن نصنع سلما من الحبال ! كذلك يجب أن نحفر خندقا حول الكوخ !

ـ ولماذا نحفر خندقا حول الكوخ ما دمنا نستطيع أن نحرر « جيم » عن طريق سرداب ضيق ؟

ـ انها مغامرة يا صديقى ! فلنجعلها مغامرة بمعنى الكلمة ... والآن كيف نصنع سلما من الحبال يستخدمه « جيم » أثناء هروبه؟

ـ ولماذا نحتاج لمثل هذا السلم ؟

ـ اننا نحتاج لسلم من الحبال ، لأن جميع السجناء الذين تحدثت عنهم كتب المغامرات استخدموا سلما من الحبال !

ـ ولكن « جيم » لا يحتاج الى سلم من الحبال ! .. ألم نتفق على حفر سرداب يخرج من الكوخ عن طريقه ؟

ـ ومع ذلك ، فاننا نحتاج الى سلم من الحبال ! .. وفى مقدورنا أن نمزق اغطية فراشنا لنصنع منها سلما نرسله لجيم داخل

« فطـيرة » ! ... فهذه هى الطريقـة التى تحدثت عنها كتب المغـامرات .

ـ ولماذا كل هذا التعقيد يا « توم » ؟

ـ انك تجهل كل شيء عن المغامرات يا « هاك » ... اننا نريد أن نضع خطة منظمة ... وخير لك ان تقرأ كتب المغامرات قبل أن تتحدث .

ـ ما دام هذا هو ما يحدث دائما ، فانني لا أمانع فى ذلك ... ولكنني أخشى أن تغضب الخالة « سالى » اذا نحن مزقنا أغطيـة فراشنا لنصنع منها سلما من الحبال ... ولهذا أعتقـد أنه من الخير لنا أن نحصل على سلم « جاهز » نخفيه داخل « فطـيرة » كما تقول ...

ـ اصمت يا « هاك » ! انك جاهل ... هل سمعت أن سجينا فى أحد سجون الدولة استخدم سلما « جاهزا » ؟ .. انك تثير ضحكى يا « هاك » ! ؟..

ـ اذن افعل ما تريد ... ولكننى ما زلت اوصـيك بتجنب المشاكل ... لماذا لا « نستعير » أحد أغطية الفراش المعلقة على حبل الغسيل ؟

ـ انها فكرة لا بأس بها ... وهى توحى الى بفكرة أخرى ... علينا أن « نستعير » قميصا أيضا !

ـ لماذا ... يا « توم » ؟

ـ ليكتب عليه « جيم » مذكراته .

ـ تعنى انك تريد أن يكتب « جيم » مذكرات على القميص ؟

ـ نعم ....

ـ ولكن « جيم » لا يعرف الكتابة !

ـ لنفرض انه لا يعرف الكتـابة ... الا يستطيع أن يضـع

علامات على القميص اذا صنعنا له قلما من ملعقة قديمة أو قطعة من الحديد ؟ !

ــ ولماذا لا نعطيه « ريشة » أوزة يتخذ منها قلما ؟ ... ان هذا أفضل وأسرع !

ــ ان السجناء لا يجدون الأوز فى متناول أيديهم ، أيها الغبى ! ... انهم يصنعون أقلامهم من أصلب وأقدم الشمعدانات النحاسية ! ... وقد يستغرق ذلك أسابيع وأسابيع وشهورا وشهورا ! ... انهم « يبردون » هذه الأقلام على الجدران ! ... لقد كان « ذو القناع الحديدى » يفعل ذلك دائما ! !

ــ ولكن ماذا سيكتب « جيم » ؟

ــ يكتب أى شىء ... ان السجين يكتب رسالة فوق طبق من النحاس يلقيه من النافذة ليعرف أعوانه أين هو !

ــ ولكن « جيم » لا يملك أى طبق من النحاس .. انهم يطعمونه فى « مقلاة » !

ــ على أية حال نستطيع أن نحصل على بعض الأطباق ! ...

ثم كف « توم » عن الكلام فقد سمعنا صوت البوق ينفخ ايذانا بحلول موعد تناول العشاء

الفصل السادس والثلاثون

مجهود كبير ــ حفر السرداب ــ
« استعارة » أشياء ــ بين الكلاب !

عند ما اعتقدنا أن الجميع قد ناموا ، تسللنا الى الحظيرة وبدأنا نعمل ! . . . رحنا نحفر بمديتين صغيرتين حتى انتصف الليل . وشعرنا باعياء شديد ، والتهبت يدانا ، فقلت لصديقى « توم » :

ــ يبدو ان الحفر بالمديتين سوف يستغرق ثمانية وثلاثين عاما !

ولم يقل « توم » شيئا . . . لقد تنهد وكف عن الحفر وراح يفكر ! . . .

ثم قال :

ــ لا فائدة يا « هاك » . . . لقد التهبت يدانا ولن نستطيع ان نمضى فى العمل طويلا .

ــ وماذا نفعل يا « توم » ؟

ــ ليست هناك سوى طريقة واحدة . . . هى أن نحفر السرداب بالفؤوس ، ونتظاهر بأننا حفرناها بالمديتين الصغيرتين ! !

وأحضرنا فأسين رحنا نحفر بهما سردابا . . . وظللنا نعمل زهاء نصف ساعة . . . ولم نعد قادرين على العمل فعدنا الى المنزل .

***

وفي اليوم التالي « استعار » توم ملعقة من الصفيح وشممدانا نحاسيا ليصنع منها أقلاما حديدية يكتب بها « جيم » الزنجي رسائله على أطباق من الصفيح ! ... أما أنا ، فقد رحت أتسكع حول أكواخ الزنوج وأترقب فرصة تسنح لي !.. وحانت الفرصة فاستعرت ثلاثة أطباق من الصفيح قال « توم » أنها لا تكفي ! ولكنني قلت له ان أحدا لن يرى هذه الأطباق ، لأنها ستقع في حظيرة الكلاب أو بين الأعشاب عند ما يلقيها « جيم » من النافذة بعد أن يكتب عليها رسائله ! ... ومن ثم ، نستطيع أن نستعيدها مرة ثانية ونقدمها للزنجي الهارب ليستخدمها مرة أخرى ! ! ..

وأعجب « توم » بهذه الفكرة ... ثم قال :

ـ المشكلة الآن ، هي كيف نرسل هذه الأشياء الى « جيم » ؟

فقلت له : عند ما نفرغ من حفر السرداب ، ندخل الكوخ ، ونعطيه هذه الأشياء .

فبدت أمارات السخرية على وجه « توم » ... وتمتم بعبارة معناها أنني أبله !

واستغرق في التفكير ثم قال انه فكر في وسيلتين أو ثلاث وسائل ، وانه يجب علينا أن نتصل بالزنجي الهارب « جيم » قبل اتخاذ القرار النهائي ! .

وفي تلك الليلة ، حملنا احدى الشموع ووقفنا تحت نافذة الكوخ الذي يوجد به « جيم » ورحنا نصيخ السمع ، فطرق آذاننا صوت شخير « جيم » . وعندئذ دخلنا الحظيرة ورحنا نحفر من جديد ... وظللنا نحفر حوالي ساعتين ونصف ساعة . ثم تسللنا عبر السرداب الى الكوخ . وأوقدنا الشمعة ووقفنا نتأمل وجه « جيم » وهو نائم في سكون وسلام ... وعندما أيقظناه ، استبد به السرور وكاد يبكي من الفرح . وراح يدللنا ويمطرنا بوابل من عبارات التدليل والشكر . ثم طلب الينا أن نأتي بأزميل نقطع به

القيد الحديدى الذى يشده الى الفراش ، ولكن « توم » رفض الاستماع اليه بحجة أن ما يطلبه « عمل غير مشروع » ! ... ثم شرح للزنجى الهارب كيف أننا سنحرره ، ولكن فى الوقت المناسب !!

***

وفى صباح اليوم التالى ، راح « توم » يقطع الشمعدان النحاسى ليجعل منه أقلاما حديدية ... ثم ذهبنا الى أكواخ الزنوج . وبينما انهمكت فى حديث طويل مع الزنجى الحارس الذى يطعم « جيم » ، انتهز « توم » الفرصة ودس قطعة من الشمعدان فى رغيف كان على صفحة الطعام الذى يقدم للزنجى الهارب «جيم» !.

وحمل الزنجى الحارس الطعام الى « جيم » ، وذهبنا معه .. وما أن بدأ « جيم » يقضم الرغيف بأسنانه حتى تعثرت أسنانه فى قطعة النحاس ، فتظاهر بأنها حصاة ، وأخرجها من فمه وأخفاها . وعندئذ استبد السرور بصديقى « توم » . فقد أدرك أن « جيم » بدأ يفهم !!

وفجأة برز كلبان من تحت فراش « جيم » ! .. ثم جاءت كلاب كثيرة أخرى بلغ عددها أحد عشر كلبا ! وأدركنا على الفور أننا لم نغلق باب الحظيرة بالأمس عند ما فرغنا من حفر السرداب، وأن الكلاب جاءت الى الكوخ عن طريق هذا الباب !

وعند ما رأى الزنجى الحارس الذى يطعم « جيم » هذه الكلاب الكثيرة . صاح وركع على الأرض وراح يتأوه وهو يقول « السحرة ... السحرة ... انه السحر » ! ... ثم أغمض عينيه وراح يبكى . وتسلل « جيم » الى خارج الكوخ وألقى قطعة من اللحم فاندفعت الكلاب فى أثرها ... وأغلق « توم » باب الحظيرة ثم عاد ... وكان الزنجى الحارس لا يزال يبكى ، فحاول « توم » أن

يهدىء من ثائرته ، وسأله عما حدث وعما اذا كان قد تخيل وجود أشياء تزعجه ، فقال الزنجي :

ـ يا سيدى ... لن تصدقنى لقد رأيت مليون كلب ... مليون شيطان ... انها سحرة ! ... سحرة ! ... ليتنى قبضت على واحد من هؤلاء السحرة ! !

فقال له « توم » : لابد ان هذه الكلاب المسحورة جاءت فى نفس الوقت الذى يتناول فيه « جيم » طعامه ، لأنها جائعة ! ... انها جائعة ... فلماذا لا تعد لها « فطيرة » مسحورة ؟ نعم ... هذا هو ما يجب عليك أن تفعله !

فقال له الزنجي : ولكننى لا أعرف كيف أعد « فطيرة » مسحورة ! ...

فقال له « توم » : سأعدها لك بنفسى !

فقال الزنجى : ليتك تفعل ذلك ... هات قدميك أقبلهما !!

فقال « توم » : سأعدها لك ... انك زنجى لطيف ... ولكن حذار أن تراقبنى وأنا أعد « الفطيرة » المسحورة ! ... وحذار أن تقول شيئا اذا رأيتنى أضع فى « الفطيرة » أى شيء ! ... وحذار أن تنظر الى « جيم » وهو يأكل « الفطيرة » ! ... وحذار أن تلمس « الفطيرة » بيديك ! ! ..

فقال الزنجى : ألمسها بيدى ! ... كيف ألمسها بيدى ياسيدى؟ لن أنظر اليها ... ولن ألمسها ولو منحت مائة الف مليون دولار ! !

الفصل السابع والثلاثون

القميص الأخير ـ البحث فى كل مكان ـ الفطيرة المسحورة !..

ذهبنا الى مخزن فى الساحة الخلفية ، تضع فيه الأسرة مخلفاتها القديمة كالأحذية البالية والملابس القديمة والزجاجات المهشمة والأوانى المحطمة .. وعثرنا على مقلاة قديمة من الصفيح ، فأغلقنا ما بها من ثقوب توطئة لاستخدامها فى اعداد « الفطيرة المسحورة » ... تم ملأنا المقلاة بالدقيق ...

وعدنا الى المنزل لتناول طعام الافطار ... وانتهز « توم » اقتراب « العم سيلاس » منه ، فوضع ملعقة قديمة فى جيب معطفه .

وانتظرنا « الخالة سالى » ... وعندما جاءت ، كانت بادية الغضب والضيق . واستقرت فى مقعدها ، وصبت القهوة ، وراحت تعبث برأس أقرب طفل اليها ... ثم قالت لزوجها :

ـ أين ذهب قميصك الآخر ؟.. لقد بحثت عنه فى كل مكان ، فلم أجده !

وغاص قلبى بين جنبى ، ووقف الطعام فى حلقى ، فسعلت سعلة قوية جعلت الطعام يتطاير من فمى ... أما « توم » فقد اصفر وجهه ...

وقال « العم سيلاس » :

ـ اننى فى حيرة ... اننى واثق من اننى خلعت هذا القميص لأننى ....

فقالت « الخالة سالى » :

ـ لأنك ترتدى القميص الآخر ! ... اننى أيضا وانقة من انك خلعته ... وواثقة من اننى علقته على « حبل الغسيل » أمس . فقد رأيته هنـاك ... ولـكنه اختفى ! ... أين ذهب ؟ ... لا أدرى ... لذلك سوف تضطر الى ارتداء « الفانلة » الحمـراء ريثما أصنع لك قميصا جديدا ... وسيكون هذا القميص الجديد ثالث قميص أصنعه لك خـلال ثلاث سنوات ! ... أين ذهب القميص ؟ ... لماذا لا تحافظ على ملابسك ؟ !

فقال لها « العم سيلاس » :

ـ سأبذل قصارى جهدى للمحافظة على ملابسى ... ولـكن الخطأ ليس خطأى ! ... اننى لا شأن لى بهذه الملابس الا حينما أرتديها .. ولست أعتقد ان القميص اختفى حينما كنت أرتديه !!

ـ يا « سيلاس » ، ليس القميص وحده هو الذى اختفى !.. فقد اختفت ملعقة أيضا ! ... كان عندنا عشر ملاعق ؛ فأصبحت تسعا ... واذا افترضنا ان « العجل » الصغير أكل القميص ، فاننا لا نستطيع ان نفترض أنه أكل الملعقة أيضا ! !

ـ وماذا اختفى أيضا ؟

ـ اختفت ست شمعات ! ... من المحتمل أن تكون الجرذان قد أكلتها ... فلماذا لا تسد الشقوق التى تختفى فيهـا هذه الجرذان اللعينة ؟

ـ اننى أعترف بخطأى يا « سـالى » ... واننى لأعدك بأن أسد هذه الشقوق قبل أن تطلع شمسُ الغد !

ـ لست أرى مبررا للعجلة ! ...

ثم أقبلت خادمة زنجية لم تلبث أن قالت :
ـ لقد اختفى أحد أغطية الفراش يا سيدتى !
ـ اختفى غطاء . . . يا الهى ! !
فقال « العم سيلاس » وقد ارتسم الأسف على وجهه :
ـ سأسد هذه الشقوق اليوم .
فقالت « الخالة سالى » :
ـ وهل تظن أن الجرذان هى التى سرقت الغطاء ؟ . . . أين ذهب هذا الغطاء يا ليزا ؟
ـ لا أدرى يا سيدتى . . . لقد كان « منشورا » على « حبل الغسيل » أمس . . . ولكنه اختفى !
ـ يا الهى . . . قميص . . . وغطاء فراش . . . وست شموع و . . . . .
ثم أقبلت خادمة زنجية أخرى لم تلبث أن قالت :
ـ اختفى شمعدان نحاسي يا سيدتى !
فصاحت « الخالة سالى » :
ـ اختفى شمعدان نحاسي ؟ ! . . . اغربى عن وجهى أيتهنا الحمقاء ! . . .
وجن جنون « الخالة سالى » ، وراحت ترغى وتزبد ، بينما لاذ الجميع بالصمت . . .
وراح « العم سيلاس » يعبث فى جيوب معطفه ، ولم يلبث أن أخرج الملعقة التى كان « توم » قد دسها خفية فى جيبه ؛ فصاحت « الخالة سالى » :
ـ هذا هو ما توقعته . . . اذن فقد كانت الملعقة فى جيبك ! . . فتش فى جيوبك ، عساك تجد الأشياء الأخرى ! ! . . . ولكن بالله كيف وجدت الملعقة طريقها الى جيبك ؟
فقال « العم سيلاس » :

ـ الواقع اننى لا أعرف يا « سـالى » ... لقـد كنت أقرأ الاصحاح السابع عشر من الانجيل ؛ وأخشى أن أكون قد وضعت الملعقة فى جيبى وأنا أحسـبها الانجيل !.. فالانجيـل ليس فى جيبى !.. سـأذهب الى حجرتى لأبحث عن الانجيل .. فاذا وجدته هناك ، سـأتأكد من اننى لم أضعه فى جيبى .. وبذلك يكون ما حدث هو اننى وضعت الملعقـة فى جيبى وأنا أحسبها الانجيل !..

ثم صرخت « الخالة سالى » :

ـ اذهبوا عنى جميعا .. دعونى أتدبر الأمر .. لا تعودوا الا بعد أن تهدأ ثورتى ...

وأطعناها جميعا .. وقررت أنا و « توم » أن نسد الجحور التى تحتفى فيها الجرذان !..

وبدأنا نعمل على الفور .. واستغرق عملنا سـاعة كاملة .. وسمعنا وقع أقدام تهبط الدرج ، فأطفأنا الشمعة التى كنا نعمل على ضوئها فى « البدروم » واختبأنا .. ورأينا « العم سيلاس » يدخل حاملا شمعدانا فى يده ! وكان شارد اللب .. وراح يبحث عن جحور يسدها فلم يجد شيئا .. فاستدار على عقبه وسار ببطء نحو الدرج وهو يقول :

ـ لست أتذكر متى أغلقت هذه الجحور !..

وارتقى الدرج وهو يتمتم ، فخرجنا من مخبأنا .. وكان «توم» كسيف البال لأن « الملعقة » التى وضعها خفية فى جيب معطف « العم سيلاس » اكتشفت قبل أن تصل الى « جيم » !!

وأقبلت « الخالة سالى » فى الوقت الذى كان « توم » يعبث فيه بسلة الملاعق !.. فراح يعدها ؛ وانتهزت الفرصة فأخفيت ملعقة فى « كم » سترتى !.. وقال توم :

ـ ما هذا يا خالتى « سالى » ؟... ان عدد الملاعق لا يزال تسعا !

فقالت له :

ـ لا تضايقنى يا « سيدنى » .. انها عشر ملاعق .. لقد عددتها بنفسى .

ـ ولكنها تسع يا خالتى !.. انها تسع .

فبدا عليها الضيق وراحت تعد الملاعق ، ثم هتفت :

ـ يا الهى .. انها تسع ملاعق .. ما معنى هذا ؟.. سأعدها ثانية .

وبادرت بالقاء الملعقة فى السلة خلسة . وأحصت « الخالة سالى » الملاعق ثم قالت :

ـ يا الهى .. انها عشر الآن !

وبدا عليها الاضطراب والحيرة فقال لها « توم » :

ـ انها تسع يا خالتى ..

ـ قلت لك انها عشر .. عشر ملاعق .

ـ لا بل تسع ملاعق

وبادرت فأخفيت ملعقة ؛ وراحت « الخالة سالى » تعد الملاعق فوجدتها تسعا .. وعندئذ ارتعدت أوصالها .. ومضت تعدها مرة وأخرى وثالثة !.. وكنت أعمد الى حيلة اخفاء احدى الملاعق واعادتها كل مرة .. فكانت النتيجة عجيبة !.. لقد أحصت « الخالة سالى » الملاعق ست مرات .. فبلغ عددها عشر ملاعق فى ثلاث مرات ، وتسع ملاعق فى المرات الثلاث الأخرى !!..

وثارت ثائرة « الخالة سالى » فألقت بالسلة على الأرض وهى تصرخ :

ـ اغربا عن وجهى .. اغربا عن وجهى !

وانصرفنا على الفور .. وبادرنا باعادة غطاء الفراش ووضعه

فوق « حبل الغسيل » .. ثم « استعرنا » غطاء آخر من غرفة نوم « الخالة سالى » .. وظللنا نعيد الغطاء الى مكانه ثم نستعيره ثانية يومين متعاقبين ، فانهارت ثقة « الخالة سالى » فى نفسها ولم تعد تدرى كم يبلغ عدد أغطية الفراش .. واذ تولاها هذا الارتباك ، كفت عن ازعاج نفسها بهذا الأمر مرة أخرى !!..

* * *

وهكذا حصلنا على كل شيء .. على القميص والغطاء والملعقة والشموع .. ولم يعد يقلقنا الا صنع « الفطيرة المسحورة » !..

وأخيرا أعددنا « الفطيرة المسحورة » فى الغابة . وقطعنا غطاء الفراش وصنعنا منه حبلا على شكل سلم . وحاولنا أن نخفى السلم المصنوع من حبال الغطاء داخل « الفطيرة » فلم نستطع.. فقد كان الحبل كبيرا . ومن ثم قنعنا بجزء صغير منه أخفيناه داخل « الفطيرة » !

وعند ما حمل الزنجى الحارس الذى يطعم « جيم » الفطيرة المسحورة لم يتحسسها أو يعبث بها ... وكنا قد أخفينا ثلاثة أطباق من الصفيح تحت المقلاة ، فحمل الزنجى كل شيء الى « جيم » .. وهكذا حصل « جيم » على كل شيء .. وعندما تركه الزنجى ، شطر « الفطيرة » الى شطرين ، وأخرج منها السلم المصنوع من الحبال .. وراح ينقش بعض العلامات فوق طبق من الأطباق الثلاثة ، ثم قذف به من النافذة كما قلنا له ! !

الفصل الثامن والثلاثون

عبارة حزينة ـ النقش على الجدار ـ حجر الطاحونة .

كان صنع الأقلام الحديدية والمنشار عملية شاقة ، ولكننا كنا مضطرين الى صنعها !.. فقد قال «توم» ان ذلك أمر ضروری!.

قال « توم » :

ــ لابد من الأقلام .. فكل سجين ينقش عبارة ما على جدران سجنه .. عبارة ما !

وانهمك « توم » فى تأليف عدة عبارات ، سجلها على رقعة من الورق .. وقرأ لى هذه العبارات ، فاذا بها تقول :

١ ــ هنا تمزق قلب سجين أسير !

٢ ــ هنا قضى سجين تعس ، نبذه العالم والأصدقاء !

٣ ــ هنا تحطم قلب سجين تعس ، وانطلقت روحه المعذبة بعد سبعة وثلاثين عاما فى السجن الانفرادى ! !

٤ ــ هنا مات نبيل غريب لا وطن له ولا أصدقاء ، بعد سبعة عشر عاما قضاها سجينا .. هنا مات الابن الشرعى للملك لويس السادس عشر ! !

وكان صوت « توم » يرتعش كلما نطق بهذه العبارات ...

وعدنا الى المنزل قبل أن يقع اختيارنا على العبارة التى يجب أن يسجلها « جيم » فوق الجدار !...

وكانت المشكلة هى أن « جيم » لا يعرف القراءة ولا الكتابة.. ولكن « توم » صمم على رأيه ، فقررنا أن نحمل « جيم » على « نقش » العبارة التى يقع عليها الاختيار ، بمسمار حديدى ...

فقلت لتوم :

ـ ولكن « نقش » هذه العبارة على الجدار سوف يستغرق وقتا طويلا ... وأخشى أن يطول الوقت ويطول ، فلا يخرج « جيم » من سجنه أبدا !

وفكر « توم » لحظة ثم قال :

ـ ولقد نسينا أن جدران الكوخ مصنوعة من الخشب لا الصخر .. وبذلك لن يستطيع « جيم » أن ينقش العبارة التى نختارها له على أى جدار ! !

ثم قال :

ـ ولكنى وجدت حلا للمشكلة .. سوف أحصل على قطعة من الصخر ننقش عليها هذه العبارة ... سوف نخلع حجر الطاحونة وننقش عليه العبارة التى يقع عليها اختيارنا !...

ولم تكن هذه الفكرة صائبة .. فقررنا البحث عن حل آخر !

وعدنا الى المنزل .. وتسللنا الى حجرتنا ، ولم نلبث أن استغرقنا فى النوم ..

الفصل التاسع والثلاثون

الجرذان ـ خطابات مجهولة ـ الفزع .

فرغنا من اعداد خطتنا النهائية ... أصر « توم » على أن نضع فى الكوخ الذى يوجد به « جيم » بعض الجرذان .. فالسجون تحفل بالجرذان دائما ...

واشترينا «مصيدة» جرذان من السلك ، حملناها الى المنزل . وفتحنا أحد الجحور التى كنا قد أغلقناها . ووضعنا «المصيدة» أمام الجحر .. وبعد ساعة ، كانت «المصيدة» قد امتلأت بخمسة عشر فأرا كبيرا ... فنقلنا « المصيدة » الى مكان أمين تحت فراش « الخالة سالى » ... وعثر « توماس فرانكلين بنجامين جيفرسون الكسندر فيلبس » ابن السيد « سيلاس » ـ وهذا هو اسمه الكامل ـ على « المصيدة » ، ففتحها ، فانطلقت الجرذان منها ... وفى نفس الوقت الذى انطلقت فيه الجرذان من « المصيدة » ، دخلت « الخالة سالى » الغرفة . وعندما عدنا رأيناها واقفة فوق الفراش وهى تصيح بأعلى صوتها ، فقد كانت الجرذان تتواثب هنا وهناك !...وما أن رأتنا « الخالة سالى » حتى أمطرتنا بوابل من اللوم والتأنيب ، فرحنا نقتنص الجرذان واحدا

فى اثر الآخر حتى عثرنا عليها جميعا بعد عمل متواصل استغرق حوالى الساعتين !..

وحملنا بعض الجرذان الى كوخ « جيم » ... ونقلنا حجر الطاحون اليه أيضا ، فامتلأ الكوخ بهذه الأشياء ، وأصبح «جيم» المسكين لا يجد مكانا ينام فيه !.. فقد كانت الجرذان تلاحقه وتطارده وتتراقص على فراشه !..

ثم أرسلنا القميص الى « جيم » داخل « فطيرة » ؛ وطلبنا اليه أن يكتب عليه ما يشاء بالدم الذى يقطر من الجروح التى أحدثتها الجرذان بجسمه !.. ونقش « توم » على حجر الطاحونة العبارة التى اخترناها له .. وكنا سعيدين ، فقد كانت الخطة تنفذ بحذافيرها !..

***

وبعث « العم سيلاس » برسالتين الى « مزرعة أورليانز » طلب فيهما الى « الآنسة واطسون » أن تحضر لأخذ الزنجى الهارب « جيم » ، ولكنه لم يتلق ردا لأنه لم تكن هناك مزرعة تحمل اسم « مزرعة نيواورليانز » ! وأخيرا قرر « العم سيلاس » ان يعلن عن بيع « جيم » فى صحف « سانت لويس » و « نيواورليانز » .. وما أن سمعنا ذلك حتى سرت الرعدة فى أوصالنا ..

وقال لى « توم » :

ــ لا تخش شيئا .. سوف ألجأ الى الخطابات المجهولة ! !

فقلت له :

ــ الخطابات المجهولة ؟ ! ... ما معناها .

ــ انها تحذير للقوم هنا بأن كارثة توشك أن تحل بهم ... لقد تحدثت كل كتب المغامرات عن أمثال هذه الخطابات !!..

فهذه الخطابات تدخل الفزع فى قلوب الناس ، فيبقون فى منازلهم أثناء هروب السجين ! !

وانهمك « توم » فى اعداد خطاب جاء فيه :

« احذروا .. ان المتاعب على الأبواب .. كونوا يقظين »

الصديق المجهول ..

وأخذت الخطاب وقذفت به من « تحت الباب » !.. وفى الليلة التالية ، رسمنا صورة جمجمة وعظمتين متقاطعتين على الباب الأمامى .. وفى الليلة التالية رسمنا صورة « تابوت » .. وهكذا ركب الفزع الأسرة كلها !..

وقررت الأسرة أن تضع عند كل باب زنجيا يراقب هذا الباب طيلة الليل ..

وكنا قد قررنا أن ننفذ خطتنا فى فجر اليوم التالى ، فاعد « توم » خطابا ؛ ثم تسلق السياج ، وألصق الخطاب على الباب.. وكان الخطاب يقول :

« اننى صديق لكم .. هناك عصابة من السفاكين تحاول أن تسرق الزنجى الهارب الليلة ... لقد حاولت العصابة ادخال الفزع فى قلوبكم لتظلوا داخل المنزل فيسهل عليهم ارتكاب جريمتهم .. اننى أحد أفراد هذه العصابة ، ولكننى رجل متدين أريد الانفصال عن العصابة لكى أستأنف حياة شريفة ... سوف يتسلل أفراد العصابة من الناحية الشمالية ، ويتسلقون السياج عند منتصف الليل .. وسوف يستخدمون مفتاحا زائفا لدخول الكوخ الذى يوجد به الزنجى الهارب .. سأطلق لكم صوتا أشبه بالمواء حينما تهم العصابة بدخول الكوخ .. وحينما تنهمك العصابة فى فك قيود الزنجى ، تستطيعون أن تتسللوا الى الكوخ للقبض على أفراد هذه العصابة .. لست أبغى من وراء ذلك الحصول على أية مكافأة ... »

الفصل الأربعون

صيد السمك ـ مطاردة عنيفة ـ
((جيم)) يصمم على استدعاء الطبيب .

كانت روحنا المعنوية مرتفعة فى الصباح ، فركبنا القارب ورحنا نصيد السمك !.. وقضينا وقتا طيبا .. ثم ذهبنا الى حيث تركت « العائمة » فوجدناها فى مكانها .. وعندما عدنا الى المنزل مساء ، ألفينا الجميع خائفين مذعورين ترتعد فرائصهم وأوصالهم !.. وما أن فرغنا من تناول طعام العشاء حتى طلبت الينا « الخالة سالى » أن نأوى الى الفراش !..

وصعدنا الدرج ، فى طريقنا الى حجرة النوم .. وما أن غابت « الخالة سالى » عن أنظارنا ، حتى تسللنا الى « البدروم » ، وحملنا كمية لا بأس بها من الطعام الى غرفتنا .. فقد كنا نزمع اطلاق سراح « جيم » فى تلك الليلة والهرب على الفور !..

وآوينا الى الفراش ، ثم استيقظنا حوالى الساعة الحادية عشرة .. وسألنى « توم » :

ـ أين الزبد الذى أحضرناه من « البدروم » ؟

ـ لا أدرى ... أليس هنا ؟

ـ لا ...

ـ لماذا تصر عليه ؟

ـ لا بد من الحصول عليه يا « هاك » .. تسلل الى «البدروم» واحضر كمية من الزبد ..

وذهبت الى « البدروم » بينما تسلل « توم » الى الخارج .. وهناك فى « البدروم » وجدت قطعة من الزبد فى حجم قبضة اليد كنت قد نسيتها فوق قطعة من الخبز ، فالتقطت قطعة الخبز المحملة بالزبد وحملتها ورحت أرتقى الدرج الخشبى .. وما أن بلغت الطابق الأرضي حتى رأيت « الخالة سالى » مقبلة وفى يدها شمعة .. فوضعت قطعة الخبز بما فوقها من زبد تحت قبعتى .. وواجهت الخالة سالى ...

قالت لى :

ـ هل كنت فى « البدروم » ؟

ـ نعم .. يا سيدتى ..

ـ وماذا كنت تفعل هناك ؟

ـ لا شيء يا سيدتى .

ـ لماذا أنت هنا فى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟

ـ لا أدرى يا سيدتى ..

ـ لا تدرى ؟!.. لا تجبنى بهذا الأسلوب يا « توم » ... ماذا كنت تفعل فى « البدروم » ؟

ـ لم أكن أفعل شيئا يا سيدتى ...

وتوقعت أن تدعنى أمضى فى سبيلى كما عودتنا ، ولكنها لم تفعل ؛ فقد بدت على وجهها أمارات الخوف والفزع وقالت بلهجة حازمة قوية :

ـ اذهب الى غرفة الجلوس ... وابق هناك ريثما أعود اليك ... ولن تفلت من يدى الا اذا رويت لى الحقيقة كاملة !..

وذهبت الى غرفة الجلوس .. ولشد ما كانت دهشتى حينما

ألفيتها مزدحمة بالناس .. رأيت خمسة عشر فلاحا يحمل كل واحد منهم بندقية .. فغاص قلبى بين جنبى .. كانوا جميعا يتهامسون .. وكانوا فزعين مضطربين ، ولكنهم كانوا يتظاهرون بأنهم ليسوا كذلك !.. وتولانى فزع شديد ، وتمنيت أن تأتى « الخالة سالى » وتضربنى ان شاءت ثم تدعنى أذهب الى حيث يوجد « توم » لأحذره من نتائج مغامراته ، ولنطلق سراح «جيم» ونهرب قبل أن ينفد صبر المتربصين فى غرفة الجلوس !!.

وأخيرا جاءت « الخالة سالى » ، وراحت تمطرنى وابلا من الأسئلة ، ولكنى لم أستطع أن أجيب على أسئلتها ! ... ومضت « الخالة سالى » تسألنى وأنا أنتفض من قمة رأسى الى أخمص قدمى وقد تملكنى فزع عظيم .. وكانت حرارة الغرفة تشتد ، فبدأ الزبد يذوب ويسيل فوق عنقى وخلف أذنى وفوق جبهتى ! ورأت « الخالة سالى » قطرات الزبد ، فاصفر لونها وصاحت .

ـ بحق السماء ، ان هذا الغلام مصاب بحمى مخية ! ... ان مخه يسيل ! ...

كان الفلاحون المتجمعون فى الغرفة يريدون أن يتسللوا الى الكوخ ليقبضوا على العصابة المزعومة ... وكانوا قد تهيأوا لذلك بالفعل ... ولكنهم جمدوا فى أماكنهم عندما صرخت « الخالة سالى » ... وسرعان ما التفوا حولى ليستطلعوا جلية الأمر . ومدت « الخالة سالى » يدها ونزعت قبعتى فسقطت قطعة الخبز وما تبقى فوقها من زبد ! ... وجذبتنى اليها وضمتنى الى صدرها وهى تقول :

ـ لقد أفزعتنى ! لشد ما أنا مسرورة ! ... لقد كنت أظن أن مخك يسيل ! ... لماذا لم تقل لى انك ذهبت الى « البدروم » للحصول على قطعة من الخبز وبعض الزبد ؟ ... اذهب الى فراشك ولا تدعنى أشهد وجهك الا صباح الغد ! ! ...

وفى لمح البصر ، صعدت الى الطابق العلوى ، ثم تسلقت مانعة الصواعق الى الساحة ، واندفعت فى الظلام حتى بلغت الحظيرة ..

ورحت أروى لصديقى « توم سوبر » كل ما حدث ... وقلت له ان الوقت ضيق جدا وانه يحسن بنا ان نرحل قبل أن يدهمنا الرجال المسلحون ...

فومضت عينا « توم » ثم قال :

ـ لا تخش شيئا ...

فقلت له :

ـ اسرع يا « توم » .. اسرع يا « توم » ... أين « جيم »

ـ الى جوارك مباشرة ! ... انه مستعد ... ولكن هلم بنا نطلق المواء الذى تحدثنا عنه فى الخطاب ! !

وفجأة سمعنا وقع أقدام رجال مقبلين نحو الباب ... وسمعناهم يتحسسون موضع القفل ... ثم سمعنا رجلا يقول :

ـ قلت لكم اننا سنسبقهم ... فهاهم لم يحضروا بعد ... ان الباب لا يزال مغلقا بالمفتاح ... تعالوا بنا نختبىء لهم داخل الكوخ ... وليبق بعضنا خارج الكوخ فى انتظار العصابة ! ..

ودخلوا الكوخ ... ولم يستطيعوا رؤيتنا بسبب الظلام ... فبادرنا بالتسلل الى الخارج عبر السرداب ...

وتعثر « توم » فى أحد الأغصان عند السياج فتحطم الغصن وأحدث صوتا مكتوما ... وكنا فى تلك اللحظة قد هبطنا من فوق السياج ... وسمعنا رجلا يقول :

ـ من هناك ؟ ... أجب والا أطلقنا النار !

ولم نجب ... أطلقنا سيقاننا للريح ... وفجأة دوى فى الفضاء صوت ثلاث طلقات ...

ثم سمعنا الرجال يقولون :

ـ لقد انطلقوا الى النهر ... اتبعوهم ... أطلقوا الكلاب ! ..

وانطلقوا فى اثرنا ... وعند ما بلغنا المكان الذى توجد به « الطاحونة » اختبأنا بين الأعشاب الكثيفة ... وأقبلت الكلاب فلم تعبأ بنا لأنها كانت تعرفنا .. وعندما ابتعد الرجال المسلحون، خرجنا من مخبئنا وأطلقنا سيقاننا للريح مرة أخرى ... ورحنا نجرى حتى بلغنا المكان الذى أخفينا فيه القارب، فأطلقناه ورحنا نقطع الماء حتى بلغنا الجزيرة التى أخفينا فيها « العائمة » ...

وعند ما صعدنا الى العائمة قلت للزنجى « جيم » :

ــ ها قد أصبحت حرا مرة أخرى يا « جيم » ... لن تصبح عبدا رقيقا بعد الآن ! ...

فقال « توم » :

ــ الحق اننى سعيد جدا .. لقد نفذنا الخطة على خير وجه ..

وكنا جميعا مسرورين .. وكان « توم » أكثرنا سعادة، لأنه ــ كما قال ــ أصيب برصاصة فى « كعب » رجله !!

وعند ما سمعت أنا و « جيم » ذلك، تبدد سرورنا ... فقد بدأ « توم » يتلوى من الألم، وراح الدم يندفق من الجرح .. وكان لابد أن نكف عن التجديف لنعتنى بالصبى الجريح ... فضمدنا الجرح .. وحاول « توم » أن يحملنا على التجديف وتركه وشأنه، ولكننا رفضنا ...

قال « جيم » :

ــ لقد أصيب « توم » بهذا الجرح بسببى ... ولهذا لن أنتقل من هذا المكان قبل استدعاء طبيب يفحص « توم » ... لن أبرح هذا المكان مهما حدث من أمر ... حتى لو أدى الأمر الى سجنى أربعين عاما !! ...

لقد كان « جيم » زنجيا طيب القلب ... فاطمأن قلبى وقلت له اننى ذاهب للبحث عن طبيب ... فثار « توم »، ولكننا

صممنا على ذلك . وحاول « توم » أن يطلق العائمة ولكننا لم ندع له فرصة !

وعند ما رآنى « توم » استقل الزورق ، قال :

ـ ما دمت مصمما على استدعاء طبيب ، فمن الخير لك عند ما تصل الى القرية أن تعصب عينى الطبيب ، وأن تضع فى يده كيسا مملوءا بالذهب وأن تقوده الى هنا فى الظلام حتى لا يعرف الطريق!! .

مسكين « توم » ... انه مفتون بالمغامرات ! ... ووعدته بأن أنفذ تعليماته ، ثم انصرفت بعد أن اتفقنا على أن يختبىء « جيم » فى الغابات حتى لا يراه الطبيب ! ! ...

الفصل الحادى والأربعون

الطبيب ـ العم سيلاس ـ الخالة سالى قلقة

كان الطبيب كهلا لطيف المعشر طيب القلب ... استقبلنى بوجه بشوش ... ورحت أروى له القصة ، فقلت له اننى وأخى كنا نصطاد السمك فى احدى الجزر ، وعسكرنا فوق عائمة صغيرة عثرنا عليها هناك ... ورأى أخى أثناء نومه حلما مفزعا فارتعشت أوصاله ، واصطدمت ساقه بالبندقية وهو نائم فانطلقت وأصابت الرصاصة « كعب » قدمه ! ... ثم طالبت اليه الذهاب الى العائمة، وأن يلوذ بالصمت حتى لا يعرف « الجميع » ما حدث !!

فقال الطبيب :

ــ ومن هم هؤلاء « الجميع » ؟

ــ أسرة « فيلبس » .

ــ كيف أصيب الغلام ؟

ــ قلت لك كان يحلم .. وانطلقت البندقية ، فأصابته ...

ــ ياله من حلم غريب !

وأعد الطبيب حقيبته وتبعنى ... وما أن رأى الزورق حتى تولاه الخوف ... كان الزورق صغيرا لايتسع الا لشخص واحد .

فقلت له :

ــ لا تخش شيئا ياسيدى .. ان الزورق صغير ولكنه يتسع لأكثر من شخص واحد ... لقد اتسع لثلاثتنا ...

ــ ثلاثتكم ؟ !

ــ نعم أنا و « سيدنى » أخى ... و ... و البندقية ! ... هذا ما أعنيــه .

ــ آه ! ...

وأخذ يهز الزورق بقدمه ثم قال انه يفضل الحصول على زورق آخر ... وكانت الزوارق كلها مشدودة بالسلاسل ولم نستطع أن نفك واحدا منها ... وعندئذ قال الطبيب :

ــ هات هذا الزورق ... سأذهب الى الغلام الجريح وحدى ... لا تبرح هذا المكان يا غلام ! ...

واستقل الزورق ومضى به الى حيث أشرت له بيدى ! ...

وغلبنى النوم ، فنمت ... وحينما استيقظت من النوم كانت الشمس قد توسطت كبد السماء ، فأسرعت الى منزل الطبيب . ولكن خادمه قال لى انه خرج ليلا ولم يعد بعد ... فساورنى الخوف ...

ومضيت فى طريقى الى النهر ، ولكننى ما كدت أنثنى فى أحد المنعطفات حتى اصطدمت بالعم « سيلاس » ...

قال لى « العم سيلاس » :

ــ أهذا أنت يا « توم » ؟ ... أين كنت طوال هذا الوقت أيها الغلام الشرير ؟

ــ كنت أبحث عن الزنجى الهارب ... أنا و « سيدنى » ...

ــ والى أين ذهبتما ؟ ان خالتكما تنتظركما فى قلق !

ــ ولماذا تقلق ؟ اننا بخير ... لقد فقدنا أثر الرجال والكلاب . ولكننا لم نستطع اللحــاق بهم ... واعتقدنا انهم توجهــوا الى

النهر ، فحصلنا على قارب للحاق بهم ... وعبرنا النهر ولكننا لم نعثر لهم على أثر ... ومن ثم ، رحنا نستكشف النهر حتى انتابنا الاعياء ، فربطنا القارب ونمنا ولم نستيقظ الا منذ حوالى ساعة ! ... فجئنا الى هنا بالقارب ... ثم ذهب « سيدنى » الى مكتب البريد ليبحث عن رسائل ! ! ...

وذهبنا الى مكتب البريد ولكننا لم نجد « سيدنى » لأنه لم يكن هناك ! .. ولكننا وجدنا رسالة للعم « سيلاس » ؛ فضها وقرأها ثم قال :

ـ تعال بنا نذهب الى المنزل ... فسيعود « سيدنى » بعد أن يفرغ من عبثه ! ..

وعند ما عدنا الى المنزل ، وجدنا « الخالة سالى » مضطربة جدا ... كانت تضحك وتبكي فى آن واحد ! ... احتضنتنى بحنان ثم ضربتنى برفق ... وقالت انها سوف تؤدب « سيدنى » عند ما يعود ! !

وكان المنزل مزدحما بالفلاحين وزوجاتهم ... وكانوا يثرثرون بلا انقطاع ... كانوا جميعا يتحدثون عن الزنجى الهارب ، والعبارات المنقوشة على حجر الطاحون ، ويقولون أن الزنجى مجنون ! ! ... وتحدثوا عن السلم المصنوع من الحبال والمنشار والجرذان وكل ما وجدوه فى الكوخ ... ثم تحدثوا عن القميص المسروق وغطاء الفراش والشموع والشمعدان والمقلاة القديمة .. كانوا فزعين خائفين ...

ومر الوقت سريعا ، وأقبل الليل ، فقالت « الخالة سالى » :

ـ يا الهى ... لقد أوشك الليل على الانصرام ، ولم يعد سيدنى ... ترى ماذا حدث له ! ؟

فقلت لها :

ـ أستطيع ان أذهب الى المدينة لأعود به !

ـ لا . . . لن تفعل ذلك . . . ستبقى حيث أنت . . . اذا لم يعد « سيدنى » قبل حلول موعد العشاء ، سيذهب « سيلاس » للبحث عنه ! . . .

وحل موعد العشاء . . . وذهب « العم سيلاس » الى المدينة ليبحث عن « توم » . . . ثم عاد بعد ذلك كسيف البال . . . وراح يهدىء من ثائرة « الخالة سالى » قائلا لها ان « سيدنى » غلام عابث وانه لابد سيعود مع الصباح . . .

* * *

وعند ما صعدت الى غرفة النوم ، صعدت « الخالة سالى » معى وراحت تحدثنى وتتودد الى . . . ثم امتدحت « سيدنى » وأطرته . . . وراحت تسألنى عما حدث . وقالت انها تخشى أن يكون قد أصابه مكروه . . . ثم انهمرت الدموع من عينيها . . وقلت لها ان « سيدنى » بخير وانه سيعود فى الصباح بدون شك . . .

وأخيرا قبلتنى وتركتنى أنام !

ونمت نوما متقطعا . . . وحاولت التسلل الى الخارج ثلاث مرات ولكننى كنت أعود كلما رأيت « الخالة سالى » جالسة أمام غرفة نومها والدموع تنحدر فوق خديها . . .

الفصل الثانى والأربعون

((توم سوير)) جريح ــ قصــة الطبيب ــ صــنيع طيب لجيــم ــ ((توم)) يعترف ــ وصــــول ((الخــالة بولى))

ذهب « العم سيلاس » مرة ثانية الى المدينة قبل تناول طعام الافطار ، ولكنه لم يعثر على « توم » فعــاد الى المنزل . وجلس الزوجان الى المائدة وقد استغرقا فى التفكير . . . وبعد فترة قصيرة من الوقت قال العم سيلاس للخالة « سالى » :

ــ هل أعطيتك الرسالة التى تلقيتها ؟

ــ أية رسالة تعنى ؟

ــ الرسالة التى تسلمتها أمس من مكتب البريد .

ــ لا . . .

ــ لابد أننى نسيت .

وبحث الرجل فى جيوبه عن الرسالة ولكنه لم يجدها ، وذهب الى حيث وضعها ، ثم عاد ، وقدمها لزوجته وهو يقول :

ــ انها من « سانت بينرسبورج » . . . من أختك !

وأمسكت « الخالة سالى » بالرسالة ؛ ولكن الرسالة سقطت منها على الارض قبل أن تفض غلافها . . . سقطت الرســالة لأن يد « الخالة سالى » تراخت وارتعشت . . . فقد رأت ــ كما رأيت أنا ــ « توم سوير » محمولا على « نقــالة » ، ومن ورائه الطبيب الكهل ، والزنجى الهارب « جيم » مشدودا الى الأغلال والقيود ، وجمهرة من الناس ! . . .

وبادرت بالتقاط الرسالة ، والتسلل الى الخارج ! . . . أما « الخالة سالى » ، فقد ألقت بنفسها فوق « توم » وهى تصرخ قائلة :

ــ أواه . . . لقد مات . . . نعم مات . . . لقد كنت أعرف أنه مات ! . .

ولكن « توم » لم يلبث أن استدار نحوها وراح يتمتم بطريقة توحى بأنه يهذى ، فرفعت « الخالة سالى » يديها نحو السماء وهتفت :

ــ الحمد لله . . . انه ما زال حيا . . . الحمد لله . . .

ثم انحنت فوقه وطبعت قبلة على شفتيه . . . وهرولت الى المنزل لتعد له فراشا وثيرا .

وسرت وراء الرجال لأرى ما سيفعلون بالزنجى المسكين « جيم » . . . وكان بعض الرجال ثائرين ، فحاولوا الاعتداء على « جيم » وشنقه ليكون عبرة لغيره من الزنوج ، ولكن البعض الآخر نهاهم عن ذلك قائلا لهم ان « جيم » ليس أحد زنوجهم وأن صاحبه سيأتى يوما من الأيام لاستعادته ! وهكذا هدأت العاصفة . . . فأولئك الذين يتحمسون لشنق أحد الزنوج هم دائما أول الأشخاص الذين يتراجعون عند ما يطلب اليهم دفع ثمن الزنجى !

ولكن « جيم » لم يسلم من الأذى . . . فقد ضربوه وركلوه وقادوه الى الكوخ ، وشدوا وثاقه ، وقيدوا رجليه وقدميه ، وأقسموا ألا يتناول من الطعام الا الخبز والماء القراح ، وقرروا أن يظل سجينا حتى يأتى صاحبه لاستلامه أو يباع بالمزاد ! . . .

وبعد فترة قصيرة من الوقت أقبل الطبيب وألقى نظرة على الكوخ والزنجى السجين . . ثم قال :

ــ لا تقسوا على هذا الزنجى . . انه زنجى طيب . . فعندما ذهبت الى العائمة لرؤية الصبى الجريح ، كان هذا الصبى ثائرا . .

لقد تهددني بالقتل اذا أنا حاولت أن أفعل شيئا !.. وكان لابد أن يساعدني أحد ، فظهر هذا الزنجي فجأة وراح يساعدني !.. ساعدني كثيرا .. وكنت أعرف انه الزنجي الهارب فاضطررت الى قضاء الليلة فوق العائمة حتى لا يهرب .. والحق أن هذا الزنجي طيب ومخلص .. لقد أبى أن يهرب وصمم على ملازمتي لمساعدة الصبي الجريح .. انه زنجي أمين أيها السادة .. انه يساوي ألف دولار .. فلولاه لما تحسنت حالة الصبي الجريح .. أيها السادة لا تقسوا عليه!

وأحببت هذا الطبيب لما أداه من صنيع جميل للزنجي « جيم » .. وفرحت لأن « جيم » برهن على وفائه واخلاصه . وسرعان ما بدأ الرجال الثائرون يعطفون على « جيم » ، فوعدوا الطبيب بألا يقسوا عليه .

وعاد الجميع الى المنزل ، فعدت معهم . وبدأت أفكر في قصة أرويها للخالة سالي اذا سألتني ولماذا أخفيت عنها ما حدث لتوم .. ولكن « العمة سالي » لم تسألني لأنها كانت تقضي كل وقتها مع « توم » في حجرته !..

* * *

وفي صباح اليوم التالي ، سمعت أن صحة « توم » تحسنت ، وأن « الخالة سالي » تركت غرفته لتنال قسطا من الراحة والنوم، فتسللت الى حجرة « توم » ، وأنا أزمع أن اتفق معه على قصة نرويها لنبرر بها ما حدث .. ولكن « توم » كان مستغرقا في النوم . فجلست قبالته أترقب استيقاظه .. وبعد حوالي نصف ساعة أقبلت « الخالة سالي » وجلست الى جواري وهمست في أذني قائلة :

ـ فلنبتهل الى الله أن يشفيه .. الحمد لله .. انه مستغرق في النوم .. لقد بدأ يشفى .. أدعو الله أن يسترد قواه العقلية ، فقد قال الطبيب انه كان يهذي !

وظللنــا نرقب « توم » وهو نائم .. وبعــد فترة من الوقت تحرك « توم » وفتح عينيه وقال :

ــ أين أنا ؟ .. لماذا انا هنا ؟ أين العالمة ؟

فقلت له :

ــ لا تخش شيئا .. ان كل شيء على ما يرام !

ــ و « جيم » ؟

ــ و « جيم » أيضا بخير !

ــ اذن نحن بخير .. هل أخبرت خالتى ؟

وكدت اقول نعم لولا أن « الخالة سالى » قاطعته قائلة :

ــ يخبرنى عن ماذا ؟

فقال « توم » :

ــ عن الطريقة التى تم بها كل شيء .

فقالت « الخالة سالى » :

ــ وما هو « كل شيء » هذا ؟

ــ كل شيء .. كل شيء عن الخطة التى دبرناها لفرار « جيم » .. الخطة التى دبرتها أنا و « توم » !

ــ يا الهى .. عم يتحدث هذا الغلام ؟ هل فقد عقله مرة ثانية ؟

ــ لا .. لم افقد عقلى يا خالتى .. لقد أطلقنا سراح « جيم » .. أنا و « توم » .. نعم نفذنا الخطة التى وضعناها .. ونفذناها بشكل رائع ...

وانطلق « توم » يتحــدث .. أعترف بكل شيء .. قال لها :

ــ لقد وضعنا خطة استــغرق تنفيذها عدة أسابيع .. كنا نقضى ساعات وساعات فى العمل وانتم نيام .. سرقنا الشموع وغطاء الفراش والقميص والملاعق والأطباق والمقلاة والدقيق .. ونقلنا حجر الطاحونة الى الكوخ ! .. كذلك كتبنا الخطابات المجهولة ورسمنا صورة الجمجمة والتــابوت .. وحفرنا سردابا وصنعنا

سلما من الحبال بعتنا به الى « جيم » داخل « فطيرة » :
فصرخت « الخالة سالى » قائلة :
ـ يا اله السموات !..
ثم مضى « توم » يقول :
ـ نعم .. كانت مغامرة مثيرة .. ملأنا الكوخ بالجردان .. وعند ضبطت « توم » فى « البدروم » بعد أن سرق الزبد ، كادت الخطة تفشل .. وذهب الرجال الى الكوخ قبل أن نخرج نحن .. فهربنا .. وراح الرجال يطاردوننا وأطلق أحدهم بندقيته فاصابتنى رصاصة .. ولكننا استطعنا أن نصل الى العائمة .. وهكذا أصبح «جيم» حرا !.. نحن الذين فعلنا هذا كله ياخالتى !
فقالت « الخالة سالى » :
ـ الحق انها مغامرة مثيرة ! .. اذن ، فأنتما اللذان أثرتما كل هذه المتاعب وأدخلتما الفزع فى قلوبنا جميعا ...
ـ نعم يا خالتى .. فعلنا هذا كله لا لكى ندّخل آلفزع فى قلوبكم ولكن حبا فى المغامرة .. ولكم أنا آسف لازعاجكم .
فقالت « الخالة سالى » :
ـ لقد اغتفرت لكما كل شىء .. ولكن حذار من التدخل مرة أخرى فى شئونه !
فقال « توم » :
ـ فى شئون من يا خالتى ؟
ـ فى شئون « جيم » الزنجى الهارب .
فاصفر لون وجه « توم » وبدت عليه أمارات القلق وقال :
ـ شئون « جيم » !..
فقالت « الخالة سالى » :
ـ نعم .. فى شئون « جيم » !
فرمقنى « توم » بنظرة قوية وقال :
ـ ألم تقل لى يا « توم » أن « جيم » بخير ؟.. ألم يهرب ؟

فقالت له « الخالة سالى » :

ـ لا .. لم يهرب .. لقد قبضوا عليه وسجنوه فى الكوخ ! وهو الآن مشدود الى أغلاله وقيوده .. ولا يتناول من الطعام الا الخبز الجاف والماء القراح !..

انتصب « توم » وقد انتفخت أوداجه وصاح فى غضب :

ـ لماذا يسجنونه ؟.. اطلقوا سراحه .. انه ليس عبدا رقيقا .. انه انسان حر .. نعم انه انسان حر كأى انسان آخر !

فقالت « الخالة سالى » :

ـ ماذا يعنى هذا الغلام ؟

فقال لها « توم » :

ـ أعنى كل كلمة قلتها .. أطلقوا سراحه والا ذهبت لاطلاق سراحه .. اننى أعرفه .. و « توم » يعرفه أيضا .. انه صديقنا .. لقد ماتت « الآنسة واطسون » التى تملكه منذ شهرين .. ماتت وهى تشعر بالندم والخجل لأنها أرادت أن تبيعه لأحد تجار الرقيق قبل هروبه بأيام قلائل !.. نعم ماتت وهى تشعر بالندم ، وسجلت فى وصيتها أنها أعتقته.! !

فقالت له « الخالة سالى » :

ـ ولماذا قمت بتلك المغامرة المثيرة لاطلاق سراحه ما دمت تعرف أن سيدته أعتقته ؟

ـ فعلت ذلك حبا فى المغامرة !..

ثم كف عن الكلام ، ولم يلبث أن صرخ :

ـ يا الهى .. ها هى خالتى « بولى » !

ووثبت « الخالة سالى » لاستقبال أختها « الخالة بولى » . أقصد خالة توم !.. أما أنا ، فقد تسللت تحت الفراش ، فقد كان الموقف حرجا ..

وتعانقت الأختان ، ثم تطلعت « الخالة بولى » الى توم من وراء عويناتها ، وقالت له :

ـ لماذا تدير وجهك هكذا يا « توم » ؟ لابد أنك تشعر بالخجل !
فقالت « الخالة سالى » :
ـ يا الهى .. هل تغيرت هيئة الصبى الى هذا الحد ؟ انه ليس « توم » يا أختاه .. انه « سيدنى » .. أما « توم » .. توم .. أين أنت يا « توم » ؟ لقد كان هنا منذ لحظة !
فقالت « الخالة بولى » :
ـ تقصدين « هاكلبرى فن » يا أختاه !.. ان « سيدنى » لم يأت الى هنا !.. اخرج من تحت الفراش يا «هاكلبرى فن» !!..
فخرجت من تحت الفراش مطأطىء الرأس !..
وبدت أمارات الدهشة والحيرة على وجه « الخالة سالى » .. ثم دخل « العم سيلاس » .. وراحت الخالة بولى .. خالة « توم » تروى لهم كل شيء !..
قالت لهم انها حين تلقت الرسالة التى قالت لها فيها أختها « سالى » ان « توم » و « سيدنى » وصلا سالمين ، أيقنت أن فى الأمر شيئا لأن « سيدنى » لم يأت الى هنا !.. ثم روت كيف أن « الآنسة واطسون » ماتت وسجلت فى وصيتها أنها اعتقت الزنجى « جيم » .. ثم قالت لأختها سالى :
ـ لقد بعثت اليك برسالة أسألك فيها عما تقصدينه بقولك أن « سيدنى » جاء مع « توم » !!.. فلماذا لم تردى على رسالتى ؟
ـ لم أتلق منك أية رسالة يا أختاه !..
فاستدارت « الخالة بولى » نحو « توم » وقالت له :
ـ هل أنت الذى ...
فقال « توم » :
ـ نعم ... انهما فى حقيبتى يا خالتى !..
ـ يا لك من صبى « شقى » !.. ولولا أننى أعرف مدى شغفك بالمغامرات ، لسلخت جلدك !..

الخاتمة

((جيم)) يتحـــرر ــ ٤٠ دولارا للزنجى ثمنا للسـجن ــ المخلص ((هاكلبرى فن)) !

عندما خرج الجميع سألت ((توم)) :

ــ فيم كانت كل هذه المغــامرة . ما دمت تعلم ان ((الانسـة واطسـون)) أعتقت ((جيم)) ؟

فقال ((توم)) :

ــ كنت ابحث عن مغامرة !.. وكنت ازمع ان افضى الى ((جيم)) بالحقيقة بعد ان تنطلق بنا العائمة !.. وكنت أهدف من وراء هذه المغامرة الى تكريم ((جيم)) .. فلو اننا افلحنا فى تنفيذ خطتنا . لأرسلت الى الزنوج فى مدينتنا خطابا أروى لهم فيــه القصـــة . واطلب اليهم أن يخفوا الى استقبال ((جيم)) .. لكننا نجحنا فى تنفيذ خطتنا .. فقد كان ذلك خليقا بان يجعل منا بطلين ومن ((جيم)) بطلا ثالثا !!.. وعلى كل حال . فان نهاية القصـة لا تقل روعة عما كنت اتخيل !

* * *

وذهبنا الى الكوخ . واطلقنا سراح ((جيم)) .. وعدنا به الى

المنزل . وكانت « الخالة بولى » قد علمت بالمساعدة التى قدمها « جيم » للطبيب الذى عالج « توم » فشكرته .. وقدمت الأسرة له طعاما شهيا ، وأكرموا وفادته .. ونفحه « توم » أربعين دولارا مكافأة له على ارتضائه التضحية بحريته من أجل انقاذه من الجرح الذى أصابه ؛ فقال لى « جيم » :

ــ هل تتذكر ما قلته لك يا « هاك » عندما كنا فى جزيرة جاكسون ؟.. ألم أقل لك ان صدرى غزير الشعر ، وان ذلك يدل على اننى سأصبح ثريا فى يوم من الأيام ؟.. لقد كنت أعلم أننى سأصبح ثريا .. وها قد هبط على الثراء ! !

وتحدث « توم » فقال لنا :

ــ هلموا بنا نغادر هذه المزرعة .. لنقضى أسبوعين فى بلاد الهنود الحمر !..

فقلت له :

ــ وكيف ؟

فقال « توم » :

ــ نشترى ملابس جديدة تشبه ملابس الهنود الحمر .. ونذهب الى بلاد الهنود الحمر لنقضى هناك أسبوعين !

ــ ولكننى لا أملك من المال ما اشترى به ملابس تشبه ملابس الهنود الحمر .. ولست أعتقد أن أبى قد ترك لى شيئا من ثروتى التى كان يحتفظ بها القاضى « تاتشر » !

فقال « توم » :

ــ ان أباك لم يعد الى المدينة منذ اختفائه .. ولا تزال ثروتك .. أقصد الستة آلاف دولار فى انتظارك ..

وقال « جيم » الزنجى بلهجة حاسمة :

ــ نعم .. لم يعد أبوك الى المدينة .. ولن يعود اليها على الاطلاق ! !

ـ ولماذا يا « جيم » ؟.. لماذا أنت متأكد هكذا ؟
فقال لى :
ـ هل تتذكر ذلك المنزل العائم الذى كان به رجل مقتول ؟.. هل تتذكر أننى دخلت الغرفة التى كان القتيل ملقى فيها على الأرض ، وغطيت وجهه بغطاء الفراش ؟.. هل تتذكر اننى لم أسمح لك بدخول الغرفة ؟.. ان هذا القتيل لم يكن سوى أبيك .. ان ثروتك لا تزال فى انتظارك !!..

وأخيرا استرد « توم » صحته .. وربط « الرصاصة » التى أخرجها الطبيب من « كعب » قدمه فى سلسلة الساعة التى كان يلفها حول عنقه .. وكان يرى « الرصاصة » كلما أخرج الساعة .. واننى لسعيد لأن مغامرتنا انتهت نهاية حسنة .. ونحن جميعا نأمل أن يغتفر لنا ذوونا ما بدر منا ..

والآن لا يوجد ما يستحق أن أكتب عنه .. ولو أننى كنت أعلم ما فى كتابة القصص من عناء ومشقة لما أقدمت على تأليف هذه القصة .. وأعدكم بألا أكتب قصة أخرى .. والسلام .

المخلص
« هاكلبرى فن »

تمت القصة
أول يونيو ١٩٥٨

صدر من كتاب العلوم الإنسانية

فى مجموعة الألف كتاب

(اجتماع . اقتصاد . تربية . علم نفس . تاريخ وتراجم . جغرافيا)
(رحلات . دين . سياسة . فلسفة . قانون . معارف عامة)

(١) حضارة الإسلام	تأليف جوستاف جرونيباوم
(٢) اتجاهات الفلسفة المعاصرة	« إميل برهييه
(٣) البوليس والكشف عن الجريمة اليوم .	« ريجنالد موريش
(٤) سكتلنديارد	« سير هارولد سكوت
(٥) فلسفة الخير	« لويس دكنسن
(٦) حركات الشباب الاجتماعية	« الصاغ الدكتور محمد فتحى
(٧) بلاد ما بين النهرين	« ل . ديلابورت
(٨) بسمرك	« إميل لدفيج
(٩) آثار حضارة الفراعنة	« الأستاذ محرم كمال
(١٠) الحياة الناجحة	« أوستاس تشسر
(١١) كيف تقرأ الجريدة	« إدجار ديل
(١٢) الحياة اليومية فى مصر القديمة	« ألن شورتر
(١٣) الديانات فى إفريقيا	« ه . ديشان
(١٤) الطفل من الخامسة إلى العاشرة	« أرنولد جزل
(١٥) علم نفسك الاقتصاد	« إيفيلين توماس

(١٦) تاريخ العالم من : ١٩١٤ — ١٩٥٠	تأليف دافيد تومسون
(١٧) نحو مجتمع أفضل	« برتراند رسل
(١٨) الأحلام والجنس	« فرويد
(١٩) تاريخ طابع البريد	« بوجان فاييه
(٢٠) تاريخ الجيوش	« جورج كاستلان
(٢١) صحوة أفريقيا	« بازيل دافيدس
(٢٢) الجريدة	« جورج فيل
(٢٣) الحرب بين الماضى والحاضر	« الأميرالاى محمد عبد الفتاح إبراهيم
(٢٤) الانقلاب الصناعى فى انجلترا	« ت. س. أشن
(٢٥) الحضارة العربية	« ى . هيل
(٢٦) مدخل إلى علم الآثار	« السير ليوناردوولى
(٢٧) الجغرافيا والسادة العالمية	« جيمس فيرجيف
(٢٨) الرحالة العرب	« الدكتور نقولا زيادة
(٢٩) تاريخ العلم وصلته بالفلسفة	« ويهام تامبير
(٣٠) طبقات المجتمع	« أندريه جوسان
(٣١) بذور الشر	« إيفان هنتر
(٣٢) فجر الضمير	« برستيد
(٣٣) قصة التجارة الدولية	« فيليس دين
(٣٤) السلام العالمى فى العصر الذرى	« اسكندرهاروو برتراندرسل
(٣٥) تاريخ الصحافة	« اميل بوافان
(٣٦) الاستعمار فى الخليج الفارسى	« الدكتور صلاح العقاد
(٣٧) علم الاجتماع	« موريس جنزبرج

الصحافة فى العالم	تأليف ب . ديوانييه
النجاح	« لورد بيفربروك
سبل الحرية	« برتراند رسل
الجنس البشرى فى معرض الأحياء	« الدكتور أحمد البطراوى
الدولة	« جاك دوه دونييه دى فابر
ستة من علماء الطبيعة	« جون والتن
الطفل الموهوب	« ماريان شيفل
ما هو الجنس ؟	من مؤلفات اليونسكو
هانز كرستيان أندرسون	تأليف رومر جدين
حياة لويس باستور	
ها كلبرى فن	

مطبوعات مكتبة مصر

فى مشروع الألف كتاب

حضارة الإسلام	تأليف جوستاف جرونيباوم
العلوم عند العرب	« الأستاذ قدرى طوقان
تاريخ الموسيقى العربية	« هـ . ج . فارمر
الرادار فى السلم	« دكتور إسماعيل هزاع ، دكتور رزق نخلة سدرة
استخفاء الحيوان	« ا . م . استفنسن ، شارل استيوارت
الذرة فى خدمة السلام	المجمع المصرى للثقافة العلمية
الإنسان والميكروب والمرض	تأليف جون درو
مختارات من المسرحيات القصيرة	هدى حبيشة ، ناديه أبو المجد ، بهاء فهمى
روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني	تأليف جوستاف لوفيفر
الوراثة والسلالة والمجتمع	« ل. س. دن، ث. دوبزها نسكى
دنيا المصالح	« خسنتو بنفنتى
فجر الضمير	« جيمس هنرى برستد
أشهر الأوبرات	« هنرى . و . سيمون ، إبراهام فينوس
دراسات فى جغرافية مصر	« دكتور محمد صفى الدين، دكتور جمال الدين الدناصورى، والأستاذ محمد صبحى عبد الحكيم، والأستاذ أبو بكر على عبد العاطى

تصويب

ص	س	خطأ	صواب
فى بعض الصفحات الأولى		ها كايرى	ها كلبرى
٢٣	١٧	أحمقا	أحمق
٢٧	٩	قصر	قصراً
٨٦	١	ادخل	ادخلى
٨٨	١٢	بنباها	بنبئها
٩٤	١٩	تغطية خطأك	خطئك
١٣٣	١	جد آسفان	جد آسفين

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي الفجالة